أطوار الأدب العربى
فى العصر الإسلامى

الأستاذ الدكتور
السيد محمد الديب

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

توزيع المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة
٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وبعد .....

فهذه الأوراق التي بين يديك - عزيزي القارئ - ترصد بعض الظواهر الأدبية في العصر الإسلامي بقسميه (صدر الإسلام وبني أمية) وقد كتبتها في أزمان متفرقة، وظهر بعضها بمجلات علمية، واستعنت بشئ منها في محاضرات أدبية عامة، ورأيت ملاءمتها لطلاب اللغة العربية أينما كانوا.

وعنوان هذا الكتاب (أطوار الأدب العربي في العصر الإسلامي). ذلك الموضوع الذي كتب عنه الكثيرون وأثيرت حوله قضايا عديدة، فرأيت أن أرصد رؤيتي عنها مستعيناً بالجهود التي حملها لنا القدماء والمحدثون.

والأدب تصوير للحياة، وتعبير عنها، واستجابة لما يهامن متغيرات، فيقول البعض: "الحياة الأدبية" أو "الأدب والحياة" وورت كلمة (أطوار) في قول الله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لله وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ﴾ (نوح ١٣، ١٤).

وقالت الخنساء (تماضر بنت عمرو).

تبكي خُناسٌ على صَخْرٍ وحقَّ لها ... إذ رابَها الدهرُ إن الدهر ضَرّارُ

لابد من ميتَةٍ في صرفها عِبَرٌ ... والدهرُ في صرفِهِ حولٌ واطوارُ

وقدمنا في الباب الأول عدة أطوار للأدب في عصر صدر الإسلام ليتذكر القارئ بها المؤثرات الفاعلة في هذه المرحلة وأبرز الشعراء الإسلاميين فيها

كحسان بن ثابت، والشعراء الذين يلتحفون ببعض أردية الجاهلية كالحطيئة، وقدمنا بعضاً من شعر الرثاء لأبى ذؤيب الهذلى.

وجاء الفصل الأخير فى هذا الباب؛ ليكون معالجة حديثة لقضايا تراثية خالدة، حول النثر الفنى.

أما الباب الثانى فعن الأدب العربى فى عصر بنى أمية، أكدنا فى الفصل الأول منه على روابط الشعر بالبيئة فى الحجاز والعراق والشام.

وتابعنا ما تغنى به ابن أبى ربيعة فى مكة، أو هتف به جميل فى أودية الحجاز، أو ما جاهر به جرير والفرزدق بسوق المربد بالبصرة، أو ما لسع به الأخطل خصومة فى الأدب والسياسة والحياة.

وجاء حديث النثر فى فصلين عن الخطابة والكتابة، وختمنا الحديث بالكلام عن عبد الحميد بن يحيى الذى بدئت الكتابة الفنية به فى نهاية العصر.

وآخيراً ... فهل يمكن لهذا الكتاب أن يحرك ما سكن لدى الأدباء والنقاد عندما يستعيدون من خلاله بعض الذكريات الأليمة فى البيئة العربية القديمة، وجزءاً من الصراعات الأدبية والنقدية فى العصر الإسلامى كله ؟

و ﴿ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ صدق الله العظيم

السبت { ٣ من ذى الحجه سنة ١٤١٩هـ
٢٠ من مارس سنة ١٩٩٩م

دكتور / السيد محمد الديب
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
بجامعة الأزهر - الزقازيق

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

الباب الأول
الأدب فى عصر صدر الإسلام

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

توطئـــة :

لم يظهر أثر الإسلام على الأدب شعره ونثره إلا بعد الهجرة حيث ارتفع صوت الدعوة عالياً فى المدينة، والتف المهاجرون والأنصار حول رسول الله (ﷺ) ودخل المسلمون مع خصومهم وأعدائهم بالجزيرة العربية فى حروب متصلة ، ولم يكن القتال قاصراً على ساحات المعارك، وإنما امتد إلى فنون القول وبخاصة الشعر الذى التحم بالحياة الجديدة. واختلف المخضرمون فى موقفهم من الدعوة الاسلامية، فبعضهم كان يعارضها، ، ويتعصب لديانة أجداده ، ويذم الأنصار ويهجو محمدا (ﷺ) ، وتصدى لهم الفريق الآخر، ويمثله الذين أسلموا والتفوا حول الرسول وأصحابه، إلى أن كان فتح مكة فازداد الشعراء المسلمون قوة، وعلا صوتهم، وأشادوا بالفتوح الإسلامية فى عهد الخلفاء الراشدين، وتنوعت فنون الشعر وتعددت مساراته، آنذاك، وازدهرت الخطابة من بين فنون النثر إلى آخر هذه الحقبة المتميزة التى انتهت مع آخر عهد الخلفاء الراشدين وبدايه حكم بنى أمية فى عام ٤٠هـ.

ولقد تبدلت ملامح الأدب وخصائصه فى عصر صدر الإسلام عما كانت عليه فى العصر الجاهلى، لكن ذلك التبدل لم يكن شاملاً وسريعاً، ومضت حقبة خفت فيها صوت الشعر، ورأى بعضهم أن الخوف من الكذب يحول بينهم وبين الإجادة فى هذا الفن وأن التفاخر بالأنساب ليس محلا للتقدير والإعجاب، كما أن الإسلام قد تصدى لدعاة الفرقة، وحض على الأخلاق الكريمة، وأن الشعراء المسلمين لم يكونوا على درجة واحدة فى التقيد بتعاليم الإسلام، وبعضهم قد امتنع عن قول الشعر واكتفى ببعض السور من القرآن الكريم، فالشاعر لبيد بن ربيعة قد قال:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي ... حتى كساني من الإسلام سربالا[١]

أما حسان بن ثابت فقد صال وجال بشعره فامتدح الرسول وهجا خصومه، ولذا يعد أبرز شعراء الرسول، قال:

شَهِدْتُ بإذن الله أن محمدا ... رسولُ الذى فوق السموات من علُ[٢]

ولم يكن الشعر قاصرا آنذاك على الدعوة، بل انقاد الشعراء لعواطفهم وتوجهاتهم فقالوا فى الغزل والوصف والمدح والهجاء والرثاء وغيرها.

ولا شك فى أن الأدب قد خضع واستجاب فى تأثره إلى بعض الأسباب التى سنعرض لها بشئ من الإيجاز الذى يتلاءم مع الهدف المنشود لهذه السطور، ويأتى فى مقدمة تلك المؤثرات القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، فضلا عن بعض العوامل الأخرى التى يأتى فى مقدمتها تراث العرب فى العصر الجاهلى.

أولاً: القرآن الكريم:

نزل كتاب الله الكريم منجما فى ثلاث وعشرين سنة، وابتدأ نزوله فى شهر رمضان، وفى ليلة القدر منه، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر ١)، وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ – "البقرة ١٨٥"، وقد نزل ما يقرب من ثلثيه فى مكه المكرمة.

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص: ٢٨١.

(٢) ديوان خحسان جـ١ ص:٢٠٣.

وعرفت السور والآيات التى نزلت فيها بالمكية، ونزل الباقى فى المدينة وعرفت سوره وآياته بالمدنية، وأن بعض السورتشتمل على آيات مكية وأخرى مدنية.

وقد أحس أهل مكة بروعة القرآن وجمال أسلوبه وعظمة معانيه، وتفرده عما كانوا يتحدثون به من شعر ونثر، وحاولوا الإتيان بمثله فعجزوا، وكانوا كارهين للدعوة الإسلامية التى أخذ الرسول يذيعها ويهجر بها بين الناس، ووصفوا الرسول بأنه شاعر، وبأن ما يقوله أضغاث أحلام، أو سجع كهان، أونتاج جنون، ولم يتفقوا على شئ - ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ - (الأنبياء آية ٥)، وقال تعالى: ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ، وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ، وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ - (الحاقة ٣٨-٤٣).

أما المسلمون فقد عكفوا على حفظ ما ينزل على رسول الله من آيات بينات، وسألوا عن المعانى التى غابت عنهم، وحرصوا على تلاوته والإشادة به، واستعانوا بكلماته وأساليبه فى تعبيراتهم فقد جمعهم على لهجة قريش والتى صارت لغة للعرب جميعاً.

لقد جمع القرآن تاريخ الدعوة، ونظام التشريع الذى جاء به الإسلام، كما حدد الأسس الأخلاقية التى اتخذت أساساً فى بناء الأمة واستمرار بقائها.

واشتمل القرآن على كل أساليب العرب التى ألفوها، واعتادوا عليها فى الجاهلية وصدر الإسلام، وأضاف إليهم كثيرا من الألفاظ والأساليب التى

لم يسبق لهم أن استعملوها فى الأدب أو الحياة، وتأثر الشعراء والكتاب والخطباء بمعانيه وديباجته الكريمة وحسن أسلوبه، وبديع نظمه، وروعة بلاغته، وجمال بيانه.

وقد تعهد الله تعالى ببقائه وحفظه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ - .(الحجر : ٩) . وجمعت سوره وآياته فى مصحف واحد بعد موقعة اليمامة التى استشهد فيها عدد كبير من حفظة كتاب الله، فخشى الصحابة منه ذهاب القرآن بذهاب حفاظه، فتقدم عمر بن الخطاب إلى أبى بكر الصديق طالبا من الشروع فى جمع القرآن، فقال الخليفة الأول: كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ، ولم يعهد إلينا فيه عهدا، واجتهد عمر فى إقناع أبى بكر بضرورة الجمع، إذ لذلك فوائد عظيمة من أهمها حفظ كتاب الله من الضياع والإبقاء عليه مكتوبا حتى لا يختلف الناس فيه، وعهد بجمعه إلى زيد بن ثابت أحد الكتبة المشهود لهم بالحفظ والأمانة والصدق، وتم تدوينه فى مصاحف معروفة واحتفظ بها أبو بكر إلى أن توفى، فأودعت عند أم المؤمنين حفصة بنت عمر أثناء خلافة أبيها، ولما تولى عثمان بن عفان الخلافة، واتسعت الدولة الإسلامية واختلف الناس فى قراءة القرآن، أمر عثمان بعض الكتبة الأمناء وفيهم زيد بن ثابت بنسخ الصحف التى كانت عند حفصة فى مصحف واحد، وكتبوا منه عدة نسخ، واختص عثمان نفسه بواحدة، وجعل لأهل المدينة نسخة، وأرسل نسخاً أخرى إلى مكة والشام والبصرة والكوفة، وبقى القرآن محتفظا بترتيبه ورسمه العثمانى، ولم يستطع أحد أن ينال منه أو يحرف فيه مع ما تعرض له من محاولات سافرة باءت كلها بالفشل.

لقد تنوع أسلوب القرآن، فوجد به الأسلوب الخطابى المنطوى على وعيد وتهديد، كما فى سورة المسد التى نزلت فى عبد العزى بن عبد المطلب، والذى اشتهر بأبى لهب، كما وجد به الأسلوب القصصى المبنى على الحوار كما فى سورة هود فى حديث نوح مع ابنه، واشتمل على الأسلوب الروائى المبنى على الحوار والرد كما فى سورة يوسف، وعرض لأخبار الأمم السابقة بأسلوب متنوع بين المناقشة والتحليل.

ومن التعبيرات القرآنية التى أحدثها القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ولَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيــهِمْ ورَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة الأعراف: ١٤٩)، فقوله: ﴿ سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ تعبير جديد، ومعناه شدة الندم، وكما فى قوله تعالى: ﴿ ويَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيــلاً ﴾ (سورة الفرقان:٢٧)، وكذلك فى قوله تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيــهَا ﴾ (سورة الكهف: ٤٢)، إلــى غير ذلك من الأساليب التى أخذت بالألباب وانبهر بهــا النــاس فى كل زمان ومكان.

جمع القرآن العرب على لغة واحدة هى لغة قريش، ومع أنها كانت ذائعة فى الجاهلية لكنها أخذت تنمو وتنتشر فى داخل الجزيرة العربية وخارجها، وصارت لغة ذات دين سماوى، واستعملت مفردات لم يكن لها وجود فى أدب العرب مثل الوضوء، والإيمان، والسجود، والكفر، والإشراك، والفرقان، والصلاة وغيرها، كما هذب القرآن اللغة من الألفاظ الحوشية الغريبة، وصارت بعض الكلمات الأعجمية جارية على اللسان العربى وهى ترجع فى أصلها إلى لغات

الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران، والسريان والقبط نذكر منها: الجبت، والإستبرق، والسندس، القسطاس، الزنجبيل وغيرها، فهذه الكلمات ذات الجذور الأجنبية القديمة قد أخذت جنسيتها وقالبها العربي بفضل القرآن الكريم الذي بعث الروح والتعرب فيها.

بعض الآيات من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ، وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ، وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ ، وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا ، وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ، وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (سورة هود: ٤١ - ٤٤).

وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا ، فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (سورة الإسراء: ٢٣-٢٤).

وقال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴾ (سورة العلق: ١-٨).

ولا اختلاف في إعجاز القرآن بين آية وأخرى، وليست للآيات المذكورة ميزة على غيرها، ولم نقصد منها إلا تقديم بعض الآيات التي لها دلالات معينة لا تخفى على القارئ.

ثانياً: الحديث النبوى:

الحديث النبوى: كل ما نقل عن رسول الله (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة، فالحديث بذلك ليس كله من أقوال الرسول، فنسبة كبيرة منه رويت بمعانيه، فالصياغة إما أن تكون بألفاظ الرسول أو بألفاظ أصحابه، وقيل إن الذى ذكره الصحابة منسوباً بمعناه إلى الرسول يسمى الأثر، أما الأحاديث التى رويت بأسلوب الرسول فذات ملامح خاصة يمكن أن يتفهمهما ويتعرف عليها المتخصصون فى دراسة مصطلح الحديث من ناحية المتن، على أن هذه الملامح تتجلى فى قدرة الرسول على إرساء الحكمة وإجادة الحوار وإحكام التشبيه، وضرب الأمثال، وجمال الصياغة ومطابقة كلامه لأحوال السامعين.

كان الحديث النبوى متداولا فى حياة الرسول، لأن به تفصيلا لكثير من الأحكام الشرعية التى جاءت مجملة وغير مفصلة فى القرآن الكريم، وكان الرسول يحثهم على ذلك، فقد روى عبد الله بن عباس قول الرسول: "اللهم ارحم خلفائى، قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يروون أحاديثى ويعلمونها الناس" وتكرر قوله فى حجة الوداع: "ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب".

ولم يدون الحديث فى عهد رسول الله (ﷺ) باستثناء بعض رسائله وأحكامه التى وجهت إلى أشخاص أو أقوام بعينهم يدعوهم فيها إلى الإسلام أو يبين بها بعض الفرائض الدينية، كما لم يدون الحديث فى عهد الصحابة الأجلاء، وقد عرض لهذا الأمر عمر بن الخطاب فقال: " إنى كنت أردت أن أكتب السنن، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها، وتركوا كتاب الله تعالى، وإنى والله لا ألبس كتاب الله بشئ أبداً"، وحتى لا يكون بجنب القرآن كتاب آخر، حتى لو كان ذلك كتابا يجمع بين دفتيه أحاديث الرسول

(ﷺ)، ونتج عن ذلك اضطراب كبير فى رواية الحديث، وتجرأ من تجرأ فنسب لرسول الله ما ليس له.

وقد اشتهر جماعة من الصحابة بكثرة الرواية مع الأمانة والدقة كأبى هريرة وعائشة وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت وأبى سعيد الخدرى وأبى موسى الأشعرى وأنس بن مالك وغيرهم، وأخذ عنهم بعض التابعين إلى أن تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة (٩٩ – ١٠١هـ) فأمر بكتابة الحديث النبوى.

وقد أسهمت الأحاديث التى قالها الرسول بلسانه ورويت بألفاظه فى انتشار اللغة العربية، وذلك إلى جانب القرآن الكريم، وعرضت بعض الأحاديث لشرح كثير من آيات التنزيل الحكيم، وزادت أهمية الحديث بعد تدوينه فحرص المسلمون على جمعه وشرحه، والتعريف برواته وحفاظه، وتمخض عن ذلك نشأة نوع من الكتابة التاريخية، هى الترجمة والتأريخ لحياة هؤلاء الرواة، ليتسنى الحكم عليهم من حيث العدل وغيره، وألفت كتب كثيرة تحقق هذا الغرض مثل (حلية الأولياء) لأبى نعيم الأصبهانى، و (الاستيعاب) لابن عبد البر، و (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) لابن الأثير و (الإصابة فى تمييز الصحابة) لابن حجر وغيرها.

ثم انتقل هذا اللون من الكتابة إلى العلوم الأخرى فظهرت التراجم لعلماء الفقه والتفسير واللغة والأدب.

ويحسن بعد هذا العرض الموجز أن نختار بعضا من أحاديث الرسول، ليتضح منها مذهبه فى القول وأسلوبه فى التعبير، معتمدين فى هذا الاختيار على بعض ما ذكره الجاحظ فى كتابه (البيان والتبيين).

فمن أقوال الرسول التى نطق بها ولم يسبق إليها:

"الآن حمى الوطيس" في صفة الحرب يوم حنين.

وقوله: "هدنة على دخن، وجماعة على أقذاء" عن إظهار الصفاء وإضمار الضغينة والفساد.

وقوله: "لا يلسع المؤمن من جحر مرتين"، وفى رواية: "لا يلدغ".

وقوله: "المستشار مؤتمن" – وقد صارت هذه الأقوال وغيرها محل تقدير عند أرباب الكلام.

وقال (ﷺ): "إن الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبله جميعا، ولا تفرقوا، وأن تناصحوا ممن ولاه الله أمركم، ويكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال".

وقال: "أوصانى ربى بتسع: أوصانى بالإخلاص فى السر والعلانية، وبالعدل فى الرضا والغضب، وبالقصد فى الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمنى، وأعطى من حرمنى، وأصل من قطعنى، وأن يكون صمتى فكرا، ونطقى ذكرا، ونظرى عبرا".

وقال: "إن قوما ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموا، فصار لكل رجل موضع، فنقر رجل موضعه بفأس فقالوا: ما تصنع؟ قال: هو مكانى أصنع به ما شئت، فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا، وإن تركوه هلك وهلكوا"(١).

---

(١) راجع البيان والتبيين جـ٢ ص١٥ إلى ص: ٢٥ وما بعدها، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الرابعة.

ولا شك فى أن هذا البيان الصافى والنبع الشافى قد أفاد الأدب واللغة فى العصر الإسلامى الأول، وعظمت الإفادة فيما تلاه، ولا زال العطاء باقيا ومستمراً.

ثالثاً: الأدب الجاهلى:

لقد حمل الأدب فى عصر الإسلام كثيرا من خصائص الأدب الجاهلى، وظهر ذلك فى الشعر الذى أبقى على كثير من خصائص الجاهليين، فمعظم الشعراء آنذاك كانوا من المخضرمين الذين تكونت ملكاتهم الفنية قبل ظهور الإسلام، ثم إن هذا التأثر كان فى الأساليب والأفكار والموضوعات، فلا يتصور أن يقطع هؤلاء الشعراء كل صلاتهم بالماضى بين عشية وضحاها، ثم إن بعض الموضوعات مثل المدح والوصف لم تتضح فيها الصيغة الإسلامية بدرجة كافية، وزاد ارتباطها بالأدب الجاهلى بالنظر إلى بعض الموضوعات الأخرى كالرثاء، وبقى هذا التأثر بدرجات مختلفة فى العصور التالية.

أما النثر فى صدر الإسلام فقد تأثر قليلا بالأدب الجاهلى وكان تأثره بالقرآن الكريم والحديث النبوى الشريف عظيما، ووضح ذلك فى خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم، وازداد التأثر فى عصر بنى أمية.

الفصل الاول
الشعر فى عصر صدر الإسلام (خصائصه واتجاهاته)

لم يقف الإسلام – منذ أول عهده – ضد الشعر، وإنما رفض نوعا منه وهو الذى يمزق الشمل، ويفرق القلوب، ويثير الأحقاد والضغائن، وكان منه فى الجاهلية قدر كبير، قال تعالى ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُون ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ، إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾(الشعراء: ٢٢٤–٢٢٧) .. فالإسلام لا يقبل من الشعر إلا ما كان فى حدود الأخلاق الكريمة.

وقد شغل العرب بالدين الجديد، بين مؤيد ومعارض،ودخل فى الخصومة بعض الشعراء، من قريش الذين هجوا الرسول (ﷺ)، وبعض أصحابه ورفضوا دعوته، مع ما أحدثته من متغيرات فى مكة والمدينة، ونهى الرسول (ﷺ) عن قول هذا اللون من الشعر وروايته. قال: "لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلئ فمه شعرا".

وقاد الدعوة المعارضة بعض الشعراء فى مقدمتهم عبد الله ابن الزبعرى السهمى، وعمرو بن العاص، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وضرار ابن الخطاب، فآذوا الرسول إيذاء شديدا بهجائهم له وتسفيههم لدعوته، وأمسك المسلمون عن المواجهة احتراماً لدعوة الإسلام، ولأمر الرسول، إلى أن أذن لهم فقال: رسول الله (ﷺ) "ما يمنع القوم الذين نصروا رسول الله (ﷺ) بسلاحهم

أن ينصروه بألسنتهم"(١)، وتصدى للرد عليهم بعض الشعراء المسلمين، في مقدمتهم حسان بن ثابت، وكعب بن مالك ،وعبد الله بن رواحة، كانوا يردون بطريقة أقرب إلى النمط الجاهلي المعروف بما فيه من هجاء وتفاخر بالأنساب وبالشرف والسؤدد، ووجه الرسول حسانا إلى من يمده بتاريخ الأنساب، وقال له: "يا حسان فأت أبا بكر، فانه أعلم بمثالب القوم منك" واستأذن حسان الرسول في هجاء أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، لما بينهما من قرابة، وتساءل الرسول قائلا: يا حسان وكيف وهو مني وأنا منه؟ قال: والله لأسلنه منك كما يسل الشعر من العجين!" وقد فعل الرجل، وقام بدوره وأدى واجبه، ودافع عن الدعوة وأشاد - مع زملائه من شعراء المسلمين - بالانتصارات التي تحققت، ولقب بشاعر الرسول، ثم خفت صوت المعارضين وتوالى دخولهم في الإسلام فمدحوا الرسول واعتذروا عما قالوه قبل إسلامهم ومن هؤلاء: كعب بن زهير، الذي وفد على الرسول، ومدحه باللامية الشهيرة والتي بدأها بالغزل، فقال:

بانت سعاد، فقلبي اليوم متبول ∴ متيم إثرها لم يُجْز مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ∴ الا أغنُّ غضيضُ الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظَلْم إذا ابتسمت ∴ كأنه مُنْهَلٌ بالراح معلول

وقال:

نبئت أن رسول الله أوعدني ∴ والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) الأغاني جـ٤ ص١٤٧ طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) السابق جـ٤ ص١٣٩.

مهلا ! هداك الذى أعطاك نافلة الـ ∴ قرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ

لا تأخذنّى بأقوال الوشاة، ولم ∴ أذنب، ولو كثرت عنّى الأقاويل

وقـال:

إن الرسول لَسَيفٌ يُستضاء به ∴ مهند من سيوف الله مسلول

فى عصبة من قريش قال قائلهم ∴ ببطنِ مكة لما أسلموا: زولوا

زالوا، فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ ∴ عند اللقاء ولا مِيلٌ معازيل(١)

وروى أن الرسول (ﷺ) قال لحسان بن ثابت: "اهجهم – يعنى قريشا – فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام فى غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات".

ومما قاله حسان بن ثابت فى الدفاع عن الرسول ومتحديا أبا سفيان بن الحارث:

الا أبلغْ أبا سفيان عنى ∴ فأنت مُجَوَّفٌ نَخِبٌ هواءُ

---

(١) الديوان طبع المكتبة العلمية – بيروت ١٩٨٧م ص٦٠ وما بعدها.

وبانت: فارقت، متبول: متيم، مكبول: مقيد، البين: الفراق، أغن: صفة للغزال الذى فى صوته غنة، غضيض الطرف: منكس الأجفان، العوارض: الضواحك، الظلم: ماء الأسنان وبريقها، المنهل: المسقى مرة أولى، الراح: الخمر، المعلول: المسقى مرة بعد أخرى. النافلة: العطية الزائدة على ما يجب من العطاء، تفصيل: تبيين، لا تأخذنى: لا تتهمنى بأقوال الواشين، المهند: المنسوب إلى الهند وهو أجود السيوف عند العرب. العصبة: الجماعة، قائلهم: اراد عمر بن الخطاب، زولو: هاجروا من مكة إلى المدينة، أنكاس: جبناء ومفردها نكس، كشف: جمع أكشف وهو من لا ترس له، معازيل: جمع معزول: من لا سلاح معه.

هجوتَ محمدا فأجبتُ عنه ∴ وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولست له بكفء ∴ فشر كما لخير كما الفداء
هَجُوْتَ مباركا بَـرًّا حنيفا ∴ أمين الله شيمته الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ∴ ويمدحُه وينصره سواء
فإن أبي ووالدَه وعرضي ∴ لِعرْضِ محمد منكم وِقَاءُ(١)

وأشاد الرسول بالشاعر لبيد، وتحدث عن شطر بيت له، فقال: أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: (ألا كل شئ ما خلا الله باطل)، وهي شطر بيت له وتمامه:

الا كلُّ شيئٍ ما خلا اللهَ باطلُ ∴ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ(٢)

مع أن لبيدا صاحب مواقف كريمة، وله أبيات خالدة، تنم عن إخلاصه للدعوة الإسلامية، وقد عاش مدة طويلة في الجاهلية، ولهج لسانه بأشعارها.

ولما جاء الإسلام تخلى عن دوره السابق، وقال: "ما كنت لأقول شعرا بعد أن علمني الله سورتي البقرة وآل عمران"، ولعله يقصد الشعر الذي منع الرسول روايته لما يحدثه من غوايه وضلال وانحراف عن الخلق القويم.

لقد عرض بعض القدماء والمحدثين لقضية ضعف الشعر بعد ظهور الإسلام، فقال البعض بهذا الضعف، واستأنسوا بكلمة للأصمعي وهي: "إن الشعر نكد بابه الشر"، وقال بذلك الضعف ابن خلدون، وذكر بعض المعاصرين هذا الرأى، ومنهم المستشرقون، ولا أعتقد أن القول بضعف الشعر بعد ظهور

---

(١) ديوان حسان بن ثابت جـ١ ص: ١٨ ط/ دار صادر – بيروت.

(٢) الشعر والشعراء جـ١ ص: ٢٨٥

الإسلام فيه إساءة لهذا الدين، لأن معظم القائلين بهذا الرأى ينادون بالفصل بين الدين والشعر، ويؤيد ذلك ما قاله بعض القدماء من أمثال على بن عبد العزيز الجرجانى مع أن الموضوع متشابك، والقضية ذات جوانب متعددة.

وأعود فأؤكد أن القول بضعف الشعر فى الإسلام لا يعتبر بأى حال من الأحوال تقليلا من شأن هذا الدين، أو هجوما عليه، ذلك لأن القول بالضعف إنما نتج عن انقسام الشعراء بين مؤيد للدعوة ومعارض لها، وأن الإسلام فى أول ظهوره قد منع الشعر الذى يثير الضغائن ويزرع الفتن، سواء أكان هجاء أو فخرا أو أى لون آخر يحمل تلك المضامين ... ثم مضت فترة محدودة توقف بعدها معظم الشعراء المعارضين عما كانوا يقولونه، وأسلم بعضهم، وانطلق الشعر بقوة إلى كل الموضوعات بما فيها الهجاء والفخر والغزل مع بداية القسم الثانى من العصر الإسلامى وهو عصر بنى أمية.

وأما القول بأن الشعر لم يضعف فى أوائل ظهور الاسلام فهو رأى سديد وكلام تؤيده دواوين الشعراء، لأن الإسلام لم يمنع الشعر، ألم يقل الرسول: "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما أو لحكمة"، وقد استمع إلى حسان، وكعب ابن مالك، وابن رواحة، وكعب بن زهير، وأشاد بالخنساء، وقبل الشعر الذى عاتبته به قتيلة بنت النضر، ولهذا لا ينبغى أن نتجاوز فى طرح هذا الرأى أو ذاك حدود التاريخ الأدبى بما فيه من أقوال وآراء يتفق الناس فيها قليلا، ويختلفون كثيرا.

وأحب أن أقول هنا كلمة، وهى ليست حلا وسطا بين الرأيين المذكورين، وإنما هى مجموعة من الحقائق والاستنتاجات التى عايشتها، وأجبت بها عن أسئلة تلقيتها فى بعض المحاضرات واللقاءات الأدبية.

لقد اشتهر العرب في جاهليتهم بقول الشعر وروايته وانتقلوا بالكثير منه إلى الإسلام، وحتى تدوينه في منتصف القرن الثاني، وقامت كل قبيلة تفتخر بما قيل فيها من شعر ويمن عندها من شعراء، وأدى ذلك إلى نشوء الوضع والنحل لترفع بعض القبائل من شأنها، وأقبل الإسلام، وأحدث صدمة عنيفة فى العقائد الموروثة للعرب، واختلفوا فى الحكم على القرآن الكريم، وأسلم الكثيرون من الشعراء المعروفين، ورفض بعضهم الدين الجديد، وتمسكوا بما كان فى حوزتهم من مال وسلطان، ومكانة اجتماعية، ومن بين هؤلاء بعض الشعراء ويضاف إلى من ذكرنا منهم شعراء آخرون مثل ضرار بن الخطاب الفهرى، وابن عزة الجمحى، وهبيرة بن أبى وهب المخزومى، ومعهم أيضاً أمية بن أبى الصلت، والأسود بن يعفر، ومن شعراء اليهود كعب بن الأشرف.

فالاستنتاج من هذا القول أن الشعر قد قل نتاجه، ولم يعد بالغزارة التى كان يتصبب بها فى الحواضر والبوادى أيام الجاهلية، ومن المؤكد عندى أن القلة شئ والضعف شئ آخر، والعبرة ليست بالكثرة وإنما بالإتقان والجودة وحسن الصياغة والتعبير عن متطلبات الفرد والجماعة، وهذه القلة يؤكدها أن الرسول قد منع – لمدة تطول أو تكثر – أشعارا فى الفخر والهجاء والخمر والتبجح بالغزل المكشوف من الشعراء الذين دخلوا فى الإسلام.

وأعتقد أن القول بالضعف وعدمه يرجع إلى الموضوع وليس إلى الشعر، فمن قصد إلى الشعر الذى يتعارض مع الدعوة عموما خاصة فى صدر الإسلام وهو اللون الذى أشرنا إليه آنفا، فإننا نقول بضعف هذا الشعر ضعفا مصاحبا لقله الشعر، ولا نؤيد – بالقطع – من قال بعموم الضعف.

وثاني الاستنتاجات أن معظم ما قيل في المدح والرثاء كان صادقا وقويا، ففي المدح قرأنا أشعارا لحسان وابن رواحة، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وشهد العصر ولادة لون من المديح عرف بالبديعيات، وهي القصائد التي وجهت إلى مديح الرسول (ﷺ)، ومنها لامية ابن زهير التي لقبت بالبردة، وقد أعجب الرسول بها وعرفت بذلك لأن الرسول خلع عليه بردته، وألقاها على كتفه تعبيرا عن هذا الإعجاب.

أما الرثاء فهو اللون الذي بلغ في صدر الاسلام شأوا كبيرا وقد ذكر ابن رشيق في العمدة أن قتيلة بنت النضر بن الحارث عرضت للنبي (ﷺ) وهو يطوف فاستوقفته، وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه، وقد كان قتل أباها (أو أخاها) فأنشدته:

يا راكبا إنّ الأثيلَ مَظِنَّةٌ ... من صبح خامسةٍ وأنت موفق
أبلغ به ميتا بأن قصيدة ... ما إن تزال بها الركائب تخفُق
مني إليه وعبرة مسفوحة ... جادت لمائحها وأخرى تخنق

وتتحول من الرثاء إلى العتاب، فتقول:

أمحمدٌ ها أنت نجل نجيبةٍ ... من قومها والفحلُ فحلٌ مُعْرِق
ما كان ضرك لو مننتَ وربما ... منّ الفتى وهو المغيظ المحنق
والنضر أقرب مَنْ قتلتَ وسيلةً ... وأحقهم إن كان عتقٌ يعتق

فقال النبي (ﷺ): "لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته"(١).

---

(١) العمدة جـ١ ص: ٥٦.

ولو تجاوزنا الشك والارتياب بهذا الموقف وما صحبه من شعر إلى اليقين به والثقة فيه لقلنا إن الرسول قد أعجب بهذا الرثاء ورق له ولم يعترض عليه مع أن بقية الأبيات فيها رائحة من بكاء الجاهلين على موتاهم.

والشاعر متمم بن نويرة يبكي دما ودموعا على أخيه (مالك)، قال:

فلما تفرّقنا كأني ومالكا ... لطُول اجتماع لم نَبِتْ ليلةً معا
وكنا كَنَدْمَانَيْ جَذِيمةَ حِقْبةً ... من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
فإن تكن الأيام فرقن بيننا ... فقد بان محمودا أخي حين ودّعا(١)

وتأتي الخنساء فتبكي بشعر حزين مؤثر على أخويها، صخر ومعاوية، وترثي أباها، ثم تبلغ قمة الأسى واللوعة في حزنها على أبنائها الأربعةالذين استشهدوا في حرب القادسية، ولكنها كانت قد تجلدت على الصبر منذ صدمتها الأولى في أخيها (صخر)، ولما مات أبناؤها الأربعة قالت: "الحمد لله الذى شرفني بقتلهم، وأرجوا أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

وكانت قد وفدت مع قومها بني سليم على الرسول، فأسلمت وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله: "هيه يا خناس".

ومن رثائها لصخر:

قَذًى بعينك أم بالعين عُوّار ... أمْ ذَرَفَتْ إذ خلت من أهلها الدارُ
كأن عيني لذكراه إذا خَطَرَتْ ... فيضٌ يَسيلُ على الخدين مِدرار
تبكي لصخر هي العَبْرَى وقد وَلَهَتْ ... ودونه من جديد التُّرْب أستارُ

---

(١) المفضليات جـ٢ ص: ٩٥٧، ٩٥٨.

وقالـــت:

وإن صخرا لمقدام إذا ركبوا ∴ وإن صخرا إذا جاعوا لعقّار
وإن صخرا لتأتمّ الهداة به ∴ كأنه علم في رأسه نار
جَلْدٌ جميلُ المُحَيَّا كاملٌ وَرِعٌ ∴ وللحروبِ غداةَ الروعِ مِسعارُ(١)

والخنساء أصدق الباكيات، وأبلغ الراثيات فى هذا العصر، وكأنها قد فتحت بابا فى الرثاء ولجت فيه قتيلة بنت النضر وليلى الأخيلية وغيرهما من النساء والرجال.

ولا أريد أن أتحول عن الرثاء قبل أن أذكر أبياتا لأبى ذؤيب الهذلى فى رثاء أبنائه الخمسة الذين تركوه وهاجروا إلى مصر، فماتوا فيها بالطاعون فى عام واحد، قال:-

أمِنَ المَنُون وريبها تتوجَّع ؟ ∴ والدهرُ ليس بمعتب مَنْ يجزَعُ
أودى بَنيَّ وأعقبوني حسرةً ∴ بعد الرُّقاد وعبرةً ما تقلِعُ
سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهمُ ∴ فتُخُرِّموا، ولكلّ جنب مصرع
فَغَبَرْتُ بعدهم بعيش ناصبٍ ∴ وإخالُ أنى لاحقٌ مُسْتَتْبَعُ
ولقد حَرَصْتُ بأن أدافعَ عنهم ∴ وإذا المنية أقبلت لا تُدفع
وإذا المنيةُ أنشبت أظفارها ∴ ألفيت كل تميمةٍ لا تَنفع(٢)

---

(١) ديوان الخنساء ص٤٧ وما بعدها - دار صادر بيروت.

والعوار: وجع فى العين مثل الرمد، العبرى: الدامعة.

(٢) سيأتى حديث عن هذه العينية.

فالرثاء كثير جدا فى هذا العصر، وأكثره صادق مؤثر، وقد عبرت النساء فيه بخاصة عن أحزانهن، وحسرتهن، على من مات حتف أنفه أو استشهد فى غزوات الرسول وحروب الصحابة، فمن يقول بعد ذلك إن هذا الشعر كان قليلا أو ضعيفا ؟

كما يمتلئ ديوان الرثاء فى عصر الخلفاء الراشدين بالعديد من قصائد الرثاء، حيث عبر الشعراء فى قصائدهم الحماسية عن الفتوح الإسلامية ورثوا من استشهد فيها، كما رثوا من مات أو قتل من الصحابة الأجلاء، فقد رثى ابن ضرار فى شعر حزين عمر بن الخطاب، كما رثى أيمن بن خريم الخليفة الثالث عثمان بن عفان، فقال:

ضحوا بعثمانَ فى الشهر الحرام ولم ∴ يَخْشَوْا على مطمحِ الكف الذى طَمَحُوا
فأىَّ سنةِ جَوْرٍ سَنَّ أولُهمْ ∴ وبابِ جَوْرٍ على سلطانهم فتحوا
ماذا أرادوا أضلَّ الله سعيهم ∴ من سفح الدمِ الزاكى الذى سفحوا(١)

على أن حياة الشعر فى عصر الخلفاء الراشدين لم تضعف ولم ينشغل الشعراء بالفتوح على حساب الشعر، ولقد تابعوا الانتصارات الإسلامية فى مصر وأفريقية والشام والعراق وفارس وغيرها.

وممن أشادوا بها وتحدثوا عنها أبو محجن الثقفى وعمر بن معد يكرب الزبيدى وعروة بن زيد الخيل وعبده بن الطيب وغيرهم، وكان شعر الفتوح كثيرا، وإن تميز بقصر قصائده وكثرة مقطعاته، وهذا شأن الكثير من الشعر

---

(١) الكامل للمبرد جـ٣ ص٣٠ (دار نهضة مصر).
وسفح الدم أى سفكه وصبه.

الحماسي الثائر الذى يبدو كأنه بلاغات حزينة، أو خواطر تتسم بالبساطة وعدم التكلف كشعر الخوارج الذى كثرت نماذجه فى عصر بنى أمية.

قـال عمـرو بن معد يكرب الزبيـدى عـن موقعة القادسية فى قصيدة حماسية:-

والقادسية حيث زاحمَ رُستمُ ... كنا الحماةَ بهن كالأشطان

الضاربين بكل أبيضَ مِخْذَمٍ ... والطاعنين مجامع الأضغان

ومضى ربيعٌ بالجنود مُشرِّقاً ... ينوى الجهاد وطاعة الرحمن

حتى استباح قرى السوادِ وفارسٍ ... والسهل والأجبال من مكران[1]

فالأشعار كثيرة فى عصر الخلفاء، ويأتى قسم منها للحديث عن الفتوح، وهى أشعار مرتبطة بمواقف ومناسبات محددة، لذلك يقل تداولها مع ما تمثله من قيمة تاريخية وسياسية.

فالقول بضعف الشعر أو قوته، وبقلته أو كثرته، يرجع إلى الموضوع وملابساته، اذ لا تلقى القضية – فى حقل الدراسات الأدبية – بمثل طرحها فى الكتب العامة ذات التوجه التاريخى أو الاستشراقى.

---

(١) ذيل الأمالى والنوادر للقالى جـ٢ ص١٦٢ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.
والأشطان: الجن والمردة، الأبيض: السيف، المخذم: القاطع، مجامع الأضغان: القلوب.

الفصل الثانى
من شــعراء صــدر الإســلام

إن أكثر الشعراء الذين ظهروا فى الساحة الإسلامية منذ الهجرة النبوية إلى قيام دولة بنى أمية قد ارتبطوا بالعصر الجاهلى الذى يرجع إليه تكوينهم اللفظى والتاريخى، وعرفوا بالشعراء المخضرمين من أمثال حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكعب بن زهير والنابغة الجعدى والخنساء والحطيئة وأبى ذؤيب الهذلى وبعض الشعراء الآخرين الذين لم ينضموا إلى كوكبة الشعراءالاسلاميين فى تلك الحقبة، إذ تصدوا للدعوة الجديدة كعبد الله ابن الزيعرى وأمية بن أبى الصلت وامتد ظهور أكثر الشعراء في هذا العصر إلى زمن الحكم الأموى وأسهموا بتواجدهم فى البيئات الشعرية المختلفة ببحث القضايا السياسية والعقائدية، كما لم يعد صوت القبيلة هو المهمين على توجهات الشعراء، فشغل الكثيرون بالقضايا الجديدة، كالمديح النبوى والجهاد فى الفتوح الإسلامية والنضال السياسى، وصار الولاء للمذهب الفنى أو الوجهة السياسية، فى ظلال الالتزام الذى خضع الشعراء له مع الدين الجديد..

وقد كان عصر صدر الإسلام مرحلة وسطى، وانتقل الأدب فيها من الجاهلية إلى عصر بنى أمية، وانضم إلى سجل الشعراء الإسلاميين فى هذا العصر بعض الرجال الذين استجابت قرائحهم للأحداث المضيئة وعبروا ببعض القصائد والمقطوعات عن عاطفتهم الدينية المتقدة فيما سمى بشعر الفتوحات الإسلامية.

وأكد ابن رشيق على اتساع دائرة الشعر الإسلامي بالباب الذى جعله فى كتابه (العمده) لأشعار الخلفاء والقضاة والفقهاء فأورد شعرا لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابنيه (الحسن والحسين) وحمزه والعباسى (وابنه عبد الله) وجعفر بن أبى طالب وغيرهم.

وتمتلئ السيره النبويه لابن هشام، والاستيعاب، والبداية والنهاية والأغانى والإصابة وغيرها بنماذج كثيرة لرجال من هذا العصر ليست لهم دواوين شعرية يمكن الرجوع إليها.

أما صناعة الشعر فقد تحدث عنها الدكتور شوقى ضيف، فقال:

"ومن المحقق أن الشعراء الذين نبتوا فى الجاهلية، وعاشوا فى صدر الإسلام لم يختلفوا فى صناعة شعرهم عن آباذهم الجاهليين إلا قليلا، فقد ظلوا ينظمون شعرهم على الصورة الجاهلية، ولم يؤثر الإسلام فيهم تأثيرا واسعا على نحو ما هو معروف عن الحطيئة وأضرابه، وحتى حسان بن ثابت لا تجد فى نسيج شعره من أثر الإسلام خيوطا كثيرة، ولذلك لم يخطئ ابن سلام حين قرن فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) هؤلاء المخضرمين الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام إلى الجاهليين"(١).

وتتمثل بعض الخيوط المذكورة أو المعانى الجديدة المطروحة فى خمود العصبية القبيلة حتى نهاية عصر الخلفاء الراشدين، والتعبير عن المعانى الإسلامية الجديدة المستقاه من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتوظيف الشعر فى خدمة الدعوه والرد على شعراء الوفود، وتصوير الأحداث ورثاء الشهداء ومدح الرسول وأصحابه وهجاء الخصوم والأعداء.

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د. شوقى ضيف، دار المعارف بمصر عام ١٩٧٨م.

حسان بن ثابت

شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم

ولد حسان بن ثابت بن المنذر (الخزرجى) فى يثرب قبل الهجرة النبوية بما يقرب من ستين عاما، وأمه الفريعة بنت خالد[١] وهى من الخزرج أيضاً، كما ينتسب إلى بنى النجار أخوال الرسول (ﷺ).

ويكنى أبا الوليد وأبا المضرب وأبا الحسام وأبا عبد الرحمن، ويكتنف الغموض التاريخى بواكير حياته الاجتماعيه فى يثرب باستثناء بعض الشذرات البسيطة التى تتصل بموهبته وصراعه بها مع اثنين من شعراء الأوس هما قيس ابن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت، ولم يحصر طموحاته فى الدفاع عن القبيلة، وقد كان لسانا قويا لها ضد الأوس، وإنما انتقل إلى بلاط الغساسنه فمدحهم، وبخاصة آل جفنة الذين لم يبخلوا عليه بأفضل الجوائز، وقيل إنه أدرك بلاط المناذره، فى عهد النعمان بن المنذر.

ومما قاله فى مدح عمرو بن الحارث الغسانى:

لله دَرُّ عصابةٍ نادمتهم ∴ يوما بجِلِّقَ فى الزمان الأول
يمشون فى الحلل المضاعَفِ نسجُها ∴ مَشْىَ الجمال إلى الجمال البُزَّل
الضاربون الكَبْشَ يبرُق بيضُه ∴ ضربا يطيح له بَنان المَفْصِل
والخالطون فقيرهم بغنيهم ∴ والمُنْعِمون على الضعيف المُرْمِل

---

(١) أو بنت خنس (راجع مقدمة الديوان ص٩) طبع دار صادر بيروت تحقيق د. وليد عرفات.

أولادِ جفنةَ حول قبرِ أبيهم ٭٭ قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ(١)

وقد أقر النابغة الذبياني بشاعريته فروى صاحب الأغاني: "قال حسان ابن ثابت: جئت نابغة بنى ذبيان فوجدت الخنساء بنت عمرو، حين قامت من عنده، فأنشدته فقال: "إنك لشاعر، وإن أخت بنى سليم لبكاءه"(٢).

وفى موقف آخر رد حسان ردا عنيفا على النابغة فى سوق عكاظ عندما قدم عليه الأعشى(٣).

وكان معظم شعره الجاهلى فى الفخر والمدح، وتميز بقوة الديباجة وصخامة الجرس وصدق العبارة وروعة البناء واعتنق الإسلام بعد هجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة، وكان عمره آنذاك ستين سنة، وعكف على مدح الرسول وهجاء خصوم الدعوة من أمثال بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبى سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، والرد على شعراء وفود القبائل، وكان ينشد شعره الإسلامى فى المسجد.

ففى الصحيحين عن البراء بن عازب أن النبى (ﷺ) قال لحسان: "اهجهم، أو هاجهم وجبريل معك".

---

(١) الديوان جـ١ ص: ٧٤ وحلق بدمشق، أو هى دمشق.

الزمان الأول: أيام الشباب، البزل: جمع بازل وهو من الجمال ما استكمل الثامنة وطعن فى التاسعة، والكبش: الرئيس، والبيض: جميع بيضاء وهى الخوذة، مارية: أم بنى جفنة بن عمرو وبنت ملك الروم.

(٢) الأغانى جـ٢ ص: ١٦٧.

(٣) السابق جـ١١ ص: ٦.

وعن عائشة أن النبى (ﷺ) كان يضع لحسان المنبر فى المسجد يقوم عليه قائما، يهجو الذين كانوا يهجون النبى (ﷺ) وآله وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " إن روح القدس مع حسان، ما دام ينافح عن رسول الله (ﷺ)" (سنن ابى داود)(١).

ومما يذكر لحسان وقوفه مع الرسول فى مواجهة بعض قبائل العرب فى عام الوفود ومن أشهرها وفد بنى تميم، وكانوا سبعين أو ثمانين رجلا، ومنهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعطارد بن حاجب وقيس بن بن عاصم(٢). فتحدثوا بمفاخرهم ورد عليهم الرسول. ومما قاله الزبرقان:

نحن الملوكُ فلا حي يقاربنا ∴ منا الملوك وفينا يُوخذ الرُّبُعُ
تلك المكارم حزناها مقارعةً ∴ إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

وأرسل النبى إلى حسان فجاء وهو لا يدرى ما يقول، فأخذ يهئ نفسه بأبيات يرد بها، فارتجل قصيدة فى مدح الرسول وأصحابه وأولها:

إن الذوائبَ من فهر وإخوتَهم ∴ قد بينوا سنة للناس تُتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته ∴ تقوى الإله، وبالأمر الذى شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضروا عدوَّهُمُ ∴ أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غيرُ مُحْدَثةٍ ∴ إن الخلائق حقا شرُّها البدَعُ(٣)

---

(١) الاصابة لابن حجر جـ٢ ص:١٤٦ طبع دار الغد العربى.
(٢) الأغانى جـ٤ ص: ١٤٦.
(٣) الديوان جـ١ ص: ١٠٢ والأغانى جـ٤ ص١٤٨، ص: ١٤٩.
الذوائب: جمع ذؤابه والمراد السادة، السريرة: ما يكتم عن الناس مثل السر، الأشياع: الأتباع، السجية: الغريزة، غير محدثة: تليدة غير جديدة، الخلائق: جمع خليقة وهى الطبيعة، البدع: المخالفة للطبائع والأذواق.

وروى أبو عبيـدة قـال: " فضل حسان الشعراء بثـلاث: كـان شـاعر الأنصـار في الجاهـلية، وشـاعر النبي (ﷺ) في النبوة، وشـاعر اليمن كلهـا في الإسلام"(١).

لقد عاش حسان في يثرب، ودخل في خصومة مع شعراء الأوس بها، والتقى ببعض فحول الشعر الجاهلي وارتحل إلى الشمال والشرق وصار شاعراً، عالماً بأنساب العرب فيتفخر ويهجو ويمدح الرسول ويقارع شعراء القبائل بموهبته وخبرة عمره الطويل، ومن هنا كثرت أشعاره ودخل فيها ما ليس منها، وتناثرت عليه أقوال كثيرة فيما يتصل بعلاقته بحديث الإفك الكاذب على السيدة عائشة رضى الله عنها، وامتد ذلك إلى الشخص الذى رميت به أم المؤمنين في ذات الموقف وهو صفوان بن المعطل (وكان حصورا) ممنوعا من النساء، وله مع حسان بقايا متصله بالموضوع نفسه فقد ضرب حسان بن ثابت، وهجاه حسان ولم يثبت أيهما السابق الضرب أم الهجاء، ويضاف إلى ذلك خبر آخر، أصحابه جماعة سميت أصحاب البساط .. فما هي قصتهم ؟

ذكر محقق الديوان:

"قالوا كانوا يجلسون أمام فارع أطم حسان فينا لون من المسلمين حتى قال رسول الله (ﷺ) : "من لي بأصحاب البساط الفارع" وقال رسول الله (ﷺ) لحسان حين أتوه به: "أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام". ولكن في الحديث أيضا أنه قال: "أحسن يا حسان في الذى أصابك" قال: "هي

(١) الأغاني جـ٤ ص: ١٣٦.

تلك يا رسول الله" قالوا وفى ذلك الوقت جاءت من مصر مارية وسيرين، فاستبقى رسول الله مارية وأعطى حسان سيرين فولدت له عبد الرحمن"[١].

وقيل أيضاً إن الرسول أهداه بستاناً، ولكن ذلك فيما يبدو قد حدث بعد أن أعلنت البراءة للسيدة عائشة ومن ثم صفوان، فإذا كانت منزلته قد تأثرت بسبب المواقف السابقه وأدت إلى تسميته باللعين، فإن كل ذلك لم يلبث أن تغير حتى إن السيدة عائشة نفسها قد دافعت عنه واستمعت إلى مدحه لها ، قال:

حَصَانٌ رزانٌ ما تُـزَنُّ بريبةٍ ∴ وتصبحُ غَرْثَى من لحوم الغوافل
عقيلةُ حيٍّ من لُؤى بن غالب ∴ كرامِ المساعى مجدُهُم غير زائل
مهذبةٌ قد طيَّب الله خَيْمَها ∴ وطهرها من كل سوء وباطل
فإن كنتُ قد قلتُ الذى قد زعمتُمُ ∴ فلا رفعت سَوْطِي إلى أناملى[٢]

وقالت إنه لم يقل شيئاً[٣].

وروى البيت الأول من الأبيات السابقة برواية أخرى يزيد موقف حسان من حديث الإفك اضطرابا، ويعكس بالتالى موقف السيدة عائشة منه فقد ذكر مسروق فى رواية بالأغانى قال:

---

(١) مقدمة الديوان ص١٤ وما جاء فى النص المذكور له أصول فى كتب أخرى مثل الأغانى وغيره.

(٢) الديوان جـ١ ص: ٥١٠.

وحصان: عفيفة، ورزان: ذات وقار، تزن: تتهم، وغرثى: جائعة أى لا تغتاب النساء.

(٣) وجاءت خمسة أبيات أخرى فى عائشة بالديوان جـ١ ص٢٩٢ وتتفق مع المذكورة فى البيت الأول بلفظه، وفى الباقى بالمعنى العام.

" دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثى بنتا له وهو يقول:"

رزان حصان ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة: لكن أنت لست كذلك، فقلت لها: أيدخل عليك هذا وقد قال الله عز وجل "والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم" فقالت: أما تراه فى عذاب عظيم قد ذهب بصره"(١).

ومعلوم أن حسان قد عمى عندما تقدمت به السن وكانت له ابنة شاعرة.

وإذا كانت المناسبة تكشف عن بعض التناقض فإن لخصوم حسان رغبة جامحة فى إسكات صوته وعزله عن الحياة فى المدينة لكثرة هجائه واشتهاره بالدفاع عن الرسول والرد على خصوم المسلمين، فكان حديث الإفك الذى تألم له الرسول وحزنت به عائشة واقترنت بعض أقاويله مثل أبى بكر الذى سعى لحجب فضله عن بعض من شاركوا فيه ثم لم تلبث الغمة أن تبددت سحابتها وظهرت إضاءات البراءة فكان العفو والتسامح.

أما حسان فقد لصقت به صفة أخرى هى الجبن تمتد الرواية فيها إلى صفية بنت عبد المطلب، وفى أثناء غزوه الخندق عندما كانت فى فارع (حصن حسان بن ثابت) وطاف به يهودى وجبن حسان عن صده ومنعه ونهضت بذلك صفية، ودافعت عن الحصن وقتلت الرجل ولم يجرؤ حسان على سلب متعلقات الرجل بعد أن رآه ميتا(٢).

---

(١) الأغانى جـ٤ ص١٥٣.

(٢) السابق جـ٤ ص: ١٦٥ وأسد الغابة جـ٢ ص: ٧.

ولربما كانت تلك فرية ألصقها به الشعراء الذين هجاهم خاصة أن حسان كان قد تجاوز الستين وربما كان بصره فى طريقه إلى الزوال.

وبعد وفاة الرسول (ﷺ) رثاه حسان ببضع مرات منها قوله:

بطيبةَ رَسْمٌ للرسول ومعهدٌ ∴ مُنير، وقد تعفو الرسوم وتهْمدُ
ولا تَمْتَحى الآيات من دار حُرمة ∴ بها منبر الهادى الذى كان يَصْعَد
وواضحُ آثار وباقى معالم ∴ وربْعٌ له فيه مصلًّى ومسجد
بها حجراتٌ كان ينزل وسطها ∴ من الله نور يُستضاء ويُوقد

وفيهـــا:

وما فقد الماضون مثل محمد ∴ ولا مِثْلُهُ حتى القيامة يفقد(١)

ومما قاله فى رثاء أبى بكر الصديق:

إذا تذكرتَ شَجْوًا من أخى ثقة ∴ فاذكرْ أخاك أبا بكر بما فعلا
خيرَ البرية، أتقاها وأعدَلها ∴ إلا النبىَّ وأوفاها بما حَمَلا
والثانى الصادق المحمود مشهده ∴ وأول الناس منهم صدق الرسلا(٢)

أما فيما يتصل بعلاقة عمر بن الخطاب بحسان فقد مر به وهو ينشد الشعر فى مسجد الرسول (ﷺ)، فأخذ عمر بأذنه وقال له:

---

(١) الديوان جـ١ ص: ٤٥٥ وما بعدها، وتدخل هذه المرثية ضمن ما شك محقق الديوان فى نسبته إلى حسان.

(٢) الديوان جـ١ ص: ١٢٥.

" أرغاء كرغاء البعير! فقال حسان: دعنا عنك يا عمر! فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك فلا يغير علي"(١) فصدقه عمر أو قال له: صدقت.

وقد كان أمير المؤمنين يكره أن يحرك الشعر الضغائن بين المسلمين سواء أكان ذلك من حسان أو من غيره ممن كانوا يقفون ضده في المدينة أو يأتون إليه من مكة خاصة في عهد عمر الذي شدد فيه على الروابط الدينية والاجتماعية بين المهاجرين والأنصار، على احترام العلاقات القديمة بين المسلمين ومشركي مكة التي اتسعت جراحاتها بعد غزوة بدر حيث بقيت فارقة خطيرة في وجدان القرشيين لسنوات طوال

وذكر عمر رضي الله عنه أمر مناقضة الشعر للأنصار ومشركي مكة فقال: "في ذلك شتم الحي والميت، وتجديد الضغائن، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام"(٢).

ويتصل هذا الخبر بما كان من قدوم عبد الله بن الزبعرى السهمي وضرار ابن الخطاب واجتماعهما بحسان وإظهار تفوقهما عليه وشروعهما في الرحيل قبل أن يرد عليهما، فما كان فيه إلا أن استجار بعمر الذي طلب في ردهما، وجمع لهما أصحاب الرسول وفيهم حسان الذي أنشدهما أمام الناس، وحذر عمر من سوء ما يقال من شعر يتناول علاقة المسلمين بالمشركين حرصا على المودة ونبذا للتضاغن والسوء.

---

(١) الأغاني جـ٤ ص: ١٤٤ وانظر العمدة لابن رشيق جـ١ ص٢٨.

(٢) أسد الغابة جـ٢ ص: ٦ والأغاني جـ٤ ص١٤٠.

وقد حزن شاعر الرسول على النهاية التى ذهب فيها دم ابن الخطاب وبكى عليه ورثاه، قال:

وفجّعنا فيروزٌ لا در درّه .٠. بأبيضَ يتلو المحكماتِ مُنيب
رؤوفٍ على الأدنى غليظٍ على العدى .٠. أخى ثقة فى النائبات نجيب
متى ما يقلْ لا يكذب القولَ فعلُه .٠. سريعٍ إلى الخيرات غيرَ قَطوب(١)

وتمتد المسيرة التاريخية لحسان فيخرج من عزلته لينضم إلى رجالات المهاجرين والأنصار، ويركب مع على رضى الله عنه لمواجهة الثائرين على عثمان بن عفان ومحاولة إقناعهم بالرجوع عنه وعدم الخروج عليه فى عام خمسة وثلاثين من الهجرة، وينضم حسان مرة أخرى إلى من ذهبوا لملاقاة على ليسألوه عن الرأى فى مقتل عثمان الذى كانت نهايته بداية لحروب طويلة بين جماعة المسلمين.

وقد بكى حسان بالعديد من القصائد التى رثى فيها ذا النورين وكان فيها صادق العاطفة والشعور، منها قوله:

إن تُمْسِ دارُ بنى عفان خاليةً .٠. بابٌ صريعٌ وبابٌ مُحْرَقٌ خَرِبُ
فقد يصادفُ باغى الخير حاجتَه .٠. فيها ويأوى إليها الذِّكْرُ والحَسَب(٢)

ولعل البداية والنهاية لمأساة المسلمين فى مقتل عثمان قد أسهمت فى هذه المراثى التى هاجت بها شجون حسان على الأمة وواقعها الممض ولم يكتف

---

(١) الديوان جـ١ ص: ٢٧٣ وفيروز: غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر رحمه الله.

(٢) الديوان جـ١ ص: ١٢٠.

بذلك بل تحول إلى الشماتة والتأنيب لقيس بن سعد بعد أن عزله على بن أبى طالب عن مصر، فقال لـه:

"نزعك على بن أبى طالب وقد قتلت عثمان، فبقى عليك الإثم ولم يحسن لك الشكر" فقال لـه قيس بن سعد: "يا أعمى القلب والبصر، والله لولا أن ألقى ربى بين رهطى ورهطك حربا لضربت عنقك. اخرج عنى"(١).

ويعبر هذا المستوى من التحاور عما أصاب الأمة من تمزق وصراع إبان خلافة على كرم الله وجهه، ولربما كان حسان ممن تحركت عواطفهم نحو المطالبة بالانتقام لعثمان أو خضع للتيار النشط الذى حركه معاوية بقميص عثمان الملطخ بالدماء.

وقد عاد حسان بالأسى والحسرة والعمى فحبس نفسه فى داره مرجعا مع المحيطين به ذكريات عمر مديد بدأه مع الخزرج مع التى خرج من عباءتها، والتحف الشهرة والمجد فى بلاط الغساسنة والمناذره وتمتد به رحله الحياة فيستقبل الرسول بأنوار الإسلام فى يثرب ويخفت صوته مدة ثم يتوهج بالمديح النبوى، والفتح الإسلامى والإشادة بالصحابة وهجاء المشركين ورثاء الشهداء.

ويرحل عن الدنيا سنة أربع وخمسين من الهجرة أو قبل ذلك، بعد عمر طويل، قيل إنه امتد إلى مائه وعشرين عاما نصفها فى الجاهلية ونصفها فى الإسلام وقيل إن كلا من أبيه وجده قد عاش مثل هذه المدة.

كان حسان فى الجاهلية يتحول بين البلدان ويمدح الغساسنة ويظفر بجوائزهم فازداد غنى وثراء، وعاش حياة ناعمة بين بنى قومه الخزرجيين،

---

(١) مقدمة الديوان ص: ١٢.

ونادم شاعر الأوس قيس بن الخطيم ونظم معظم شعره في الفخر والمدح، ونقل صاحب الأغاني حديث عمر بن شبة عن أبي عبيدة قال:

" اتفقت العرب على أن أشعر أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف، وعلى أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت"(١) ومن فخره الجاهلي:

ولدنا بني العنقاءِ وابني مُحرِّقٍ ∴ فأكرِمْ بنا خالا وأكرم بذا ابنَما
نُسوِّدُ ذا المال القليلِ إذا بدت ∴ مروءتُه فينا وإن كان مُعْدِما
وإنا لنَقْري الضيف إن جاء طارقا ∴ من الشحم ما أمسى صحيحا مسلَّما

وقال في القصيدة نفسها:

لنا الجفَنات الغر يلمعن بالضحى ∴ وأسيافنا يقطُرْن من نجْدةٍ دما
أبى فعلُنا المعروفُ أن ننطق الخنا ∴ وقائلُنا بالعُرف إلا تكلُّما(٢)

وقد كانت هذه الأبيات موضع النقد مع النابغة حيث عاب على حسان تقليل عدد الجفان وافتخاره بالأبناء دون الآباء، ويمثل هذا الشعر واقعه في الجاهلية وميله نحو الزهو بالأفعال والأخلاق مثل غيره من الشعراء الجاهليين.

إن حسان الجاهلي لا يختلف عن أضرابه في تناول الشعر مدحا وفخرا وهجاء، ولكنه يختلف عنهم في إحكام الصياغة وجزالة الألفاظ ومتانة التراكيب

---

(١) الأغاني جـ٤ ص: ١٣٦، ص: ١٣٧.

(٢) الديوان جـ١ ص: ٣٥.

والعنقاء: ثعلبة بن عمرو، ومحرق: الحارث بن عمرو أخو جفنة وكان أول من عاقب بالنار، وهم يقرون الضيف بنحر الإبل السليمة من المرض، والجفنات: مفردها الجفنة وهي القصعة، والغر: مفردها الغراء أي البيضاء وأراد المشرقة من كثرة الشحم.

وبث روح الانتماء للأهل والوطـن والمنـاداة بالقيـم والمبـادئ، فكـان مميـزا فى كل ذلك.

وينتقل حسان مع الإسلام إلى طور جديد تجاوز فيه حدود الأغراض الجاهلية إلى ألوان وفنون متعددة قدمنا فى الصفحات السابقة نماذج منها فقد امتدح الرسول (ﷺ) ودافع عنه وهجا خصوم الإسلام ورثى الكثيرين وتحدث عن غزوات الرسول، وأشاد بالفتوحات الإسلامية.

والذى يتصفح الديوان يشهد مقدارا كبيرا من الشعر الذى قاله حسان فى الإسلام بالنظر إلى القدر القليل الذى ورد عن مرحلة الجاهلية. فهل اكتملت عبقرية حسان بعد الإسلام فزاد نتاجه وتعددت أغراض شعره أو أن عناية الرواة قد اتجهت إلى الشعر الإسلامى حتى لو وصلت هذه العناية إلى الباس الشعر الجاهلى أثوابا جديدة تتواكب مع المتغيرات بمعنى (أسلمة الشعر) أو أن القضية أكبر من ذلك حيث تتسع دائرتها معلنة عن إضافات كثيرة من الشعر نحلها كتاب السير والأخبار وأسهم الرواة فى الوضع والنحل فزادوا فى الأشعار وأضافوا إلى الشعراء ما لم ينطقوا به، وإذا لم يكن هذا الأخير هو السبب الوحيد لتلك الزياده فهو واحد منها، وأهمها على الإطلاق، ذلك ما قرره القدماء من النقاد من أمثال الأصمعى وابن سلام وابن قتيبة وغيرهم وأقره أكثر المحدثين وهى قضية شائكة كثر الحديث فيها وزاد الجدل حولها وربما كان حسان – على آخر– ضحية لهذه المشكلة فأهمل قدراً كبيراً من شعره الجاهلى وأضيفت إليه أشعار لا ترقى إليه.

وذكر الجمحى أن محمد بن اسحاق بن يسام أدخل فى كتاب السيرة شعرا كثيراً منحولا، وجاء ابن هشام فهذب سيرة ابن إسحاق فسجل إنكار علماء الشعر

(النقاد) لما أدخله ابن إسحاق فى السيرة من شعر نسبه إلى حسان ونبه ابن سلام فى الطبقات إلى هذه القضية(١)، وكتب فى ترجمة حسان قائلا: "وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد لما تعاضهت قريش واستبت(٢) وضعوا عليه أشعار كثيرة لا تنقى(٣).

وقال الأصمعى فى الاستيعاب: "تنسب إليه أشياء لا تصح منه"(٤) وما دامت الحدود الفاصله بين ماله وما لغيره قد انهارت بدرجة ما، فضمت إلى الديوان بملحقاته أشعار لغيره من أهل الأنصار، وكشف محقق المخطوطات الشعرية عما التبس النماذج من شكوك، وانتساب النص لأكثر من شاعر.

ويلاحظ أن أكثر المشكوك فيه مما ينسب للمرحلة الإسلامية، كما أن أكثر الشعر فى هذه الحقبة تغلب عليه السهولة، وتقل فيه الجزالة، وتتدنى فيه الألفاظ إلى درجة الابتذال ورأى البعض هذا التغلب راجعا إلى الدين الذى أحكم القبضة على الشاعر فى ضوء رأى الأصمعى الذى قال فيه: "الشعر نكد بابه الشر، فإذا دخل فى الخير ضعف هذا حسان (بن ثابت) فحل من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره"(٥) والرأى أن الشعر لا يضعف بالدين، وأن ما لحق بشعر حسان يرجع إلى ما ضم إليه وليس من درجته، كما أن القوالب الشعرية الأصيلة لم تختلف من مرحلة إلى أخرى، وأن الاختلاف انحصر فى المضمون الذى

---

(١) كتبت عن هذا الموضوع بتوسعة فى كتاب لى بعنوان (امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين).

(٢) تعاضهت أى تهاجت، ومعنى استبت: أى سب كل فريق الآخر.

(٣) طبقات فحول الشعراء جـ١ ص: ١٧٩ تحقيق محمود شاكر.

(٤) الاستيعاب على هامش الإصابة جـ١ ص:٧٦٠.

(٥) الشعر والشعراء جـ١ ص: ٣١١.

صار موجها لخدمة الرسالة الجديدة ففي حديثه إلى أهل قريش لم يذكر في هجائه لهم الكفر وعبادة الأوثان لأنه قبل إسلامه لم يختلف عنهم في ذلك.

إن هذه الملاحظات قد وجهت إلى بعض الشعراء الآخرين ولكن ليس بهذا القدر الذى اشتمل شعر حسان لاعتبارات كثيرة، ولا نقصد إلى محو تاريخه أو تحجيم دوره في مدح الرسول والدفاع عن الإسلام، فقد قال أكثر من غيره، فاستحق التقديم على معاصريه من الشعراء المسلمين، وقد جاء بالأغاني قول الرسول (ﷺ): "أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى"(١) وجاء به أيضاً قول الرسول (ﷺ): "من يحمى أعراض المسلمين؟ فقال كعب: أنا يا رسول الله، وقال عبد الله بن رواحة: أنا يا رسول الله، وقال حسان بن ثابت: أنا يا رسول الله، فقال: "نعم اهجهم أنت فإنه سيعينك عليهم روح القدس"(٢).

وقد ذكرنا بعض ما قاله حسان في مدح الرسول أما الغزوات والفتوح فله فيها شعر كثير وبخاصة غزوة بدر التى تحدث عنها كثيراً(٣) ومما قاله يرد به على عبد الله بن الزبعرى حين بكى أهل بدر:

ماذا بكيتَ على الذين تتابعوا ∴ هلّا ذكرت مكارم الأقوام
وذكرْتَ منا ماجِدًا ذا همة ∴ سَمْحَ الخلائق ما جدَ الإقدام
أعْنِى النبىَّ أخا التكرم والعلى ∴ وأبرَّ مَنْ يُولى على الأقْسَام(٤)

---

(١) الأغانى جـ٤ ص: ١٤٣.

(٢) السابق جـ٤ ص: ١٤٥.

(٣) مثل القصائد والمقطوعات ١٦، ٣٤، ٥٥، ٧٤.

(٤) الديوان جـ٤ ص: ١٦٠.

ويلاحظ أنه قد تحول من رده على ابن الزبعرى إلى مدح الرسول وبيان صفاته الحميدة.

أما الهجاء وهو آخر الأغراض التى وجهها حسان لمقاومة خصوم الإسلام والرد عليهم مع أن بعض من هجاهم لا يكشف رده عليهم عن توجه إسلامى، لكن الديوان لا يخلو من عدد من القصائد والمقطوعات التى لا تنفصل عن الواقع فى عصر الرسول (ﷺ).

ولقد جاء أبى بن خلف الجمحى إلى النبى بعظم بال وقال له تزعم أن ربك يحيي الموتى فمن يحيى هذا؟ وفتته، فهجاه حسان بقوله:

لقد ورث الضلالةَ عن أبيه ∴ أُبيٌّ يوم فارقَهُ الرسولُ

أجئتَ محمدا عَظما رميما ∴ لتُكذبَه وانت به جهول[١]

إن الدرس النقدى لديوان حسان يكشف عن شاعر متميز فى الجاهلية والإسلام، عرك الحياة وعركته وصال وجال فى يثرب وعكاظ وأطراف الجزيرة من ناحية الشام ومن ناحية العراق، وجند موهبته للمديح الدينى والإشادة بالرسول والرد على خصوم الإسلام ورثاء الأبطال فى الغزوات والفتوح، ونسب إليه ما لا يصح منه من الأشعار والمواقف والخلال.

---

(١) الديوان جـ١ ص: ١٥٨.

بعض المراجع والمصادر عن حسان بن ثابت

١ – الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر (على هامش الإصابة) جـ١ ، ط دار الغد العربى.
٢ – أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، طبع دار الشعب جـ٢ .
٣ – الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر، طبع دار الغد العربى جـ٢ .
٤ – الأغانى لأبى الفرج، طبع دار الكتب جـ٤ .
٥ – تاريخ آداب اللغة العربية: – جرجى زيدان – طبع دار الهلال جـ١ .
٦ – تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان ترجمة د. عبد الحليم النجار، طبع دار المعارف.
٧ – تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات.
٨ – تاريخ الأدب العربى – د. عمر فروخ – طبع دار العلم للملايين جـ١ .
٩ – تاريخ الأدب العربى – (العصر الإسلامى) د. شوقى ضيف – طبع دار المعارف.
١٠ – ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، تحقيق د. وليد عرفات، طبع دار صادر – بيروت.
١١ – السيرة النبوية لابن هشام تحقيق د. أحمد حجازى، طبع دار التراث العربى
١٢ – الشعر والشعراء، ابن قتيبه – تحقيق أحمد محمد شاكر جـ١ .
١٣ – طبقات فحول الشعراء – محمد بن سلام الجمحى، تحقيق محمود محمد شاكر جـ١ مطبعة المدنى بالعباسية.
١٤ – العمده – ابن رشيق، طبع دار الجيل جـ١ تحقيق الشيخ/ محمد محيى الدين عبد الحميد.

الفصل الثالث
الحطيئة شاعر المدح والهجاء

لو أخضعنا ما كتب عن الحطيئة لمقياس الأخلاق الفاضلة لاستبعدناه من هذا الكتاب، إذ لا يستحق – بهذا المعيار – أن يضاف إلى جمهرة الشعراء الذين أثاروا، بفنهم، بعض الجوانب من المجتمع الإسلامي في عصر الرسول وخلفائه الراشدين. لكن عوامل أخرى كثيرة جعلت في هذه الصحائف متسعا للحطيئة وشعره، فقد كان الرجل شاعرا متميزا وله سطوة وقدرة بيانية في المدح المشرق والهجاء المقذع وسائر فنون الشعر.

وأقبل على العصر الإسلامي بميراث جاهلي تسرب إليه من أستاذه زهير وابنه كعب وهم جميعا خارجون من عباءة أوس بن حجر.

لقد عاش الحطيئة حياة قلقة مضطربة ترجع بعض أسبابها إلى نشأته في قبيلة عَبْس بنجد التي تذكرنا بعنترة ومأساته مع الحرية ومع محبوبته ولون بشرته، ومع العصر الجاهلي الذي عاش فيه كل حياته.

أما الحطيئة فلم يكن عبدا أسود، وإنما كان مغموز النسب قصيرا، دميما، قريبا من الأرض، فحمل لقبه الذي عرف به في الجاهلية وعصري صدر الإسلام وبني أمية.

وهكذا عاش كل واحد من الشاعرين في مأساة خاصة به لكنهما جد مختلفين في فنون الشعر وضروب الحياة.

والحطيئة هو جرول بن أوس بن مالك بن جؤية بن مخزوم العبس. ومن بني ذهل بن ثعلبة، وقيل إنه كان يضرب بنسبه إلى بكر بن وائل، مما يؤكد القول بتدافع نسبه بين عدد من القبائل العربية.

وكانت أمه جارية تسمى الضَّرَّاء، ولدته سفاحا من والده، وكانت غير مبالية، قالت لابنها – بإقراره – لست لواحد أو لاثنين مما ولد في نفسه صراعا شرسا انعكس على حياته وشعره.

وكان له أخوان من زوجة أبيه (الحرة) ولما مات أوس بن مالك (والده) تزوجت الضراء (أمه) رجلا من عبس يسمى (الكلب بن كنيس بن جابر) أنجبت منه ولدين كانا أخوى الحطيئة من أمه؛ أما كنيته فهي أبو مُليكة.

ولكل هذه المكونات المضطربة والمتضاربة جعلته يكره أقرب الناس إليه فيهجوهم، وتزوج امرأة تسمى أمامة وأنجب منها ولدين هما أوس وسوادة، وبنات منهن مليكة التي كنى بها، وكانت جميلة تغار منها النساء أثناء تطواف أبيها بين القبائل.

وعاش حياته بائساً بخيلاً يطرد أضيافه، جشعا، متسلطا، لا يثبت في مكان كحديث عمر بن أبي ربيعة عن اثر العشق عليه:

أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلواتٌ فهو أشعثُ أغبر

وقيل: إنه وفد على الرسول مسلما، ونفى ابن قتيبة ذلك مرجحا إسلامه بعد وفاة الرسول وارتداده بسرعة قبل أن يستقر الإيمان في قلبه، وشارك المرتدين – على الأقل بلسانه – في التعبير عن رفض استمرار الدين بخلافة أبي بكر، فقال:

أطعنا رسول الله إذ كان صادقا ... فيا عجبا ما بالُ دينِ أبي بكر
ليورثَها بَكْرًا إذا مات بعده ... فتلك وبيتَ الله قاصمةُ الظَّهر(١)

---

(١) الديوان ص: ١٤٣ طبع المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت وانظر الأغاني جـ٢ ص: ١٥٧، ونسبت الأبيات إلى أخيه الخطيل بن أوس.

وارتحل إلى المدينة فى أول خلافة عمر، وله مع أمير المؤمنين عدة مواقف سنرجع للحديث عنها وترتبط بهجائه للزبرقان بن بدر، وهو شاعر عمل بجمع الصدقات من قبل الخليفة وذهب إلى الكوفة فى عهد عثمان بن عفان، وانزوى فى زمن على كرم الله وجهه، ثم برز فى المدينة أيام معاوية، وبقى على قلقه واضطرابه إلى أن توفى عام (٥٩هـ) عن واحد وثمانين عاما.

فى ظلال الشعر الجاهلى:

ترتبط بدايات الحطيئة مع الشعر إلى زهير بن أبى سلمى، فقد اتصل به وكان راوية له، كما روى لابنه كعب بن زهير.

وذكر ابن سلام بعض ما قاله الحطيئة عن منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل، وحمل الديوان بعض القصائد التى يمتدح فيها علقمة، ويبدو أن آماله فى عطاءات الرجل كانت كثيرة، فسعى إليه فى حوران فوجده قد مات فبكاه قائلاً:

فما كان بيني لو لَقِيتُكَ سالما ٭٭ وبين الغنى إلا ليالٍ قلائلُ
لَعَمْري لنعم المرءُ مِنْ آل جعفرٍ ٭٭ بحَوْرَانَ أمسى أعْلَقَتْهُ الحبائل(١)

كما شهد منافرة جاهلية أخرى بين عيينة بن حصن بن حذيفة وزبان بن سيار بن عمرو وهما من فزارة وانضم إلى الأول وفضله على الثانى.

ولا شك فى أن اقتحام الحطيئة بشعره صراعات القبائل ومنافرات الرجال قد ألحق به أذى كبيرا لا يقدر بضعفه وهو ان شأنه على حمله والتصدى له،

---

(١) الديوان ص: ٢١٦.

فهو ليس كغيره من الشعراء الذين تسندهم قبائلهم، فقد كان قريبا فى مسلكه بين المجان والخلعاء والصعاليك الذين نقموا من المجتمع، وقيل: إنه خالطهم، وإن لم يكن مثلهم تماما.

واتجه فى شعره إلى مذهب زهير فكان ممن يسمون فى حياة النقد بعبيد الشعر الذين يعطون الشعر كل عناية، فيهتمون بكل مكوناته من عناصر الشكل والمضمون، وله حكمة فى هذا المذهب يحدد بها إطاره العام وهى "خير الشعر الحولى المنقح"[1] أو المحكك، وهو الذى يعاد فيه النظر حتى يخرج مستويا جيداً.

الحطيئة والزبرقان بن بدر:

لقد تميز الحطيئة فى المدح والهجاء، وهما غرضان متصلان ببعضهما لدواعى البيئة العربية ذات التوجه القبلى، فمدح شخص يعتبر هجاء – ولو غير مباشر – لخصومه، وأقرب نموذج لذلك ما قاله فى مدح بغيض بن عامر من بنى (أنف الناقة)، ذلك اللقب الذى كان يعد سبة وعيبا ثم أضحى بشعر الحطيئة عزة وفخرا، وانجرف لسانه إلى التعريض بالزبرقان بن بدر (شاعر) والذى عمل بجمع الصدقات من قومه فى عهد عمر بن الخطاب.

وقد ارتفع قوم بغيض ببيت للحطيئة، وانتقلوا به نقلة اجتماعية كبيرة فهم ينتسبون إلى جدهم هو (جعفر أنف الناقة بن قريع) فقد كان الواحد منهم يسأل عن نسبه فيقول: إنه من بنى قريع، متجاوزا هذا اللقب الذى جر عليهم خذيا

---

(١) البيان والتبين جـ١ ص٢٠٤ تحقيق عبد السلام هارون مطبعة ا لخانجى.

وعارا، ومدحهم الحطيئة وعرض بالزبرقان فى مجموعة من القصائد، منها واحدة قال فيها:

قومٌ هم الأنفُ والأذناب غيرُهُم ٠٠ ومن يسوّى بأنفِ الناقة الذَّنَبَا[١]

فصاروا يجيبون من يسأل عنهم وعن نسبهم قائلين إنهم من بنى أنف الناقة، وذكر ابن الرشيق اللقب فقال: "وإنما سمى جعفر أنف الناقة؛ لأن أباه قسم ناقة جزورا ونسيه، فبعثته أمه، ولم يبق إلا رأس الناقة، فقال له أبوه: شأنك بهذا، فأدخل أصابعه فى أنف الناقة وأقبل يجره، فسمى بذلك"[٢].

وقد استفرغ الحطيئة كثيرا من شعره فى مدح بنى قريع وارتفعت هاماتهم بنزوله عندهم، وقد كانت بينهم وبين قوم الزبرقان إحن وحزازات، ولما لاحت لهم فرصة استضافة الحطيئة لمدحهم والإشادة بهم لم يتوانوا عن الاحتفاءبه والالتفاف حوله والإغداق عليه، مما أوقع الزبرقان وقومه فى مأزق لم يخلصهم منه إلا حبس أمير المؤمنين للحطيئةوتهديده بقطع لسانه فى مواقف ذات مداخلات متعاقبة.

وقد التقى الحطيئة ومعه ابناه وبناته وامرأته بالزبرقان وذلك فى قر قرى باليمامة، وكان الحطيئة متجها إلى العراق، فعرض عليه الزبرقان استضافته والنزول بجواره وإكرامه فى ذلك العام الذى كان صعبا مجدبا، وسعد الحطيئة بالعرض، وانصرف إلى منازل الزبرقان الذى كتب إلى زوجته بالإحسان الى الحطيئة لحين رجوعه من مهمته.

---

(١) الديوان ص: ١٧، وأنف الناقة هم بغيض وقومه، والأذناب: الزبرقان بن بدر وأهل بيته.

(٢) العمدة لابن رشيق جـ١ص:٥٠.

ولم يطب المقام له فى جوار الزبرقان، إما لتقصير الزوجة، أو لأن بنى بغيض قد وشوا إليها أن زوجها يريد الزواج من مليكة بنت الحطيئة وكانت جميلة فاتنة، فانتقل الحطيئة إلى قوم بغيض فأكرموا جواره وأغدقوا عليه ومدحهم وأشاد بهم وأبى هجو الزبرقان لتقصير زوجته وغفلتها، وقد قيل: إن الزبرقان لما عاد ركب فرسه وحمل رمحه وذهب إلى بنى أنف الناقة طالبا رد الحطيئة الذى خير بين الحيين فاختار قوم بغيض ومدحهم وهجا الزبرقان بعدد من القصائد، منها قوله:

ما كان ذنبُ بَغيض أن رأى رجلا ... ذا فاقة عاش فى مُسْتَوْعرٍ شاسٍ(١)
جارٍ لقوم أطالوا هُونَ منزله ... وغادَرُوه مقيما بين أرْمَاس(٢)
ملُّوا قِراه وهرَّته كلابهم ... وجرَّحوه بأنياب وأضراس(٣)
دع المكارمَ لا ترحل لبُغْيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعمُ الكاسى(٤)
وابعث يَسارا إلى وُفْرٍ مذممة ... واحْدِج إليها بذى عَرْكَيْنِ قِنْعَاس(٥)

---

(١) جاء البيت الأول من الأبيات المذكورة برواية أخرى هى قوله:

ما كان ذنب بغيض لا أبا لكم ... فى بائسٍ جاء يحدو آخر الناس

وشاش مخفف شأش أى وعر.

(٢) يروى (جارا) الهون: الهوان، عادروه: خلفوه، الأرماس: القبور.

(٤) هرته كلابهم: ضجروا به، جرحوه: أساءوا إليه.

(٥) الطاعم: الحسن الحال فى المطعم، ومثله الكاسى فى الكسوة: يقول له: حسبك أن تأكل وتشرب.

(٥) يسار: راعى الزبرقان، وفر: وطاب، مذممة: يذمها الأضياف، احدج اليها: ارحل إليها، العركان: الضاغطان يكونان تحت إبطى البعير، قنعاس: ضخم.

سيرى أُمامَ فإن الأكثرين حصى ... والأكرمين أبا مِنْ آل شَمّاس[1]

من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه ... لا يذهب العرف بين الله والناس[2]

ويتضح في الأبيات أسلوب الحطيئة في المدح ومنهجه غير المباشر في الهجاء، فهو يدافع عن بغيض وقومه، ويلتمس لهم العذر في استضافته بعدما رأوا ما حل به من ضياع وعوز حاجته لمن ينقذه مما كان فيه.

وقبل أن ندلف إلى بيان المداخلات النقدية للمدح والهجاء السابق نشير إلى ثناء النقاد على بيت الحطيئة الأخير في الحض على الكلام، فقد قال أبو عمرو بن العلاء: "لم تقل العرب بيتا قط أصدق من بيت الحطيئة":

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

فقيل له: فقول طرفه:

ستبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

فقال: من يأتيك بها ممن زودت أكثر، وليس بيت مما قالته الشعراء إلا وفيه مطعن إلا قول الحطيئة:

لا يذهب العرف بين الله والناس[3]

وقيل إن معناه مأخوذ من التوراة، وقال ابن عبد ربه بعد أن ذكره في العقد الفريد: " وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة: يقول الله تعالى فيما

---

(١) إمام: زوجته ويروى: سيرى أمام أولادك، آل شماس: قوم بغيض.

(٢) الأبيات في الديوان ص: ١٠٧ وما بعدها، والجوازي: جمع جازية أو جاز أو جزاء، والعرف: المعروف.

(٣) الأغاني جـ٣ ص: ١٧٤.

أنزله على داود عليه السلام: من ينقل الخير يجده عندى، لا يذهب العرف بينى وبين عبدى"[١].

ويؤكد هذا البيت الذى يغنى شطره الثانى عن الأول ارتباط الحطيئة بالاسلام وعدم تخلله منه، وأصدق من ذلك ما قاله فى التقوى:

ولست ارى السعاده جمع مال ∴ ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خيرُ الزاد ذخرا ∴ وعند الله للأتقى مزيد
وما لابد أن يأتى قريبٌ ∴ ولكن الذى يمضى بعيد[٢]

إن الحطيئة لم يكن محمود السيرة، ولا ترتقى أخلاقه فوق مستوى الشبهات غير أن أسلوبه فى الهجاء يختلف عن الكثيرين ممن كانوا يتناولون الأعراض، ويسبون الأمهات، ويغمزون بالعيوب الخلقية والخلقية، وقد زاد وانتشر هذا الوباء فى نهاية القرن الأل أيام نقائض جرير والفرزدق والأخطل بالبصرة وغيرها.

أما بيت الحطيئة فى الزبرقان الذى أحدث مصادمات عنيفة فى الساحة الإسلامية فهو قوله ضمن الأبيات السابقة:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ∴ واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وكان الحطيئة قد بدأ يعرض بالزبرقان فى مس خفيف ثم انعطف إلى هجائه به فى أسلوب غير مقذع، ينطوى على كثير من المكر والخبث الذى

---

(١) العقد الفريد جـ١ ص: ١٥٤ دار الفكر – بيروت.
(٢) الديوان ص: ٢٥٢.

يمكن ألا يقع بسببه تحت طائلة العقوبة، واعتبر البعض أن أقطع الهجاء ما كان عفيفا صادقا أو ما عف لفظه وصدق معناه، قال ابن رشيق فى بحثه عن أبلغ الهجاء "ومن كلام صاحب الوساطة: فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت، وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانية وسهل حفظه، وأسرع علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس، فأما القذف والإفحاش فسباب محض، وليس للشاعر فيه إلا إقامه الوزن"(١).

وأذكر القارئ بهجاء النابغة الذبيانى لعامر بن الطفيل بالأبيات التى أولها:

فإن يك عامر قد قال جهلا ❊ فإن مطية الجهل السباب

وكان عامر قد غضب من ذلك الهجاء إذ جعله قومه رئيسا وجعله النابغة سفيها جاهلا.

وهذا الأسلوب فى الهجاء هو الذى اعتنقه الحطيئة فى ظلال إدارة عمر ابن الخطاب للدولة الإسلامية، إذ لا يقدر هذا الشاعر البائس أن يتجاوزه فى تعرضه لرجل شاعر هو الزبرقان بن بدر، فقد قيل:

لا يعرف الشوقَ إلا من يكابده ❊ ولا الصبابةَ إلا من يعانيها

ذهب الزبرقان إلى عمر واشتكى إليه مما وقع عليه من أذى وضرر بهجاء الحطيئة، وخاصة البيت (المشكلة).

---

(١) العمدة جـ٢ ص١٧١.

ويروى أن عمر، وكان عالما بالشعر وأغراضـه، قـال لـه: "ما أعـلمه هجاك أما ترضى أن تكون طاعمـا كاسيا ؟ (قال: إنه لا يكـون فى الهجاء اشد من هذا)"[١].

وهكذا لا يرى فيه عمر بأساً أو أنه مجرد عتاب خفيف لا يصل إلى السباب والهجو بينما اعتبر الزبرقان البيت أقسى وأشد ما هجى به.

وقد فهم الزبرقان ما رمى به من خمول وتفاهة وضعف الحيلة وأن أقصى ما يطمح فيه أن يكون آكلا كاسيا دون أن يصل إلى العزة والسيادة.

ورغب عمر – وهو يسعى لدرء العقوبة بالشبهة – فى الوصول إلى القول الفصل، فبعث إلى حسان بن ثابت يستفتيه ويستخبره، وسأله عما إذا كان البيت هجاء، فقال حسان: "ما هجاه: ولكن عليه[٢]" أو "ذرق عليه".

وذكر أن أمير المؤمنين سأل لبيدا عن ذلك فقال: "ما يسرنى أن لحقنى من هذا الشعر ما لحقه، وأن لى حمر النعم"[٣].

وأمر عمر بحبسه وقال له: "يا خبيث لأشغلنك عن أغراض المسلمين"[٤].

وتوسل الحطيئه وهو محبوس بعمر، واستعطفه بأبيات منها قولـه:

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص: ٣٣٤.

(٢) أى بـال عليـه.

(٣) الأغانى جـ٢ ص: ١٨٦.

(٤) العقد جـ٦ ص: ١٤٥.

أعـــوذ بـجَـــدِّكَ أنـــى امـــرؤ ٠٠ سقتنى الأعادى إليك السِّجَالا
فــإنــك خــيــرٌ مــن الـزِّبْـرِقــان ٠٠ أشَـــدُّ نـكــالا وأرْجَـــى نــوالا
تحــنن عـــلـــىَّ هــداك المـلـيـكُ ٠٠ فــإن لـكــل مــقــام مــقـــالا
ولا تــأخُــذَنِّــى بـقــول الــوشــاة ٠٠ فــإن لـكـــل زمــان رجـــالا(١)

ولم يلتفت إليه عمر، وربما كان مضمونها غير ملائم، فقد قيل: إن هذه الأبيات كانت السبب الرئيسى فى السجن، فقد خاطب الرجل عمر بطريقة غير لائقة، وتحدث إليه بأسلوب لا يخلو من سفه وسوء بقوله له: إن لكل مقام مقالا.

وقد كرر الحطيئة المحاولة بأسلوب ومضمون شعرى آخر، إذ أدخل أبناءه فى التوسل بحاجتهم إلى من يعولهم وكانبهم مغيث قـال:

مــاذا تـقــولُ لأفــراخٍ بـذى مَـرَخٍ ٠٠ حُـمر الحواصل لا ماء لا شجر
ألقَيْتَ كاسبَهم فـى قعر مظلمة ٠٠ فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمينُ الـذى مـن بعد صاحبه ٠٠ ألقَتْ إليك مقاليدَ النهى البشرُ
لـم يُؤْثـروك بها إذ قدموك لـهـا ٠٠ لكنْ لأنفسهم كانت بـك الخِيَر(٢)

ويروى أن عمر بكى لهذا الشعر، وكان عمرو بن العاص قد كلمه فيه، فقال هذه الأبيات، فقال عمرو: "ما أظلت الخضراء.. ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي علي تركه الحطيئة"(٣).

---

(١) الديوان ص: ٧٢.

(٢) الديوان ص: ١٦٤، ١٦٥، ذو مرخ: واد بالحجاز، وقعر مظلمة: سجن، وكانت السـجون أيامـها آبارا.

(٣) الأغاني جـ٢ ص: ١٨٨.

وتكشف ثقافة عمر عن معرفته بالحدود التي لا ينبغي للشاعر أن يتجاوزها، وهدد الحطيئة بقطع لسانه إن عاد لهجاء الناس وذمهم بغير ما فيهم، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: "من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر".

وقال له: "إياك والهجاء المقذع، قال: وما المقذع يا أمير المؤمنين؛ قال: المقذع أن تقول هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف، وتبني شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعاديهم، فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم مني بمذاهب الشعر ولكن حياني هؤلاء فمدحتهم وحرمني هؤلاء فذكرت حرمانهم ولم أنل من أعراضهم شيئاً، وصرفت مدحي إلى من أراده ورغبت به عمن كرهه وزهد فيه"(١).

وروى القدماء أن عمر أخذ عليه تعهدا ألا يهجو أحدا واشترى منه اعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم، وقال الحطيئة في ذلك:

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تَدَعْ ... شتما يُضرُّ ولا مديحا ينفع
وحميتني عِرْضَ اللئيم فلم يَخَفْ ... ذَمّي وأصبح آمنا لا يَفْزَعُ(٢)

لقد شغلت هذه القضية جمهرة كبيرة من رجالات المجتمع الإسلامي وعرضت لأمور كثيرة لا زالت جديرة بالدرسة والمراجعة تتعلق بحدود الهجاء وفهم عمر له واستشارته للشعراء وقبوله للاعتذار من المخطئ، وبحث شكايات

---

(١) العمدة جـ١ ص: ١٧٠.
(٢) الأغاني جـ٢ ص: ١٨٩.

العاملين والتحقيق فيها لحفظ كراماتهم، وجواز إغناء طلاب الحاجة لحماية المجتمع منهم، ورفض ابتزاز الناس، وتقدير الشعر والشعراء، وتأكيد أن للهجاء حدوداً لا ينبغي تجاوزها وأن الخير منه ما تنشده العذراء في خدرها فلا يكون قبيحاً منها، وكان الحطيئة واحدا من فحول الشعراء خاصة في المدح والهجاء.

هجاء ساخر وغاضب:

لقد كان الحطيئة جشعاً سؤولا وبخيلا ودميما، ولذلك حركت رياح العطاء أحاسيسه ومشاعره إلى من يعطونه ويشترون طول لسانه فهجا ضيفانه ورفع العصا (الجرواء) لمن جاءه سائلا، وصب كثيرا من غضبه على أمه، فهجاها لتقصيرها في حقه، وتشكيكها في نسبه، فقال لها:

جزاكِ الله شرا من عجوزٍ ∴ ولقّاك العقوقَ من البنينا
تَنَحَّيْ فاجْلِسي مني بعيدا ∴ أراحَ الله منك العالمينا
أغِرْبَا لًا إذا استُودِعْتِ سرا ∴ وكانُونا على المتحدثينا
ألَمْ أُوضِحْ لك البغضاء مني ∴ ولكن لا إخالُكِ تعقلينا
حياتُكِ ما علمت حياةُ سُوء ∴ وموتُك قد يَسُرُّ الصالحينا(١)

وهجا أباه، وزوج أمه، كما هجا زوجته في بعض المواقف التي كشرت له الدنيا فيها عن أنيابها، فقال عنها:

أطوِّف ما أطوف ثم آوى ∴ إلى بيت قعيدته لكاع(٢)

---

(١) الديوان ص: ١٢٣ والكانون: كناية عن النمام أو الثقيل أو هو كانون النار؛ لأنه يؤذي.

(٢) الديوان ص: ٢٥٦ ولكاع سب للأنثى، ويستعمل غالباً بالنداء فيقال: يا لكاع.

ولا نعتقد أن زوجته التي طوفت معه في الآفاق كانت سيئة معه ولربما كان هذا البيت وحيدا له في هجائها، فقد شرد من بيته ذات مرة، وأرد سفرا فاستعطفته بشعر فعاد إليه، ولديها معرفه باللغة وأساليبها، فأورد الجاحظ ما قالته لزوجها عندما تحول من بني رياح إلى بني كلب: "بئس ما استبدلت من بني رياح بعر الكبش"(١) تقصد انهم متفرقون كبعر الكبش الذي يقع متفرقا.

ولكنها طبيعة الحطيئة التي لم تترك الزوجة - في بعض المواقف الصعبة - بدون هجاء.

ويبدو أنه رغب في المزاح أو السخرية من نفسه، فرفع بيانا لكل من هجاهم وتسلط عليهم بلسانه - يهجو فيه نفسه ويخبرهم أنهم ليسوا بأفضل عنده من نفسه وشخصيته التي هجاها بهذين البيتين اللذين يضرب بها الناس المثل على سوء الرجل وانفجار المرء من صدره بهجائه لنفسه حيث قال:

أبت شفتاي اليوم ألا تكلَّمَا ... بشر فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجها شوَّه الله خَلْقَهُ ... فقُبِّح من وجه، وقبح حامله(٢)

التكسب بالمدح:

لم يقصر الحطيئة نفسه على مدح رجلين أو ثلاثة كما فعل أستاذه زهير، الذي كان مكانة مرموقة في الجاهلية، بعكس الحطيئة الذي عاش غريبا في قومه، حتى ميراثه لم يظفر منه بشئ وكان ملحفا سئولا، ومن بخلاء العرب العرب المشهورين حريصا على الطلب، فاستثمر موهبته في المدح بالإقبال على

---

(١) البيان والتبيين جـ٢ ص: ٢٩٥ وقد جاء في مكان آخر أن الكلمة لابنته ملكية.

(٢) الديوان ص: ٢٥٧، وقوله: بشر أي بسوء.

الاغنياء ووجوه القبائل، وكانت مدائحه لا تقل جوده عن مدائح زهير، لكنه لم ينل شهرته، فقد لمع أفق الحطيئة فى عصر صدر الإسلام الذى كانت الكلمة العليا فيه للأخلاق الفاضلة وحماية الأعراض والإشادة بالفتوح، والدفاع عن الرسول وأصحابه، وكانت بضاعة الحطيئة من هذا الزاد قليلة جداً، إذ كانت نشأته فى قيس وليس فى الحجاز، وأسلم متأخرا وكان من المرتدين، ثم عاد إلى الإسلام بأردية جاهلية قديمه لم يتخلص منها تماما فعاش فى الإسلام حياة جديدة ليس له فيها رصيد سوى المدح والهجاء بصورة عامة، وأخباره كثيرة فى الأغانى وغيره فقد ذهب إلى بنى مقلد بن يربوع، واسترضوه ومدحهم وخرج من عندهم وهم كارهون له، وذهب إلى المدينة طالبا العطاء على مديحه، فجمع الناس له كل الذى رغب فيه، ثم إذبه بعد ذلك يتجه إلى المسجد ويلح فى الطلب قائلا: من يحملنى على بغلين، واتصل بسعيد بن العاص والى المدينة من قبل معاوية، والتقى عنده بالفرزدق وكعب بن جعيل، فقد كان سعيد واحدا من أشراف قريش، ويحب الشعر ويرغب فى ثناء الشعراء عليه، فمدحه الفرزدق[1] والحطيئة الذى قال:

سعيدٌ وما يفعل سعيدٌ فإنه ∴ نجيبٌ فَلاة في الرباط نجيب
سعيدٌ فلا تغرُرْك خفة لحمه ∴ تخدّدَ عنه اللحمُ فهو صليب[2]

واتصل بالوليد بن عقبة بن أبى معيط وكان واليا على الكوفة، ويحيا حياة فيها كثير من التحلل، فتم عزله وإقامة حد الشرب عليه. وقد عرض

---

(١) انظر طبقات فحول الشعراء جـ١ ص: ٣٢١.

(٢) انظر ديوانه ص: ٨٧ وما قبلها وما بعدها، وذكر الفرزدق الحطيئة فقال:

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا ∴ وأبو يزيد وذو القروح وجرول

وهم النوابغ الثلاثة وأبو يزيد وامرئ القيس والحطيئة.

الدكتور/ طه حسين لتقارب الحطيئة بن سعيد فقال: " كان الحطيئة أسرع الناس إلى مدحه ومواساته والثناء عليه في هذه الأبيات التي عبثت بها الشيعة فيما بعد، فبدلتها تبديلا وسترى فيها صورة للمثل الأعلى عند الحطيئة للرجل الكريم:

شهِد الحطيئةُ حين يلقى ربه ∴ أن الوليد أحقُّ بالعذر
خلعُوا عِنَانك إذ جريت ولو ∴ تركوا عنانك لم تزل تجرى
ورأوا شمائلَ ماجدٍ متبرع ∴ يعطى على الميسور والعُسْر
فنزعتَ مكذوبا عليك ولم ∴ ترددإلى عَوَزٍ ولا فقر[1]

ولهذه الأبيات رواية أخرى ذكرها طه حسين ووردت بالديوان والعقد الفريد وغيرهما. أما المدح الذى ثار حوله جدل واتهام فهو ما نسب إلى الحطيئة مادحاً به أبا موسى الأشعرى، فرفض الناس أن يسلموا بهذا المدح ليس لأنه يختلف عن شعرا الحطيئة وإنما للاختلاف الكبير بنى الرجلين من ناحية، ومن ناحية أخرى أن ذلك المدح قد انتقل للناس عن طريق حماد الرواية الذى عرف بالكذب والوضع ونحل الشعر[2].

ذكر المدائني أن القصيدة صحيحة، ويبدو أن الشك في حماد وحده لا يكفى بل ينبغى ربط القصيدة بمناسبتها التى قيل فيها أن الحطيئة قد دعا إلى أن يكتب في من يغزو العراق مع أبى موسى فلم يفعل، وأتم ذلك أبو موسى ثم جاء الحطيئة للكتابة فعلم بتمامها، فقال القصيدة وأولها:

هل تعرفُ الدارَ مذ عامين أو عامِ ∴ داراً لهند بجزعِ الخَرْجِ فالدام

وتمخضت القصيدة عن لوم عمر رضى الله عنه لأبى موسى، وكتب له:

---

(١) حديث الأربعاء جـ١ ص: ١٣٤، ص: ١٣٥ والديوان ص: ١٧٩.

(٢) انظر الأغاني جـ٢ ص: ١٧٥ وطبقات فحول الشعراء جـ١ صـ ٤٨.

"إنى اشتريت عرضى منه بها، فكتب إليه عمر: إن كان هذا هكذا وإنما فديت عرضك من لسانه ولم تعطه للمدح والفخر فقد أحسنت"(١).

من شعر الوصف :

عاش الحطيئة قدرا كبيرا من حياته فى البادية، فقد نشأ فيها، وتنقل بين جوانبها، وشهد فيها دوران النبات وحركة الشمس وتصارع الوحوش وعظمت صلته بالطباع العربية، وإن تخلق بأكثر السيئ منها، ولربما يعجب القارئ من هذا الشاعر الذى تحدث الناس عن بخله المشهور وطمعه الفاحش – ويراه يتحدث عن الكرم وهو خلة عربية وإسلامية محمودة، لعله يمسح بها جانبا من صورة نفسه الشحيحة. قال*:

وطاوى ثلاثٍ عاصب البطنِ مُرْمِلٍ ∴ بتيهاء لم يعرف بها ساكنٌ رسْما(٢)
أخى جَفْوَةٍ فيه من الإنسِ وحشةٌ ∴ يرى البؤس فيها من شراسته نُعْمى(٣)
وأفردَ في شِعْب عجوزًا إزاءها ∴ ثلاثةُ أشباحٍ تخالُهُمْ بَهْمَا(٤)
رأى شَبَحًا وسْط الظلام فراعه ∴ فلما بدا ضيفا تسوَّر واهتما(٥)

---

(١) الأغانى جـ٢ ص: ١٧٦.

(*) الديوان ص: ٢٧١.

(٢) الطاوى: الجائع، ثلاث: أى ثلاث ليال، مرمل: فقد زاده، الجفوة: البعد، الوحشة: البعد عن المودة

(٣) الشراسه: سوء الخلق، النعمى: النعمة.

(٤) إزاءها: أمامها أو حولها، أشباح: أشخاص مهزولون، البهم: جمع بهمة وهو ولد الضأن.

(٥) تسور: فكر واهتم.

وقال ابنه لما رآه بحيرة ∴ أيا أبت اذبحني ويسر له طُعما
ولا تعتذر بالعُدم عل الذى طرا ∴ يظن لنا مالا فيوْ سعنا ذما(١)
فروّى قليلا ثم أجْحَمَ برهة ∴ وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما(٢)
فبيناهما عنّت على البعد عانة(٣) ∴ قد انتظمت من خلف مسْحَلها نظما(٣)
عطاشا تريد الماء فانساب نحوها ∴ على أنّه منها إلى دمها أظمأ
فأمهلها حتى تروّت عطاشها ∴ فأرسل فيها من كنانته سهما(٤)
فَخَرّت نَحُوصٌ ذاتُ جحشٍ سمنية ∴ قد اكتنزت لحما وقد طبّقت شحما(٥)
فيا بشره إذ جرّها نحو قومه ∴ ويا بِشْرَهم لما رأوا كلْمَها يدْمى(٦)
فباتوا كراما قد قضوا حق ضيفهم ∴ فلم يغرموا غُرْما وقد غنموا غُنما
وبات أبُوهم من بشاشته أبا ∴ لضيفهمُ والأم من بشرها أما

بيان ونقد لهذه القصة الشعرية :

١ – تعرض القصيدة لقصة أعرابى ومعه زوجته وثلاثة أبناء وهم جميعا فى حالة بوس بالصحراء، وحل بهم ضيف كأنه شبح لضعفه وهزاله، واهتم البدوى بالمأزق الذى ألم به لفقد الصيد، فعرض أحد الأبناء على والده أن يذبحه إنقاذا للموقف، واستجابة لنداء الكرم وحق الضيافة، وخوفا من المذمة

---

(١) طرا: جاء طارئا.

(٢) أجحم: بمعنى أحجم وجاءت بعض الروايات بالثانية.

(٣) العانة: قطيع الأتن، المسحل: حمار الوحش.

(٤) تروت: شربت، الكنانة: جعبة السهام

(٥) خرت: سقطت، نحوص: أتان وحشيه سمينة، الجحش: ولد صغير للحمار.

(٦) الكلم: الجرح.

والنقص، وتعقدت القصة وتشابكت الأحداث وتروى الوالد قليـــلا قبل أن يهمه بذبح ابنه، ثم جاء الحل فى قطيع من حمر الوحش فى طريقه للارتواء فأرسل الرجل عليه سهما من كنانته حل به الأزمــة باصــطياد أتان سمينة ذات ولد صغير، وفرح الجميــع بالصيد الذى جره الوالد، فأدوا بـه حق الضيــافة، وواجــب الكرم وشعر كل من الأب والأم بـأن الضيف كأنه ابن لهما.

٢- صاغ الحطيئة هذه القصة بخياله الخصب، ودعمها بمعارفه الدينية، وعبر بـها عن البيئــة العربيــة بما فيها مـــن وديـان وقفار وحيوانات ووحوش، وأبرز صفة الكرم، وأشاد بـها، وبالغ فيها حتى وصل بـها إلى الحالة التى يقـــدم أحد الأبناء نفسه لوالده لكى يخرج من مشكلته، وكان دقيقا فى اختيار الألفاظ وصوغ الحكاية وإحكـام العقدة، والانتهاء إلى حل للأزمة يرضى به الجميع.

وتعد هذه القصة – بتنوع أدوات الصياغة فيها – أروع حبكة وتماسكا من القصة الشعرية التى عرض لها عمر بن أبى ربيعة في قصيدته المشهورة.

أمِـن آل نـعـمٍ أنـت غـادٍ فـمُـبْـكـر ... غـداةَ غـدٍ أم رائـحٌ فـمـهـجّـر

وتؤكد القصيدتان وغيرهما من التجارب الذاتية الأخرى ظهور القصة الشعرية عند القدماء.

وقد كانت للحطيئة قـــدرة عجيبـــة على تصوير الأحـــداث وإبـــراز المواقف وإدارة الحوار، ففى إحدى الروايات التى أوردها أبو الفرج نشهد تنامى البناء الحوارى.

حتى في طرده للضيوف، قال: "مر ابن الحمامة بالحطيئة وهو جالس بفناء بيته فقال: السلام عليكم

فقال: (أي الحطيئة) قلت ما لا ينكر.

قال: إني خرجت من عند أهلي بغير زاد.

فقال: ما ضمنت لأهلك قراك.

قال: أفتأذن لي أن آتي ظل بيتك فأتفيأ به.

قال: دونك الجبل يفئ عليك.

قال: أنا ابن الحمامة.

قال: انصرف، وكن ابن أي طائر شئت"(١).

علاقاته بالشعراء:

وقف الحطيئة ليستمع إلى حسان وهو ينشد شعره، فقال له حسان وهو لا يعرفه كيف تسمع هذا الشعر يا أعرابي، فقال الحطيئة: لا أرى به بأساً، فغضب حسان من الإجابة فسأل عن كنيته وعرف أنه أبو مليكة فسخر منه وقال له امض بسلام(٢).

فقد كان حسان في عالم رحب فسيح وهو يتقدم شعراء المسلمين للدفاع عن الرسول وأصحابه وله منزلة عظيمة في قومه ولم يكن الحطيئة ليرقى إلى هذه الدرجة بهجائه ودمامته وسوء خلقه لكنه بدأ يلمع في سماء الشعر منذ أن طال لسانه بالسوء على الزبرقان فاستفتى حسان في شأنه.

---

(١) الأغاني جـ٢ ص: ١٧١.

(٢) انظر الأغاني جـ٤ ص: ١٦٧.

أما كعب بن زهير (ت ٢٦هـ) فقد كانت بينه وبين الحطيئة راوى شعره وشعر والده مودة ووفاق، ورغب أبو مليكة فى تأريخ ذلك ورصده، فجاء إلى كعب وقال لـه: "قد علمت روايتى لكم أهل البيت وانقطاعى إليكم، وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك، وتضعنى موضعاً بعدك؛ .... تبدأ بنفسك فيه ثم تثنى بى – وإن الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب[١] قصيدة جاء فيها:

فمَنْ للقوافى شانَها من يحوكُها ... إذا ما ثوى كعبٌ وفوّز جَرْوَل[٢]

وقد أجاب الحطيئة عن سؤال وجه إليه، وهو من أشعر الناس: فقال: الذى يقول:

من يسأل الناسَ يحرمُوه ... وسائلُ الله لا يخيب

يريد عبيد بن الأبرص، فلما قيل له: فبعده من؟ فأخرج لسانه وقال: هذا إذا رغب"[٣].

ولعل هذه الحركة فى الإجابة تكشف عن خبثه ومكره وسوء أدبه وأن الإجابة تعبر عن توجه معين، وليست كلمة فاصلة، كما أن السؤال عن أشعر الناس غير موضوعى وقد أجاب فى مواقف أخرى أن أشعر الناس آخرون مما يؤكد فساد الرأى القائل عن شخص بأنه أشعر الناس.

---

(١) الأغانى جـ٢ ص: ١٦٥.

(٢) ديوان كعب بن زهير ص: ٧٣، طبع دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧م.

(٣) العقد الفريد جـ٦ : ١٠٥.

وقد نقلت عنه مجموعة من الآراء عن الشعر والشعراء وبعض الطوائف الأخرى من خلال وصيته قبل موته وجاء فيها:

"ويل للشعر من راوية السوء"

وذكر أبياتاً من الشعر قال إن صاحب كل واحد منها هو أشعر الناس وهم الشماخ بن ضرار، وامرؤ القيس، وحسان بن ثابت، وضابئ بن الحارث البرجمي، وهذا الآخر لقوله:

لكل جديدٍ لذةٌ غيرَ أنني ... رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذ

ثم طلبوا منه أن يقول غير ذلك، فقال:

الشعر صعْبٌ وطويل سُلَّمُهْ ... إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمُهْ ... يريدُ أن يعربَه فيُعْجِمه

وذكر أنه يجزع على المديح الجيد الذى يمدح به من ليس له أهلا(١) .

كلمة أخيرة :

لقد عاب الأصمعى على الحطيئة سوء أخلاقه وقبح منظره وفساد دينه، لكنه أشاد بشعره لندرة العيب فيه، وهذه حقيقة حرصت فى هذه الأوراق على التأكيد عليها، فقد كان الرجل ممن اختلف الناس فيهم لكن الإطار العام لشخصيته لم يكن يخلو من سفه وطيش وسوء طوية، وقدمنا فى ذلك نقلا عن المصادر القديمة الشئ الكثير. وإذا كان قد أجاد فى المدح والهجاء فلأنهما

() انظر الأغانى جـ٢ ص: ١٩٥ وما بعدها.

مرتبطان ببعضهما تماما، وبنى كسبه عليهما، وإذا كان هذا المنزع معيبا فى الشعر لما يتمخض عنه من كذب العاطفة فإننا نقول إن غرام الحطيئة بالمال كان الموجه والمقود لسفينة شعره، ولم يلجأ إلى المبالغة الممقوته التى تكشف عن بعض الزيف وتصير كالنكتة السخيفة الممجوجة، فقد كان لا يكذب فيما يقول حسب رأيه، وهو إدخال عاطفته فى دائرة الصدق والعمق وهو ذو تجربة كبيرة يحشد فيها ألفاظه المصقولة ومعانيه وصوره وأخيلته المستوحاة من البيئة.

إن الحطيئة ليس صورة مكررة لزهير أو ابنه، وإن كان المنهج والمنزع متقاربا فى الآراء والشكل وليس فى المضمون والغرض.

وشعره أقرب إلى أهل البادية منه إلى أهل الحضر، وأفكاره عميقة وساخرة أحيانا، ولا يميل إلى المبالغة والسرف فى القول.

واكتسب بروايته للشعر ثروة لغوية كبيرة، وجنت عليه نشأته فلم يرفع راية لقبيلته، ولم يفتخر بنسبه، فابتعد عنها ليخبط فى التيه على سفائن الصحراء فى الليل البهيم.

مصادر ومراجع للبحث عن حياة الحطيئة وشعره

١ – أسد الغابة فى معرفة الصحابة، ابن الاثير جـ٢ دار الشعب.

٢ – الإصابة فى تمييز الصحابة، ابن حجر جـ٢ دار الغد العربى.

٣ – الأغانى – أبو الفرج جـ٢ ار الكتب.

٤ – البيان والتبين – الجاحظ – الخانجى – ت عبد السلام هارون.

٥ –تاريخ الأدب العربى – كارل بروكلمان – جـ١ دار المعارف (مترجم).

٦ – تاريخ الأدب العربى – د. عمر فروخ – جـ١ دار العلم للملايين.

٧ – تاريخ الأدب العربى – د. شوقى ضيف جـ٢ (العصر الإسلامى) دار المعارف.

٨ – حديث الأربعاء – د. طه حسين جـ١ دار المعارف.

٩ – الحيوان – الجاحظ – ط مصطفى الحلبى بالقاهرة ت عبد السلام هارون.

١٠ – ديوان الحطيئة – المؤسسة العربية للطباعة والنشر – بيروت.

١١ – طبقات فحول الشعراء – لابن سلام مطبعة المدنى بالعباسية ت محمود شاكر.

١٢ – العقد الفريد – ابن عبد ربه – دار الفكر، لبنان – ت محمد سعيد العريان.

١٣ – العمدة – ابن رشيق – دار الجيل بيروت (ت محمد محيى الدين عبد الحميد.

١٤ – الكامل للمبرد – دار نهضة مصر – ت محمد أبو الفضل إبراهيم.

الفصل الرابع
من شعر الرثاء لأبى ذؤيب الهذلى

أبــو ذؤيـــب :

شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية، وأدرك الإسلام، واسمه (خويلد بن خالد بن محرث من بنى سعد بن هذيل، وكان راوية لساعدة بن جؤية الهذلى.

وهو من هذيل التى تأخر دخولها فى الإسلام على قرب مساكنهم فى الحجاز، وقدم أبو ذؤيب المدينة عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، فأسلم وحسن إسلامه، وروى عنه أنه قال: "قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلوا بالإحرام، فقلت: مه؟ فقالوا: توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١)، وعاش إلى عهد عثمان بن عفان، وشارك فى الجيش الذى فتح شمالى أفريقية يوم أن كان عبد الله بن سعد بن أبى سرح واليا على مصر والمغرب، وكان فى هذا الجيش عبد الله بن الزبير بن العوام، وأبو ذؤيب الهذلى"(٢) وذلك فى عام (٢٦هـ) أو بعده بعام أو عامين.

وكان مع أبى ذؤيب أبناؤه الخمسة الذى أصيبوا بالطاعون فى مصر فماتوا بها، ورثاهم، وبكى عليهم بالعينية التى سنعرض لها، وتابع الرجل طريقه مع الجيش نحو شمالى أفريقية، والذى حقق الانتصارات العظيمة، منها فتح قرطاجة والتى تقع الآن فى الضاحية الشمالية لمدينة تونس (العاصمة)، وعاد ابن الزبير وأبو ذؤيب يحمل بشرى الفتح وخمس الغنائم إلى عثمان رضى الله

---

(١) معجم الأدباء، جـ١١، ص: ٨٤.

(٢) انظر فتوح البلدان للبلاذرى، ص: ٢٦٧.

عنه بالمدينة، ولما وصلا إلى مصر لدغت أبا ذؤيب حية فمات فيها سنة (٢٨هـ) وواراه عبد الله بن الزبير التراب[١].

شـــعره:

جعل ابن سلام الجمحي أبا ذؤيب واحدا من فحول الشعراء الجاهلية (الطبقة الثالثة)، وقال:

"وكان أبو ذؤيب شاعرا فحلا لا غميزة فيه ولا وهن[٢]. قال أبو عمرو ابن العلاء: سئل حسان من أشعر الناس؟ قال: حيا أو رجلا[٣]؟ قال حيا، قال أشعر الناس حيا هذيل، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب .." وقال ابن سلام .. وكان فصيحاً كثير الغريب متمكنا في الشعر"[٤].

وسبق أن تحدثت في كتاب لي، عن امرئ القيس، عن قضية أشعر الناس وأشعر الشعراء وغير ذلك من التعبيرات القديمة التي لا تخلو من مبالغة، أما أن يكون أبو ذؤيب أشعر هذيل فهو قول لا يمكن رده أو إنكاره، وقد كان لارتباط هذا الشاعر بقبيلته، واشتراكه في الغزو، ورثائه لأبنائه الذين ماتوا في رحلة الغزو أثر كبير في ذيوع شعره خاصة ما قيل فيه من رثاء وبكاء على من ماتوا من الأبناء والأصدقاء.

---

(١) وقيل مات بأفريقية قبل العودة منها إلى مصر.

(٢) أي ليس فيه عيب يغمز به ولا ضعف.

(٣) في المزهر للسيوطي (أراحلا أم حيا) جـ٢، ص: ٤٨٣.

(٤) طبقات فحول الشعراء، جـ١ ص: ١٣١، ص: ١٣٢ تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر (رحمه الله وأسكنه فسيح جناته).

كما أن له شعرا في وصف الخيل والطرد، والغزل، وروى له ثعلب:

وعيَّرها الواشون أني احبها ... وتلك شَكَاةٌ ظاهرٌ عنك عارها
فإنْ أعتذر فإني مكذَّبٌ ... وإن تعتذر يُرْدَدْ على اعتذارُها(١)

العينية :

احتفل القدماء والمحدثون من النقاد بقصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه الخمسة احتفالا كبيرا، وعدوها واحدة من درر المراثي في الشعر العربي وأثبتها صاحبها في جمهرة أشعار العرب، والمفضليات، وجاء في الأغاني "قال أبو زيد عمر بن شبة: تقدم أبو ذؤيب جميع شعراء هذيل بقصيدته العينية التي يرثي فيها بنيه، يعني قوله:

أمِنَ المنُون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمُعْتِب من يجزع

وهذه يقولها في بنين له خمسة أصيبوا في عام واحد بالطاعون ورثاهم فيها"(٢) وأورد ابن رشيق أبياتا منها في العمدة، وعدها في المطبوع من شعر العرب، ولسوف نعرض هنا لثمانية عشر بيتا منها إلى أن تتاح لنا فرصة لاستكمال بحثها، وما توفيقي إلا بالله(٣).

---

(١) معجم الأدباء لياقوت ، جـ١١ ، ص: ٨٩.

(٢) الأغاني، جـ١ ، ص: ٣٦٥.

(٣) يراجع: أبو ذؤيب وشعره في طبقات فحول الشعراء، والشعر والشعراء وجمهرة أشعار العرب والمفضليات والأغاني والعمدة، ومعجم الأدباء والمزهر، وفتوح البلدان، وأسد الغابة، وغيرها.

الأبيات (★)

١- أمِنَ المنُون وريبها تتوجع ∴ والدهر ليس بمُعتِبٍ من يجزع
٢- قالت أميمةُ ما لجِسْمِك شاحبا ∴ منذ ابتُذِلْتَ، ومثل مالكَ ينفع
٣- أم ما لجسمك لا يلائم مضجِعًا ∴ إلا أقضَّ عليك ذاك المضْجَع
٤- فأجبتُها أنْ ما لجسمي أنه ∴ أودَى بنيَّ من البلاد فودعوا
٥- أودى بنى فأعقبونى حسرة ∴ بعد الرقاد وعبْرةً ما تقلِع
٦- سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم ∴ فتخرَّمُوا ولكل جنب مصرع
٧- فغَبَرْتُ بعدهمُ بعيش ناصب ∴ وإخَالُ أنى لاحقٌ مُسْتَتْبِع
٨- ولقد حرَصْتُ بأن أدافع عنهم ∴ فإذا المنية أقبلت لا تُدفع
٩- وإذا المنية أنشبت أظفارها ∴ ألفيت كل تميمة لا تَنفع

(★) جمهرة أشعار العرب، ص٥٣٤.

١- المنون: المنية، وريب المنون: حوادث الدهر، ليس بمعتب: ليس بمرض.

٢- الشاحب: الضامر المتغير، منذ ابتذلت: منذ امتهنت.

٣- يلائم: يوافق، ضجع الرجل: وضع جنبه على الأرض، أقض عليه المضجع، أي تترب وخشن.

٤- أودى: أهلك، بنى: أبنائي، البلاد: أي من أهل البلاد، ودعوا: كناية عن الموت.

٥- بعد الرقاد: بعد نوم الناس ليلا، عبرة: دمعة.

٦- هوى: هواى في لغة هذيل، أعنقوا: أسرعوا، تخرموا: أخذوا واحدا واحدا، لكل جنب مصرع: أي أنهم صرعوا من كل موضع في أجسامهم.

٧- غبرت: بقيت، ناصب: ذو نصب أي فيه مشقة وإعياء، إخال: أظن.

٨- عنهم: عن بنيه.

٩- المنيه: الموت، أنشبت: أعلقت ومنه النشاب، التميمة: التعويذه.

١٠- فالعينُ بعدهم كأن جفونَها ∴ سُمِلَتْ بشوك فهي عُورٌ تَدْمَع
١١- وتجلُّدي للشامتين أريهم ∴ أني لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضع
١٢- حتى كأني للحوادث مَروةٌ ∴ بِصَفَا المُشقَّر كلَّ يوم تُقرع
١٣- لابد من تَلَفٍ مقيم فانتظر ∴ أبأرضٍ قومك أم بأخرى المَضْجع
١٤- ولقد أرى أن البكاء سفاهةٌ ∴ ولسوف يُولع بالبكا من يفجع
١٥- وليأتِينّ عليك يومٌ مَرةً ∴ يبكى عليك مقنعا لا تَسْمَع
١٦- والنفس راغبة إذا رغبتها ∴ وإذا تُرد إلى قليل تَقْنع
١٧- كم من جميعِ الشملِ ملتئم الهوى ∴ كانوا بعيشٍ ناعم فتصدعوا
١٨- فلئن بهم فَجَعَ الزمان وريبه ∴ إني بأهل مودتي لمفجّع

١٠- سملت: طعنت أو فقعت بحديدة، عور: جمع عوراء من العوار وهي مايصيب العين من رمد أو قذى.

١١- ريب الدهر: حوادثه، لا أتضعضع: لا أخضع وأذل.

١٢- المروة: واحدة المرو، وهي حجارة بيض براقة، الصفا: جمع صفاة وهى الحجارة العراض، والصفا: موضع، المشقر: جبل لهذيل، وقيل: حصن بالبحرين.

١٣- المضجع: الموت.

١٤- أرى: أعلم، مولع: يغرى، يفجع: يحزن.

١٥- مقنع: مدفون مغطى.

١٦- تقنع: ترضى.

١٧- جميع الشمل: تجمع شملهم، ملتئم الهوى: مكتمل الحب.

١٨- يسب الزمان: حوادثه، فجعته المصيبة: أوجعته.

إيضاح المعنى :

يستنكر الشاعر أن تنهزم نفسه فتتوجع من الموت وحوادث الزمن؛ لأن الدهر لا يستجيب لمن يحزن وييأس من خطوبه .

وتستنكر تلك المرأة (أممية) شحوب لونه منذ امتهن نفسه فى مشقة العمل مع أن فى ماله ما يكفيه وينهض بنفعه وتحقيق مآربه، وأنه يشقى فى نومه فلا يأخذ جسمه راحته بسبب قلقه واضطراب نفسه .

وأجابها عن إنكارها لحالته بأن سبب ذلك راجع لهلاك أبنائه غرباء وهم الذين ماتوا فجعلوا نهايته حسرة دائمة وبكاء مستمرا، وأنهم سبقوه إلى الفناء، وكان يتمنى أن يموت قبلهم فيبقوا بعده، ولكنهم ماتوا جميعا، وعاش بعدهم فى مشقة وتعب، ويسيطر الألم عليه فيستشعر – يائسا – قرب نهايته .

وقد حرص على الدفاع عنهم، غير أن الأجل إذا جاء لا يرد ولا يقاوم فالموت إذا أعلق مخلبه فى شيئ ليجذبه فسدت معه الحيل والتعاويذ. وإن حزنه دائم وبكاءه مستمر حتى لكأن عينه قد فقدت جفونهما بشوك جعلها عوراء دامعة، وإنه مع ذلك يصبر ويتجلد ليكشف للشامتين عدم استسلامه وخضوعه لخطوب الزمن، وإن المصائب من كثرة إلمامها به صار لها موطئا تعروه وتدوسه وكأنه حجارة فى جبل المشقر بأرض هذيل أو أى موضع آخر، وإن الموت قادم وعلى المرء أن ينتظره فى أى مكان يحل به، وإنه يرى البكاء سفاهة لعدم جدواه ولكن المصاب يغرى به فلا يقوى على مقاومته .

وإن البكاء على الميت قادم على كل من يدفن فلا يستمع لشئ، وإن رغبة النفس فى الأمور على مقدار بسط الإنسان لها فإذا أكفها عما تشتهيه قنعت

ورضيت بالقليل، وإن الماضى يحمل كثيراً من الحوادث التى اجتمع فيها شمل الكثير من المحبين، فماتوا وتصدع بناء حياتهم، وقد أصابهم الزمان، وفجعهم فى أحبائهم، وإنه لشديد التفجع بما لحق بأبنائه، وأحبابه وأهل مودته.

تعليـــق ونقـــد :

١ – اخترت الأبيات السابقة من قصيدة أبى ذؤيب فى رثاء أبنائه بالرواية التى أوردها أبو زيد القرشى فى جمهرة أشعار العرب، والتى بلغت أبياتها عنده سبعة وستين بيتا من بحر الكامل التام، وهى واحدة من أروع القصائد التى رثى فيها الآباء أبناءهم، وعبر الشاعر فيها عن مأساته فى فقد أبنائه الخمسة الذين ماتوا غرباء عن وطنه، ويستمع – حزينا – لصوت تلك المرأة التى تساءلت عن تغير لونه وامتهان نفسه مع كثرة ماله؟ وذهاب من كان يكفيه الحاجة والطلب.

وتتميز الأبيات بالصدق وقوة التعبير وشدة المعاناةوعمق التجربة التى بكى الشاعر فيها على أبنائه لكنى أعجب لتراجعه فى التعبير عن مأساته إلى الحد الذى يعلن أن تجلده بسبب رغبته فى الصمود فى مواجهة الشامتين.

٢ – ابتدأ أبو ذؤيب الأبيات باستفهام للنهى والإنكار (فى البيت الأول) يخاطب به نفسه، وشخص الدهر فى البيت نفسه (مكنية). واستعان باستفهام آخر للإنكار (فى البيت الثانى) يورده على لسان امرأة تسمى (أميمة).

وجعل خشونة المضجع (فى البيت الثالث) كناية عن القلق ومجافاة النوم، وبالتعبير مبالغة فى تصوير الحزن والأسى الذى سيطر على الشاعر. وقوله (فى البيت الرابع) من البلاد، أى من أهل البلاد وهو أسلوب

بلاغى به مجاز بالحذف، أو أنه مجاز مرسل علاقته المحلية، وقوله: ودعوا كناية عن الموت.

وأكد حزنه باستمرار البكاء (فى البيت الخامس) كما أبرز صورة الموت (فى البيت السادس) فى جعله كل جنب ومضجع من أجسام أبنائه يموت جزءا جزءا، وقد وازن بين هواه وهواهم مع عدم التعارض فيما بين الهواءين.

وقوله: "عيش ناصب" (فى البيت السابع) تشخيص وإبراز للحياة بما فيها من نصب ومشقة، و (فى البيت الثامن) استعارة مكنية فى قوله: "فإذا المنية أقبلت" فضلا عن تذييل البيت بالتأكيد على عدم المقدرة على دفع الموت.

وصور الشاعر الموت (فى البيت التاسع) بوحش كاسر أنشب أظافره فى الأبناء (استعارة مكنية) وهى تبرز قوة الموت وبشاعة صورته، وجعل العين - بكثرة البكاء - كأن جفونها قد فقئت بحديدة (فى البت العاشر) ولننظر الى كلمة (سملت) و (عور) بما يسهمان به فى إبراز أثر الحزن على أبى ذؤيب.

ويظهر قوة تحمله لريب الدهر (فى البيت الحادى عشر)، وقد حرص على الظهور بمن يتجلد لا ليقاوم أحزانه، وإنما ليبدو أمام الشامتين فى صورة قوية غير منهزمة، وشبه نفسه بحجارة براقة (فى موضع معين) تقرع كل يوم (فى البيت الثانى عشر) كما عبر (فى البيت الثالث عشر) عن الموت بالتلف (كناية)، وانظر للتأكيد (فى البيتين الرابع عشر والخامس عشر)، ويوم البكاء كناية عن يوم الموت.

و (البيت السادس عشر) يكشف عن تجربة الشاعر وقدرته على إرسال الحكمة، و "كـــم" تفيد الكثرة والمبالغة (في البيت السابع عشر)، وقوله: "فتصدعوا" استعارة تصريحيـه، شــبه من كانـوا قبلــه ببناء تصدع بوفاتهم، كما هو الحال في وفاة أبناء الشاعر، وقوله (في البيت الثامن عشر): "فجع الزمان" تشخيص للزمان أو أن الأسلوب مجاز مرسل علاقته الزمانية أو السببية.

٣- تكثر ألفاظ الموت والبكاء والفجائع والصبر والتجلد، ولم يبالغ الشاعر في التصوير الخيالي أو المحسنات البديعية، فليس لديه من رحابة الأفق في هذا الموقف ما يجعله يحلق بصوره وأخيلته بعيدا عن جو الحزن والمعاناة الذي فرضه موت أبنائه الخمسة دفعة واحدة، ولم يخرج أبو ذؤيب من دائرة الإيمان بالقضاء إلى الوقوع في شرك بعض التعبيرات اليائسة أو الرافضة لحكم القدر كشأن الكثيرين الذين يستسلمون للأفكار السوداء في أمثال هذه المواقف التي ربما لا تصل إلى فقد خمسة من الأبناء غرباء دفعة واحدة.

الفصل الخامس
النثر فى عصر صدر الإسلام

خطا النثر فى عصر صدر الإسلام خطوات واسعة نحو الكثـرة والتنوع والتجدد، إذ كان العرب فى الجاهلية يقصرون عنايتهـم على الشعر ولا يظفر النثر إلا ببعض الاهتمام خاصة فى الخطابة والأمثال وسجع الكهان، ذلك لأن النثر قليل التداول، صعب الراوية، ولا يبقى فى الذاكرة مثل الشعر، كما أن العرب كانوا أميـين (غالباً)، ولا تتجاوز الكتابة عندهم بعض العهود والرسائل والأقوال المهمة، اذ كانت عنايتهم منصرفة إلى الشعر فهو سجل حياتهم وديوان مفاخرهم، ولأنه يتواكب مع فطرتهم.

ولما أهلت تباشير الإسلام على الحجاز عظم الاحتياج إلى النثر المتمثل فى الخطابة والرسائل والعهود والمحاورات وغيرها، هذا بالإضافة إلى القرآن الكريم، والحديث النبوى والشعر والتى سبق الحديث عنها.

١ – الخطابـــة :

لقد تطورت الخطابة تطورا كبيرا مع ظهور الإسلام، إذ غدت أهم وسيلة لشرح الأحكام الشرعية فى صلاة الجمع والعيدين وفى مواسم الحج، وتأثرت بالقرآن الكريم والحديث النبوى، وتخلت عن بعض الخصائص القديمة شكلا ومضمونا، وكانت خطب الرسول ذات قيمة كبيرة خاصة بعد الهجرة، حين بدأ يرسم للمسلمين شكل الدولة الجديدة، وينظم العلاقات بين الناس، ويضع الحلول للمشكلات الدنيوية، وينير الأفئدة بحديثه عن الغيبيات، ويرد على وفود القبائل

العربية التى قدمت إليه، ومما روى عنه قوله فى ابتداء خطبته يوم الجمع: "الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله"(١).

ومن خطبه الموجزة قوله بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

"أيها الناس، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين: بين عاجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع به، وبين أجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذى نفس محمد بيده، ما بعد الموت من مستعتب، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار"(٢).

أما خطبته فى حجة الوداع، فكانت أشمل خطبة له– فى مدى علمى – حيث خاطب بها الحاضرين وكلفهم بتبليغها للغائبين، وعرض فيها لكثير من الأمور الشرعية، وكان يكرر بين كل وصية وأخرى: "ألا هل بلغت اللهم فاشهد".

كما ازدادت الحاجة إلى الخطابة – بعد وفاة الرسول – فقد اتسعت رقعة الدولة، وتعددت مشكلاتها، ويأتى الخلفاء الراشدون فى مقدمة الخطباء آنذاك

---

(١) انظر: البيان والتبيين جـ٢ ص٣١، وعيون الأخبار، جـ٢، ص: ٢٣١.

(٢) البيان والتبيين جـ١ ص: ٣٠٢.

بلاغة، وقوة حجة، ونصاعة بيان، واحتذاء لرسول الله، واقتباسا من القرآن، وقد اتسعت مجالاتها، وتنوعت فقراتها، وحافظت على أكثر سماتها، التى اتصفت بها فى عهد الرسول، من حيث الابتداء بحمد الله والثناء عليه، واشتمالها على آيات من القرآن الكريم، كما كان بعض الخطباء يذكرون فيها أبياتا من الشعر.

ويحفظ التاريخ عددا من الخطب لأبى بكر، منها خطبته بعد وفاة الرسول، وخطبته فى سقيفة بنى ساعدة بعد أن تمت له البيعة، ووصيته لعمر بن الخطاب حين استخلفه وتشهد كلها بحسن اختياره للألفاظ ووضوح معانيه وبعده عن التكلف وجريان أسلوبه على الطبع العربى.

ونهض عمر بالخلافة، وسار على نهج أبى بكر، وتواصلت الفتوح خارج الجزيرة العربية وزادت الرسائل بين الخليفة والولاة إلى جانب الخطابة فى المناسبات المختلفة وفى مقدمتها الجمعة والعيدين والحج، ويسجل التاريخ لعمر العديد من الخطب والمواعظ والوصايا.

أما عثمان بن عفان فقد تولى الخلافة كبيرا، وكانت قدراته تقل بعض الشئ عن أبى بكر وعمر، وارتج عليه يوما، وهو يخطب فقال: "إن أبا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب"، لكن ذلك لم يكن شأنه دائما، فله مواعظ ينفطر لها القلب خاصة فى الشهور الأخيرة من حكمه، حين ثار الناس عليه وانتهت خلافته بمحاصرة بيته وقتله بداخله.

أما على بن أبى طالب، فكان خطيبا مفوها، لا يشق له غبار، وهو أشهر الخطباء فى هذا العصر، وقد أسهمت الأحداث التى عاشها فى السنوات الخمس الأخيرة من حياته – والتى تولى فيها زمام الحكم – أسهمت فى تنوع خطبه وكثرتها، وقد تألف قدركبير منها فى كتاب "نهج البلاغة" الذى جمع بعد ذلك، وإن شك البعض فى نسبة بعض ما جاء فيه إلى الإمام على كرم الله وجهه.

وممن اشتهر بالخطابة أيضا فى هذا العصر العبادلة (ابن مسعود)، و (ابن الزبير)، و (ابن عباس)، وعمرو بن العاص، والأحنف بن قيس.

ومن خطب على كرم الله وجهه (بعد الحمد والثناء) قوله: "أما بعد: فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرقت باطّلاع، وإن المضمار اليوم والسباق غدا، ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل، فمن أخلص فى أيام أمله قبل حضور أجله (فقد) نفعه عمله، ولم يضرره أمله، ومن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خسر عملُه، وضره أمله، ألا فاعملوا لله فى الرغبة، كما تعملون له فى الرهبة، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لم ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى يجريه الضلال، ألا وإنكم قد أمرتم بالظعن، ودللتم على الزاد، وإن أخوفَ ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل"(١).

وتعد هذه الخطبة من أقصر ما قاله الإمام على كرم الله وجهه.

---

(١) البيان والتبيين جـ٢ ص: ٥٢.

وتتضح أهم الخصائص التى تميزت بها الخطابة فى صدر الاسلام فيما يأتى:

لقد ارتبطت الخطبة بأحكام التشريع الإسلامى، وبنصوص القرآن الكريم، والسنة النبوية، ولم تتقيد بالسجع كما كان الحال فى الجاهلية، وما جاء منه لم يكن متكلفا، وصار لكل خطبة موضوعاً واضحاً يتحدث الخطيب عنه، ويعد نفسه له (كما ذكر ذلك عثمان بن عفان)، فى السطور السابقة، وكانت الخطب ذات ألفاظ واضحة، باستثناء ما ورد فى بعض ما خاطب به الإمام على خصومه فى العراق.

وأحدثت الخطابة يومئذ تأثيرا عظيما فى السامعين وممن كانوا يحدثون فى خطبهم هذا التأثير عبد الله بن عباس، فقد تحدث مرة، فقال الناس عن خطبته لو شهدها الترك والديلم لأسلمتا، فالخطباء ينتقون الألفاظ، ويقتبسون من القرآن، ويبدؤونها بحمد الله والثناء عليه، وينصحون بها المسلمين، ويعدونها فى أسلوب رصين.

وقد اتسع مجال الخطابة بعد الفتنة التى أطلت بقرونها على الدولة الإسلامية، فى آخر عهد عثمان، وكثرت الحجج، والبراهين بها فى خلافة على، حيث وجه الكثير منها إلى الخوارج وإلى المتقاعسين عن الجهاد، وإلى أتباع معاوية، وإلى قمع الفتن وردع البدع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتحميس الجنود والالتزام بسنة الرسول (ﷺ).

وأسهمت هذه العوامل فى تطورالخطابة تطورا يتواكب مع المتغيرات الجديدة التى أحدثها الإسلام فى الجزيرة العربية أولا، وفى خارجها ثانيا.

٢ ـ الكتابـــة :

كانت الكتابة نادرة فى الجاهلية – كما سبق القول – واقتصرت على بعض ما سجله العرب من عهود لدى بعض الملوك والحكام ولم تكن منتشرة لأمية العرب التى ذكرها القرآن الكريم، ثم بدأت فى الانتشار – مع الإسلام – بدرجات محدودة ولأن القرآن نوه بها، ودعا إلى ممارستها فيما يتصل بالديون وحفظ الحقوق، وكان كتبة الوحى ينقشونه على الأحجار وسعف النخيل، الى أن جمع فى صحف على عهد أبى بكر، وأخذت كتابته شكلا واحدا وربما متميزا فى عهد عثمان بن عفان، عندما جمع المسلمين على نسخة واحدة للمصحف الشريف.

وكتب العرب مقاطعتهم لبنى هاشم وبنى عبد المطلب فــى صحيفــة أودعوها جوف الكعبة، وسجلت معاهدة الحديبية بين الرسول وقريش، وبعث الرسول بمجموعة من الرسائل إلى الملوك فى مصر والحبشة والروم وفارس، فأرسل إلى هرقل ملك الروم، قائلا: "من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(١)، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

---

(١) الأريسيون: الأتباع لدى السادة والكبراء.

وكتبت بعض المعاهدات مثل معاهدة الرسول مع أهل خيبر وغيرها.

وأرسل أبو بكر بعض الرسائل مع القواد الذين وجههم لمقاومة الردة عن الإسلام وتوالت فى عصره العناية بالكتابة خاصة فيما يتصل بالقرا الكريم، وعند احتضاره كتب عهدا لعمر بن الخطاب، هذا نصه:

"بسم الله الرحمن الرحيم" هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله (ﷺ) عند آخر عهده بالدنيا، وأول عهده بالآخرة، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر، ويبقى فيها الفاجر، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب، فإن بر وعدل فذلك علمى به، ورأيي فيه، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب، والخير أردت، ولكل امرئ ما اكتسب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون".

ونهضت الكتابة بدور بارز فى زمن عمر بن الخطاب، فقد كتب عهدا لأهل البيت المقدس، وسجل كثيرا من الدواوين الخاصة بالدولة، وبعث العديد من الرسائل إلى الولاة والقضاة والقواد، ومن أشهر رسائله ما بعث به إلى أبى موسى الأشعرى عامله على البصرة، وهى عن القضاء، قال:

"بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة فافهم إذا أُدلى إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذَ له، آسِ بيْنَ الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك، ولا يخافَ ضعيفٌ من جَورك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا حرم حلالا أو أحل حراما، ولا يمنعنّك قضاء قضيته

بالأمس، فراجعت فيه نفسك، وهُديت فيه لرشدك أن ترجع عنه إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعةُ الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهمَ الفهمَ عندما يتلجلج فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا فى سنة النبى صلى الله عليه وسلم، اعرف الأمثال والأشباه، وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل للمدعى حقا غائبا أو بينة أمداً ينتهى إليه، فإن أحضرَ بينته أخذتَ له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعَمَى، وأبلغ فى العذر. والمسلمون عدول، بعضهم على بعض إلا مجلودا فى حد، أو مجرّبا عليه شهادة زور أو ظنينا فى ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم الشبهات. ثم إياك والقلق والضجر، والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق، التى يوجب الله بها الأجر، ويُحسن بها الذخر فإنه من يُخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، ولو على نفسه، يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس ومن تزيّن للناس مِمَّا يعلم الله من خلاف ذلك، هتك الله ستره وأبدى فعله، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه، وخزائن رحمته، والسلام عليك"(١).

وتوالت عناية الخلفاء بالكتابة فبعث عثمان بنسخ من القرآن الكريم إلى بعض الأمصار، وكتب الولاة والقواد العهود والمواثيق مع الأقطار التى فتحت بالإسلام، ولما حاصر الثوار بيت عثمان أرسل إلى على بن أبى طالب رسالة مستغيثا به، قـــال:

---

(١) البيان والتبيين جـ٢ ص: ٤٩.

"أما بعد، فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطبيين[1]، وتجاوز الأمر قدره، وطمع في من لا يدفع عن نفسه.

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ... ضعيفٍ، ولم يغلبْك مثلُ مغلّب

ورأيت القوم لا يقصرون دون دمي. فاقبل إليَّ على أي أمريك أحببت. معي كنت أم عليّ، صديقاً كنت أم عدواً.

فإن كنتُ مأكولا فكن خير آكلي ... وإلا فأدركني ولما أمزق

ولقد واصلت الكتابة تطورها في عهد (علي) للحاجة إليها، وظهرت العناية بأسلوبها ومضمونها.

وإن كانت الخطابة في الإسلام قد اعتمدت على موروث قليل من العصر الجاهلي، فإن الكتابة في صدر الاسلام لم تكن لها جذور قديمة تتغذى منها، ولذلك وضحت عليها في صدر الاسلام مظاهر الإبداع والتجدد والحدوث، وكانت الرسائل تبدأ بالبسملة، وتأتي بعدها كلمة (أما بعد) مثل الخطبة وتختتم بالسلام، وتميل إلى الاختصار أحيانا، وتزين بعض الآيات القرآنية، وقد تشتمل على أبيات من الشعر، وأسلوبها جزل رصين، وعباراتها فخمة، قوية، وألفاظها دقيقة واضحة.

---

(١) الزبى: جمع زبية (بضم الأول) وهي حفرة تعد ليصاد بها الأسد، والطبيان مثنى طبي (بضم الأول وسكون الثاني)، وهي حلمة الضرع من ذات الأربع، ويضرب المثلان لبلوغ الشئ غايته.

ولا شك فى أن الكتابة قد تطورت خلال رحلتها القصيرة فى صدر الإسلام ، وتمخضت هذه الفترة عن مقدار من الرسائل والعهود والوصايا، والتى وجهت لخدمة الدين وإرساء التعاليم الخاصة بنظام الدولة الجديدة، وكان هذا التراث ذا قيمة كبيرة استفاد منه الأمويون وغيرهم.



الباب الثانى
الأدب العربى فى عصر بنى أمية



الفصل الأول
الشعر والبيئة فى عصر بنى أمية
(٤١ هـ - ١٣٢ هـ)

يأتى الحديث عن الشعر فى عصر بنى أمية مرتبطاً بالبيئة العربية آنذاك، فقد كثر هذا الفن مع الفتوح الإسلامية، وظهرت دعوات جديدة وقوية لإحياء العصبيات القبلية، والتى كان الإسلام قد غيبها عن الذهن العربى لسنوات طويلة، كما أن الخطابة وهى فن نثرى قد ازدهرت وتطورت بفعل الدين والسياسة، أما الكتابة فكان نموها بطيئا.

ونؤكد فى الحديث عن الشعر مدى ارتباطه بالبيئة العربية التى تباينت بين إقليم وآخر بدرجات تضيق وتتسع وفق المتغيرات الجديدة، كما لم تكن بدايات العصر مثل آواخره، فقد عاش أهل الحجاز مثلاً فى بداية حكم معاوية ابن أبى سفيان حياة عامرة بالثراء والترف واللهو، بينما خضع العراق لحروب طويلة بين الأمويين وخصومهم من الهاشميين والقرشيين وفرق الخوارج.

أولاً: بيئة الحجاز:

الحجاز هى سلسلة جبال السروات التى تفصل منطقة نجد عن إقليم تهامة، وتمتد من العقبة شمالاً إلى اليمن جنوباً، وأشهر مدنها أوقراها القديمة: مكة والمدينة والطائف.

وكانت المدينة مركز الحكم فى عهد الرسول (ﷺ) وصاحبيه أبى بكر وعمر وصهره ذى النورين، فلما كان العهد لعلى، ولم تستقم الحياة له، انتقل إلى

الكوفة، وبعد مقتله كرم الله وجهه استقر الأمر لمعاوية (٤١هـ - ٦٠هـ)، واتخذ من دمشق (بالشام) مركزاً لحكمه ومقرا للخلافة الإسلامية.

وهكذا انحسرت أضواء السياسة عن المدنية وكذلك مكة والطائف، وعرف معاوية كيف يملك القلوب ويوجه العقول، فسلط أمواله على الناس بهذه البلاد، وعلى كل من يستشعر فيه طمعاً في الملك أو رغبة في المنافسة، وكان الشباب بمدن الحجاز قد ورث أموالاً كثيرة عن آبائهم المجاهدين والتي آلت إليهم من مغانم الفتوح الإسلامية، ومن اشتغال الكثيرين منهم بالتجارة. وانتشر الغناء ووفد المغنون والمغنيات من سائر الأقطار.

وذكر أبو الفرج في كتابه (الأغاني) عددا كبيراً منهم حيث امتلأت بهم ديار الحجازيين، وانتشر تبعاً لذلك شعر الحب، وطغا الغزل على الأغراض الأخرى، ولم يعد معظمه قاصراً على مقدمات القصائد. أو أجزاء منها، كما كان الحال في شعر كثير من الجاهليين، بل تحولت القصيدة في هذا اللون إلى غزل صريح يتغنى فيه الشاعر بامرأة أو أكثر، وقد عرض الدكتور/ شوقي ضيف لهذا الموضوع بالتفصيل في كتابه (الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية).

وكان الشعر - في معظمه - غزليا ملائماً للغناء بأوزانه الخفيفة السهلة وصدقه وصراحته في التعبير عن العواطف الإنسانية.

وتفوق شعراء كثيرون في هذا الفن من أمثال عمر بن أبي ربيعة (٢٣هـ - ٩٣هـ) الذي أفرد ديوانه كله للحديث عن الحب والمحبين، وسيجد القارئ في موضع آخر بهذا الكتاب حديثاً متسعاً عنه[١].

---

(١) وكذلك في كتابنا (من روائع الأدب العربي - في العصرين الأموي والعباسي الأول) طبع دار الطباعة المحمدية عام ١٩٩١م.

الأحــوص[1] :

هو: (عبد الله بن محمد بن عاصم) من شعراء الغزل بالمدينة فى هذا العصر، ولم يتغزل فى الحرائر مثل عمر بن أبى ربيعة، وإنما اتجه بحديثه إلى الإماء، وفى امرأة تسمى أم جعفر، فهو بذلك يمثل ظاهرة جديدة فى الشعر العربى.

ولقب بالأحوص: لحوص كان فى عينه، وهو ضيق يعترى مؤخر العين. وينتسب إلى اسرة كريمة أبلت فى الإسلام أحسن البلاء، وكان شاعرا مجيدا سهل الكلام، فصيح القول، رقيق الغزل، وممن تحدث عنهن جميلة ذات الدار المشهورة وصاحبة مجالس الغناء المعهودة، وصدته فأقبل على جارية أخرى هى الذلفاء التى قال فيها:

إنما الذَّلْفَاءُ همِّى ∴ فليدعنى مَنْ يلُوم

أحسن الناس جميعا ∴ حين تمشى وتقوم

حبَّبَ الذلفاء عندى ∴ منطق منها رخيم

أصِلُ الحبلَ لترضى ∴ وهى للحبل صَرُوم

حُبها فى القلب داء ∴ مُسْتكِنٌّ لا يَرِيمُ[2]

وأحب سلامة القس وعبلة، وتغزل فى كثيرات، وقال:

إذا أنت لم تَعشق ولم تدر ما الهوى ∴ فكن حجرا من يابس الصخر جَلْمدا

---

(١) ولد الأحوص فى قباء بالمدينة حوالى ٤٠هـ وتوفى عام ١٠٥ هـ بدمشق .

(٢) الديوان ص: ١٩١ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، جمع وتحقيق عادل سليمان.

فما العيشُ إلا ما تلذُّ وتشتهى ٭٭ وإن لام فيه ذو الشَّنَان وفنَّدا(١)

أما البيت الذى لا يكاد يخلو منه كتاب فى النحو فهو قوله:

سلام الله يا مطر عليها ٭٭ وليس عليك يا مطر السلام

وكان الأحوص وزوجته قد نزلا على أختها (سلمى) فأكرمتهم، وكان زوجها ويسمى مطرا فى إبله، فلما رأه الأحوص ازدراه واقتحمته عينه وكان قبيحاً دميما، فقالت زوجته: قم إلى سلفك وسلم عليه، فقال وأشار إلى أخت زوجته بإصبعه (وذكر البيت السابق).

وذكر الأبيات الأخرى، وأشار إلى مطر بأصبعه، فوثب إليه مطر وبنوه، وكاد الأمر يتفاقم حتى حجز بينهم(٢).

ويقال إن الأحوص قد قال هذا الشعر فى امرأة كان يهواها؛ وتزوجت من رجل يسمى مطر، فغلب الأحوص على أمره، ومن الأبيات الأخرى قوله:

فإن يكنِ النكاحُ أحلَّ شيئا ٭٭ فإن نكاحَها مطرٌ حرامُ

وقوله:

فطلقها فلست لها بأهل ٭٭ وإلا شقَّ مَفْرِقَك الحسام(٣)

---

(١) الشنان: لغة فى الشنأن وهو البغض، فند: كذب وخطأ والبيتان بالديوان ص: ٩٨، ص: ٩٩.

(٢) انظر: الأغانى جـ١٥ ص: ٢٩٣.

(٣) الديوان ص١٩٠ وورد بكفء بدلاً من: بأهل، وإلا عض بدلاً من: وإلا شق.

وتتحول الأبيات برواية الأغاني من الغزل إلى الهجاء، فقد كان الأحوص من شعراء المدينة الذين لم يقصروا شعرهم على الغزل كابن أبي ربيعة، وإنما تجاوزه إلى مديح بني أمية وهجاء بعض الناس[1].

عبيد الله بن قيس الرقيات:

أما ثالث الشعراء في هذه البيئة فهو عبيد الله بن قيس الرقيات، الذي تغزل بأكثر من امرأة تسمى كل واحدة منهن (رقية)، ثم ترك الحجاز وشعر النسيب فيه، واتجه إلى الجزيرة (في العراق)، ليكون في معية عبد الله بن الزبير، ولسوف نلتقي بشعره السياسي في فصل آخر.

وقد كانت منطقة الحجاز بوديانها المنتشرة تموج بالعديد من الشعراء الذين يذهبون بأشعارهم مذاهب شتى في الغزل بالمرأة مثل قيس بن الملوح (مجنون ليلى) وقيس بن ذريح (قيس لبنى) والصمة القشيري الذي تعلق بابنة عم له، وكثير بن عبد الرحمن (كثير عزة) وجميل بن معمر الذي عرف (بجميل بثينة) الذي ولد في وادي القرى من شمال الحجاز وعلى مقربة من المدينة.

وهكذا كانت بيئة الحجاز تموج بالحب والغـزل والغنـاء وبقليـل من المدح والهجاء.

---

(١) لمراجعة الأحوص وشعره يمكن الاعتماد على بعض المؤلفات مثل الأغاني جـ٤ ص: ٢٢٤ والكامل للمبرد جـ٢ ص: ٢٦٢ وحديث الإربعاء للدكتور/ طه حسين جـ١ ص:٢٦٠ . والعمدة جـ١ ص٦٦، وتاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان، والشعر والغناء وتاريـخ الأدب العربي (العصـر الإسـلامي) لشـوقي ضيـف، وتاريخ الأدب العـربي لبروكلمـان جـ١ ص: ٢٩٧ وغيرها.

ثانياً: بيئة العراق:

إن بيئة الشعر في العراق تعد وثيقة الصلة بما في الجاهلية من عصبية وأحقاد؛ ذلك لأن الأمويين استعانوا في حكمهم بقبائل الشام اليمانية حتى يأمنوا لهم، وهذا ما أغضب القبائل العدنانية التي استقرت على حدود العراق أو اتخذت منه وطناً، وقد وجدت في العراق جماعات علوية ترى الهاشميين هم الأحق بالخلافة، ووجد أيضاً زبيريون يطلبون حقاً لقريش في قيادة الأمة، وظهر في ساحة العراق أيضاً شعراء يؤيدون الخوارج ويذهبون مذهبهم حيث أقام به ولاة أمويون، التف حولهم بعض الشعراء الذين يشيدون بهم، ويؤكدون لهم حقوق بني أمية في الخلافة، أي أن العراق يكاد يكون البلد الوحيد الذي التقى به الشعراء الحزبيون وخصومهم، وفضلاً عن ذلك فقد ظهر بعض فحول الشعراء الذين نبتوا في هذا المعترك أو تجمعوا حوله ووفدوا إليه، وتخص منهم جريراً والفرزدق والأخطل، وظهر في هذه البيئة فن شعري جديد أو متجدد هو النقائض الذي يعتمد على العصبية وبرز الفتن وإثارة الكراهية، وإحياء الأحقاد القديمة، ولهذا اللون ركنان أساسيان هما الفخر والهجاء، وإن لم يشارك الأخطل في هذا المعترك بالعراق بمثل مشاركة زميليه إذ كان مهموماً بما يجري على أرض الشام.

١ – النقائض:

النقائض: مجموعة من القصائد التي تدور بين شاعرين أو أكثر في التفاخر بالأحساب والأنساب والأيام العصيبة التي جرت أحداثها بين القبائل في الجاهلية أو بين الأحزاب في الإسلام، حيث يفتخر الشاعر بأمجاد

قبيلتـــه وزعماء قومه أو يتحدث بلسان قبيلة أخرى فيهجو الخصوم ويرميهم بالعيوب والنقائص.

وكان الصراع على أشده في هذ ه البيئة بين القبائل، فقد كانت الصراعات لا تنتهي بين قيس وتغلب وتميم وبكر وعشائرهما المتناثرة في نجد وبوادي الحجاز والعراق والشام، وكان بين قيس وتغلب تزاحم وقتال شديد في الجاهلية والإسلام، والتقت في البصرة والكوفة جماعات من قبائل شتى، واستجاب صوت الشعر لهذه الصراعات التي رضي بها بنو أمية في الشام، حيث كانت تغلب تميل إليهم وتقاتل في صفوفهم، أما قيس فكانت تناصر ابن الزبير ضد الأمويين، ووجد الشعراء في النقائض وسيلة أو حرفة يتكسبون بها وإلا فما الدافع للشاعر جرير بن عطية الخطفي وهو تميمي في أن يتحمس للإشادة بقيس وهجاء الاخطل غياث بن غوث (التغلبي) وتلك ظاهرة جديدة، وهي أن يتحدث شاعر عن قبيلة غير قبيلته، أما الفرزدق (همام بن غالب) فهو من تميم وهي قبيلة كبيرة ومن فروعها بنو مجاشع قوم الفرزدق، وكليب بن يربوع قوم جرير.

وكانت معارك النقائض عبارة عن مسرح للهو والتسلية أكثر مما يقصد منها إلى السباب والتخاصم، وما روي من أخبار جرير والفرزدق بصفة خاصة يدل على أن أكثر الشعراء الذين يخوضون في غمار هذه الصراعات كانوا إخوة متحابين متصافين، مثل الذي يحدث بين المتنافسين في الرياضة أو الصحافة. وقد دخل في هذا الصراع شعراء كثيرون لم يثبت منهم إلا جرير والفرزدق والأخطل، فالنقائض استعراض لأحداث التاريخ القديم والحديث، وتعبير عن

الصراعات القبلية خاصة بما بين القبائل القحطانية (الجنوبية) والعدنانية (الشمالية)، وتميل للصوت السياسى الذى تمزق بين بنى أمية وخصومهم، واستعراض لمهارات الشعراء، ومواهبهم اللغوية وثقافاتهم الدينية، ومذاهبهم وتوجهاتهم فى الفقه والفكر والحياة.

أ- نقائض جرير والأخطل:

جاء فى الأغانى ما يأتى: "اجتمع الفرزدق وجرير والأخطل عند بشر بن مروان، وكان بشر يغرى بين الشعراء، فقال للأخطل: احكم بين الفرزدق وجرير. فقال: اعفنى أيها الأمير. قال: احكم بينهما، فاستعفاه بجهده، فأبى إلا أن يقول، فقال: هذا حكم مشئوم؛ ثم قال: الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر فلم يرضى بذلك جرير، وكان سبب الهجاء بينهما، فقال جرير فى حكومته:

يا ذَا الغباوة إن بشرا قد قضى ∴ ألا تجوزَ حكومة النَّشْوان(١)
فدعوا الحكومةَ لستُمُ من أهلها ∴ إن الحكومة فى بنى شيبانِ(٢)

وقال الأخطل يفضل الفرزدق على جرير:

فى دارمٍ تاجُ الملوك وصهرُها ∴ أيام يربوع مع الرعيان
سبقوا أباك بكل مجمع تلْعةٍ ∴ بالمجد عند مواقف الركبان(٣)

---

(١) يا ذا الغباوة : يروى يا ذا العباءة ويقصد الأخطل.

(٢) الأغانى جـ٨ ص: ٣١٥.

(٣) دارم: رهط الفرزدق، التلعة: ما علا من الأرض، عند مواقف الركبان: أى عند المفاخرة والتحاكم (شرح الديوان ص: ٣٩٥).

وقال الأخطل قصيدة يمدح فيها عبد الملك بن مروان ويهجو جريرا وقيسا، وأولها:

خف القطينُ فراحوا منك أو بكروا ∴ وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ(١)

ويمدح بني أمية فيقول:

شُمْسُ العداوة حتى يُستقاد لهم ∴ وأعظمُ الناس أحلاما إذا قدروا(٢)

ويهجو فيها قيس عيلان وكلابا وكليب بن يربوع (قوم جرير) الذي نقض هذه القصيدة بواحدة له هجا فيها الأخطل وقومه، وعيرهم بهزائمهم وكفرهم وأكلهم الخنزير وامتدح القيسيين، وأولها:

قل للديار: سقى أطلالك المطرُ ∴ قد هجت شوقا وماذا تنفع الذِّكر(٣)

وفيهـا:

نسوانُ تغلب لا حلم ولا حسب ∴ ولا جمالٌ ولا دين ولا خفر

ما كان يرضى رسولُ الله دينهم ∴ والطيبانِ أبو بكر ولا عمر

جاء الرسول بدين الحق فانتكثُوا ∴ وهل يضيرُ رسولَ الله أن كفروا

وظل هذان الشاعران يتهاجيان ما يقرب من عشرين عاماً منذ سنة ٧٣هـ إلى أن توفي الأخطل في عام ٩٢هـ على أرجح الأقوال.

---

(١) ديوانه ص: ١٦٣ (نشر دار الثقافة بيروت).

(٢) شمس: جمع شموس وهو الصعب القياد، استقدت الأمر من القاتل فأقاد لي منه أي قتله.

(٣) الديوان بشرح إيليا الحاوي ص: ٣٠٨.

وكانت قصائد الشاعرين في هذا اللون طويلة، وتحتاج إلى ثقافة واسعة في تاريخ القبائل بالجاهلية فهي هجاء ومدح وتاريخ وثقافة، وسياسة وذات قيمة كبيرة قال، عنها الدكتور شوقي ضيف: "كانت نقائض جرير والأخطل من أهم المراجع لمن يرون درس تغلب وقيس ومن اتصل بهما من القبائل، فهي وثائق تاريخية، وقيمتها من هذه الناحية بعيدة الخطر"(١).

وهذه كلمة في حق الأخطل ذكرها الأصمعي ونقلها أبو الفرج إلى الأغاني وقال: " إنما أدرك جرير الأخطل وهو شيخ قد تحطم، وكان الأخطل أسن من جرير، وكان جرير يقول: أدركته وله ناب واحد، ولو أدركت له نابين لأكلني، قال: وكان أبو عمرو يقول: لو أدرك الأخطل يوما واحداً من الجاهلية ما فضلت عليه إحداً"(٢).

وقضى الفرزدق والأخطل بأن جريرا أسّير منهما شعرا، فقد اجتمعا، وشربا، وتناشدا، إلى أن قال الأخطل: "والله إنك وإياي لأشعر منه، ولكنه أوتي من سير الشعر مالم نؤته؛ قلت أنا بيتا ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه، قلت:

قَوْمٌ إذا اسْتَنبحَ الأضيافُ كلبَهُمُ ... قالوا لأمهمُ بُولي على النار

فلم يروه إلا حكماء أهل الشعر وقال هو:

والتغلبيُّ إذا تَنَحْنَحَ للقرى ... حك استَهُ وتمثّل الأمثالا

فلم تبق سُقاه ولا أمثالها إلا رَوَوْه، فقضيا له أنه أسْيرُ شعراً منهما"(٣).

---

(١) التطور والتجدد في الشعر الأموي ص: ١٧٢.

(٢) الأغاني جـ٨ ص: ٢٨٦.

(٣) الأغاني جـ٨ ص: ٣١٨.

ب- نقائض جرير والفرزدق:

يمكن للقارئ أن يقلب ديوانى هذين الشاعرين؛ ليستشعر صراعهما المرير وسباقهما المحموم، والنظارة يضحكون ويتسامرون فى شغف لمن يبلغ الغاية.

وهل يمكن لهذه الكلمة الموجزة أن تفعل فعلها معك، فتقتطعك ساعة من نهار أو سهرة من ليل، لتحيا هموم السياسة وصراع القبائل وأحداث التاريخ، وأشياء أخرى كثيرة تجرى فى سوقى المربد والكناسه بالبصرة؟!

ذلك لأن هذه النقائض (الأخيرة) تجرى بين شاعرين مسلمين من تميم، احتدم الصراع بينهما (مهما كانت بواعثه) لما يقرب من خمسة وأربعين عاماً، وكان العقل العربى قد تطور عما كان عليه فى حقبة سابقة اشتعلت فيها نار العداوة بين جرير والأخطل (النصرانى) وقد نشأت الخصومة بين الفرزدق وجرير فى مرحلة متقدمة من عمريهما لأسباب كثيرة، واختلفت الأهواء بينهما، وكان أكثر المشاركين فى هذا اللون يقفون إلى جوار الفرزدق الذى يدافع عن تميم التى تحلل منها جرير وقتاً طويلاً، ليدافع عن قيس، وأسهم ذلك فى تفوق الفرزدق من حيث المنزلة القبلية والمكانة الاجتماعية، وممن وقفوا إلى جواره من الشعراء (البعيث) وهو من مجاشع قوم الفرزدق وكذلك الراعى النميرى (القيسى) الذى تعرض لجرير بقوله:

يا صاحِبَىَّ دنا الأصيلُ فسيرا ∴ غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا

ومن القصائد المشهورة فى حلبة هذا الصراع قول الفرزدق فى أول القصيدة التى سماها " الفيصل":

إن الذى سمك السماء بنى لنا ∴ بيتا دعائمه أعز وأطولُ(١)

ورد عليه جرير بقصيدة (نقيضة) اختلفت فيها حركة الروى عن السابقة وأولها:

لمن الديارُ كأنها لم تُحلل ∴ بين الكناس وبين طلح الأعزلِ(٢)

وله نقيضه اخرى رد بها على الفرزدق وهجا راعى الإبل (النميرى) وسماها الدامغة أو الدماغة وبدأها بالغزل، وأولها:

أقِلّى اللومَ عاذلَ والعتابا ∴ وقُولى: إن أصبتُ لقد أصابا(٣)

وفيها البيت المشهور الذى توجه به إلى الراعى:

فغُضّ الطرف إنك من نُمير ∴ فلا كَعْبا بلغت ولا كِلابا(٤)

أن الحديث عن النقائض مليئ بالأخبار وذكر الأنساب وتناول الأعراض، وقد أسهم ذلك فى نمو الشعر وازدهاره فى بيئة العراق.

٢ ـ الشيعة :

تتلخص دعوة الشيعة فى أن عليا كرم الله وجهه أحق بالخلافة من غيره، فهو ابن عم الرسول (ﷺ)، وهو أولى من العباس بن عبد المطلب الذى

---

(١) ديوان الفرزدق جـ٢ ص: ١٥٥.

(٢) ديوان جرير ص: ٥٣٦.

(٣) ديوان جرير ص: ٨٩.

(٤) راجع (فجر الإسلام) لأحمد أمين ص: ٢٦٧ طبع النهضة المصرية.

لم ينازع عليا فى هذا الحق، وذكروا نصوصاً (مؤولة) أشار إليها ابن خلدون فى المقدمة تفيد بأن الرسول عين عليا خليفة بعده، وأن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى الأمة، ومن هنا نشأت فكرة الوصى، ونادوا بعصمة الأئمة، ورفعوا مقام على عن غيره من الصحابة، وفضلوه عليهم، وجعلوه أفضل الخلق بعد الرسول، وقد تولدت هذه الأفكار فى مرحلة مبكرة، وتجلت وارتفع صوتها بعد موقعة صفين، وما أعقبها من التحكيم حيث تاه الحق، وأهدر الدم، وتفرقت الكلمة، وتنوعت الفرق، وكثرت الملل والنحل والأهواء.

وقد قالوا بالمهدى المنتظر الذى يعود فيملأ الأرض عدلاً ونوراً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، وقالوا بالتقية، وهى وسيلة يتقون بها خصومهم، ونشأت بعض هذه الآراء فى مراحل تالية، وأعفى القارئ مما نادى به الغلاة المتشددون فلا شأن لنا بذلك (الآن) إذ يكفى القول بأن المعتدلين قد رفضوه فمن غير المعقول الاعتقاد بألوهية على، وأنه أخبر بما كان وما سيكون إلى يوم الدين. وأسهم هذا التردى فى الأفكار الهدامة فى تحول التشيع إلى مأوى لمن أراد الكيد للإسلام وطعنه تحت غطاء الشيعة وبادعاء الحب لبنى هاشم.

وكان ذلك إيذاناً باختلاف الكلمة ،وانقسام دعاة المذهب إلى فرق كثيرة أهمها الزيدية والإمامية والأثنا عشرية والجعفرية والكيسانية والإسماعيلية والباطنية وغيرها.

وتتفق الشيعة مع الخوارج فى أن خلفاء بنى أمية مغتصبون ظالمون، وقد كانوا يلعنون عليا فوق المنابر حتى أوقف ذلك عمر بن العزيز رضى الله عنه.

وكانت الزيدية أقل الفرق تشدداً، وهم الذين حصروا الإمامة فى أولاد فاطمة دون غيرهم، وكانوا يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل، ولهذا صححوا إمامة أبى بكر وعمر وعثمان، وتعد هذه المبادئ أكثر اعتدالاً بالنظر إلى آراء الفرق الأخرى.

وللشيعة مجموعة من الشعراء فى هذا العصر اتخذ أكثرهم من الكوفة محلاً لإقامته ومركزاً لنشاطاته، منهم الكميت بن زيد الأسـدى، وكثير بن عبد الرحمن وله أشعار فى رجعة الأئمة، وأبو الأسود الدؤلى، والسيد الحميرى، وأيمن بن خريم الأسدى، والنعمان بن بشير الأنصارى والنجاشى (قيس بن عمرو) وأبو الطفيل (عامر بن وائلة) وغيرهم.

ويعد الكميت بهاشمياته أشهر الشعراء الذى أخلصوا لهذا المذهب السياسى والعقدى والأدبى، فعاش حياته - (بالكوفة) - مخلصاً للشيعة، وللزيدية بخاصة، وتصدى للدفاع عن بنى هاشم والمطالبة بحقوقهم فى الخلافة التى اهتبلها بنو أمية.

وقد ولد فى عام (٦٠هـ) وفى زمن قتل الحسين بن على بكربلاء، وأفنى حياته كلها فى التشيع متغنياً بحب آل البيت، شارحاً قضيتهم، متعرضاً للأذى بسببهم إلى أن قتل عام (١٢٦هـ).

وكانت الكوفة معقلاً للشيعة وميدانا رحباً فسيحاً للأدب، وحاضرة من حواضر العلم والثقافة فى القرن الهجرى الأول، ونشأ بها هذا الشاعر الذى ألم بمعارف عصره، وبما فى الكوفة من فقه وحديث وتاريخ للقبائل والأنساب، وهكذا عاش حضرياً طوال حياته، واشتغل فيها معلماً للناشئه بمسجد الكوفة

والتقى بالفرزدق واتصل بالإمام (زيد بن على بن الحسين) وأقبل على فكر الشيعة، وتحمس لبنى هاشم، وله فيهم مجموعة من الأشعار عرفت بالهاشميات التى لا يكتفى فيها بمدح الهاشميين وإنما يقاوم بنى أميه ويهجوهم ويفند دعوتهم ويمارس معهم مبدأ الشيعة فى التقية، وربما امتدحهم تكسباً بشعر قاله ارتجالاً ولا يحفظ منه شيئاً.

وتعد القصيدة البائية أشهر الهاشميات ومطلعها:

طربتُ وما شوقًا إلى البيض أطربُ ∴ ولا لعبا منى وذو الشّيب يلعب

ومنهـا:

ولكنّ إلى الفضائل والنهى ∴ وخير بنى حواء والخيرُ يُطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم ∴ إلى الله فيما نالنى أتقرب
بنى هاشم رهطِ النبى فإننى ∴ بِهِمْ ولهم أرضى مرارا وأغضب

ومدح الرسول فقال:

ومالى إلا آل أحمدَ شيعةٌ ∴ ومالى إلا مذهبَ الحق مذهبُ

فالشيعة يمدحون بنى هاشم ويبكون قتلاهم، ويدافعون عنه، وينادون بحقوقهم، ويهجون بنى أمية، ويتمنون أن تسفك دماؤهم كما سفكت دماء آل البيت وبخاصة الحسين بن على الذى اعتقد بعض الشيعة أنهم قصروا فى الدفاع عنه وهم جماعة التوابين الذين لاموا أنفسهم على خذلاته، ولا زالت بقايا هذه الأحداث مترسبة فى أعماق الشيعة حتى اليوم.

٣ - الخـــــوارج :

كان الخوارج يسكنون الكوفة، ويقاتلون في جيش الإمام علي كرم الله وجهه ضد معاوية إلى أن كانت موقعة صفين، وقبل التحكيم فتبرؤا منه، وقالوا: "لا حكم إلا لله" وطالبوا بعزله، وتلا أحدهم في وجهه قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ "الزمر ٦٥" وذلك تعريضا به.

وخرجو إلى قرية حروراء، وسموا بالخوارج، أخذا من قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ "النساء ١٠٠" كما يسمون (الشراة) لقولهم شرينا أنفسنا أي (بعناها) في طاعة الله أخذاً من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ "البقرة ٢٠٧" وحاربهم الإمام علي في موقعة (النهروان) وقضى على الكثيرين منهم، ومن أمرائهم عبد الله بن وهب الراسبي، وقطري بن الفجاءة.

وقد بدأت دعوتهم سياسية، فنادوا بألا تكون الخلافة قاصرة على قريش، فيصح أن يكون الخليفة منها أو من غيرها ولو كان عبدا حبشياً، وصححوا خلافة أبي بكر وعمر وعثمان إلى أن غير وبدل، وقرب ذويه، كما حكموا بصحة خلافة علي إلى أن قبل التحكيم فأخطأ، وكان يجب عزله، كما طعنوا في أصحاب الجمل وكفروا أبا موسى الاشعري وعمرو بن العاص، فالخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، ولما تقدم بهم الزمن بدءوا في الحديث عن العقيدة، واتفق جمهورهم في أن العمل جزء من الإيمان واختلفوا فيما عدا ذلك،

قال أحمد أمين: "وأهم ما قرره الخوارج في ذلك أن العمل بأوامر الدين – من صلاة وصيام وصدق وعدل – جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، ثم لم يعمل بفرض الدين وارتكب الكبائر فهو كافر"[1] وهو رأي متشدد وبه تطرف وغلو في الأحكام التي أسست على التخفيف والتيسير.

وقال علي رضي الله عنه عن قولهم: "لا حكم إلا لله" كلمة حق يراد بها باطل، وكانوا يكرهون الشيعة وبني أمية.

وهم أتقياء، رفضوا الدنيا، وأقبلوا على الآخرة، واستعذبوا الموت في سبيل الله، غير آبهين للحياة.

وقد تقسموا إلى عدة فرق أشهرها الأزارقة وهم أتباع نافع بن الأزرق، والنجدات أتباع نجدة بن عامر، والأباضية نسبة إلى عبد الله بن إباض التميمي، والصفرية نسبة إلى زياد بن الأصفر، ومن شعرائهم فطري بن الفجاءة وهو خطيب أيضاً، وعمران بن حطان والطرماح بن حكيم وعيسى بن فاتك، وعمرو بن الحصين، وصالح بن عبد الله العبشي، وحبيب بن سهم وروح بن زنباع وأبو بلال مرادس بن أدية، ويزيد بن حبناء، وأم حكيم ومن أشهر خطبائهم أبو حمزة الشاري. ومن علمائهم في الأدب واللغة والعقيده أبو عبيدة معمر بن المثنى.

وقد قتل عبد الرحمن بن ملجم (الخارجي) علي بن طالب، فأشاد به عمران بن حطان قائلاً:

---

(١) فجر الإسلام ص: ٢٥٩.

يا ضربةً من تقى ما أراد بها ∴ إلا ليبلغَ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره حيناً فأحسبُه ∴ أوفى البرية عند الله ميزانا

وقلبها الفقيه الطبرى فقال:

يا ضربةً من شقى ما أراد بها ∴ إلا ليَهْدِمَ من ذى العرش بُنْيانا
إنى لأذكرُه يوماً فألعنُه ∴ إيهاً وألعن عِمْران بن حِطانا(١)

ويتميز شعر الخوارج بصدق العاطفة والحماسة المتأججة والأخلاص فى الدعوة، وأكثره مقطوعات صغيرة كأنه بلاغات ثورية، ويتميزون بالجرأة، فقد كان عمران يؤمن بمذهب الصفرية فى القعود وعدم المشاركة فى القتال، وطلبه الحجاج بن يوسف فلم يظهر له، فما كان من خارجى آخر شجاع هو شبيب الصفرى وزوجته (غزالة) أن هجما على الكوفة فى بعض أصحابهما فخاف الحجاج وتحصن بقصره، فكتب إليه عمران:

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ ∴ رَبْداء تنفر من صفير الصافر
هلا برزْتَ إلى غزالةَ فى الضحى ∴ بل كان قلبُك فى جناحَىْ طائر

وقد تحدث المبرد فى الكامل عن تاريخهم وفرقهم وأدبهم حديثاً طويلاً موسعاً كشأن القدماء فى التأليف.

إن هذه الفرق بمذاهبها المتشددة وقتال بعضها لبعض قد أحال العراق إلى مسرح سياسى كبير، وصراع دموى مرير، وحروب كلامية طويلة، لم يكن

---

(١) الكامل للمبرد جـ٣ ص: ١٦٩.

بنو أمية مغيبين عن هذه الساحة التى اريقت فيها دماء كثيرة فى مرحلة كان المسلمون أحوج إلى هذه الطاقات فى توجيهها شرقاً وغرباً من أجل المزيد من الفتوحات الإسلامية.

٤ – دعوة آل الزبير:

فرض عبد الله بن الزبير نفوذه على الحجاز حقبة زمنية بعد أن ثارت المدينة على يزيد بن معاوية وغلت فيها مراجل الثورة فأوقع بها وقعة شديدة، وعاقبها عقاباً مرا فى موقعة الحرة (عام ٦٣هـ) وقتل كثيراً من أهلها، ثم انتقل جيش بنى أمية إلى مكة حيث يوجد ابن الزبير وفرض يزيد حصارا حول البيت الحرام ولكن المنية لم تمهله فمات، وأنفك الحصار، واشتعلت الحروب، وعلا نجم ابن الزبير وبايعه أهل الحجاز ومصر والعراق واتجه مصعب إلى العراق، ليكون والياً عليها، ولحق به عبيد الله بن قيس الرقيات، مستشعراً عقيدة الزبيريين وحانقاً على بنى أمية، ولكن ذلك لم يستمر طويلا إذ انكسر جيش مصعب فى عام ٧١هـ وقتل فى أحداث دامية أخرى.

أما ابن قيس فكان صوتا جهورياً انتقل من مكة، وعاش فى رحاب مصعب، ومدحه، وأشاد به، ولسوف يجد القارئ صفحات أخرى من هذا الكتاب يتعرف فيها على شعره السياسى.

ثالثاً: بيئة الشـــــام:

كان الشام فى العصر الأموى هادئا مستقراً، ولم تعرف به اتجاهات شعرية معينة، ولم يقم إلى جوار الأمويين إلا من آمن بسياستهم، وسار فى ركابهم، فقد كانت القبائل بهذا الإقليم يمنية لا تصل فى إقبالها على الشعر إلى

ما وصلت إليه قبائل مضر، وإذا ما ظهر شاعر متميز فى هذه البيئة مثل عدى بن الرقاع العاملى فهو لا يرقى إلى الشعراء الآخرين من أمثال جرير والفرزدق أو إلى من دونهم فى المنزلة مثل ابن قيس الرقيات، ثم إن الشعر بالشام كان طارئا مع قيس أو بسبب الشعراء الذين وفدوا إلى البلاط الأموى، للمدح والعطاء ثم عادوا بجر الحقائب إلى أوطانهم بالحجاز أو العراق مثل الأحوص وكثير (عزة) وإسماعيل بن يسار وطريح الثقفى (وهم من الحجاز). ومثل جرير والفرزدق والأخطل وذو الرمة (من العراق).

وتمتد حبال الشعر فتصل إلى البيت الأموى، فقد أحبوا الشعر وطربوا له، وهتف بعضهم به مثل يزيد بن معاوية الذى كانت تستهويه هذه الملكة فنظم ما راق له من القصائد والمقطوعات، وأعلى الأصوات كان من الشعراء الوافدين، خاصة من أحب بنى امية أو تحالفت قبيلته معها وأقصد بذلك الأخطل الذى جعل معظم مديحه لبنى أمية وهجاء خصومهم، فقد هجا الأنصار مرة وهم معاوية بعقابه، ولكن يزيد دافع عنه وحماه، وقد كان كل ذلك فى قليل من الصخب والمناوشة التى لا تصل إلى ما كان يجرى فى العراق.

الفصل الثانى
شعر الغزل فى عصر بنى أمية

نهض الشعر العربى فى العصر الأموى بأدوار مستحدثة، لم يكن له شأن بها عند القدماء، فانتشر الشعر السياسى لدى مجموعة كبيرة من الشعراء الذين تفرقوا بين الأحزاب والطوائف المختلفة، من أمويين وشيعة وخوارج وزبيريين وغيرهم، وعاد الصراع القبلى الذى كان ذائعاً وحاداً فى الجاهلية، ثم خمد فى صدر الإسلام – عاد من جديد بين القبائل اليمنية والقبائل العدنانية، وعظم الاختلاف بين الشعر فى مكة والمدينة وبوادى الحجاز ونجد، عن الشعر الذى انتشر فى العراق ،حيث خضع الأول لكثير من التطور والتجديد، بينما غلب الاحتذاء والتقليد على الثانى.

ولقد ظهر فى البيئة الأولى شعراء متميزون مثل عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات وجميل بن معمر، بينما برز فى البيئة الثانية جرير والأخطل والفرزدق على غيرهم من الشعراء، ولم تكن حال الشعر فى الشام أو مصر كالتى كان عليها فى الحجاز والعراق، لأن أكثر من بالشام كانوا يمنيين يدينون بالولاء لبنى أمية، وكان الشعراء يفدون إليها لطلب العطايا، ويعودون منها بجر الحقائب، بينما بعدت مصر عن جزيرة العرب ومراكز الحكم والنفوذ، وإن نهض عبد العزيز بن مروان، فيها بإثراء الشعر ومساندة الشعراء فى زمن ولايته عليها.

وعندما نطالع صحائف الغزل فى عهد بنى أمية تتجه الأذهان ابتداء إلى بيئة الحجاز؛ لأنها تضم أهم الحواضر الثقافية آنذاك، وهى مكة والمدينة

والطائف، وقد عرفت هذه البيئة منذ العصر الجاهلي الاتصال عن طريق التجارة بأهل الأمم الأخرى، إذ لم يكن الحجاز مغلقا على نفسه وإنما كان منفتحا على حضارات الشعوب المجاورة، فأخذ منها، وتأثر بها، وازدادت حركة التأثر في العصر الإسلامي، خاصة وأن الفتوح الجديدة قد عادت لهم بخير وفير، عرفوا معه بناء القصور، وإنشاء المزارع، وارتداء الحلل والملابس الموشاة، كما تغيرت أشكال أطعمتهم وأواني شربهم وفرشهم وسائر أدوات حياتهم، ولم تتوقف مظاهر الثراء والترف عند هذا الحد، وإنما عرفوا الموالي وهم الرقيق الأجنبي، وكان بينهم من يحسن الغناء، ويجيد العزف والتطريب.

"وكل من يقرأ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يجده زاخراً بأسماء المغنيات والمغنيين من الموالي الذين عاشوا في مكة والمدينة، من مثل ابن سويج، وابن مسجح، وابن محرز ومثل طويس وسائب خائر، ونشيط، ومعبد، وسلامة القس، وحبابة، وغير هؤلاء كثير"(١).

واحتاج هؤلاء إلى شعر غزلي ذي طبائع خاصة، وازداد إعجاب أهل الحجاز بالغزل والغناء، وهم تحت ظلال حياتهم الجديدة بما فيها من ثراء وترف وفراغ.

وذكر ابن خلدون جانباً من تلك الحياة، فقال: "فلما جاءهم الترف، وغلب عليهم الرقة بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش، ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ، وافترق المغنون من الفرس والروم، فوقعوا إلى الحجاز

---

(١) التطور والتجديد في الشعر الأموي د/ شوقي ضيف ص: ٢٧، ٢٨، دار المعارف سنة ١٩٧٧م.

وصاروا موالى للعرب، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والزمامير، وسمع العرب تلحينهم للأصوات فلحنوا عليها أشعارهم"(١).

على أن تلك البيئة لم تتحول إلى ساحات عامة للملاهى والمنازه والغناء فقد عرف الكثيرون فيها العفة والطهارة والسمو والتنسك والعبادة النقية والسلوك الحميد.

أما الغزل فجاء مواكبا للغناء، ومن هنا، – كما يقول الدكتور شوقى ضيف– "كان أكثر الشعراء فى الحجاز لهذا العصر شعراء حب وغزل على نحو ما نعرف عند عمر بن أبى ربيعة والعرجى، وابن قيس الرقيات فى مكة، والأحوص فى المدينة، فقد ذهب شعرهم جميعا فى التغنى بقصة الحب وأحداثه ووقائعه، وعبروا فى ذلك عن رقة حس شديدة، وكاد شعرهم يتحول فى كثير من جوانبه إلى أنغام خالصة"(٢).

كان الغزل فى الحجاز من النوع المكشوف أو الصريح الذى يتغزل فيه الشاعر بأكثر من واحدة، ولا يتردد فى الحديث عن مغامراته وصبواته، ويصف جسد المرأة، وكل مظاهر الجمال الحسى فيها، وإن ظهرت العفة فى شعر الزاهدين والنساك، وبعض الشعراء الآخرين.

أما فى نجد وبوادى الحجاز فكان الأمر مختلفاً حيث شاع اللون العذرى العفيف، والذى لم يكن مألوفا، أو معروفاً من قبل، ومن شعرائه جميل بن معمر،

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣٨٨ ط/ دار الشعب.

(٢) التطور والتجديد ص: ٢٨، ٢٩.

وكثير بن عبد الرحمن وقيس بن ذريح، وقيس بن الملوح (مجنون ليلى)، والذى قال عنه البعض إنه شخصية خيالية لا وجود لها فى الواقع.

ولقد ظهر نوع ثالث وهو الغزل التقليدى الذى تغنى به الشعراء الآخرون فى العراق أو فى الشام، ولم يكن له الدوى الذى ارتفع فى الحجاز ونجد، واقتصر على مطالع القصائد غالبا، ولم يكن ذو الرمة من شعراء هذا اللون، فقد هتف بغزله، وتغنى بمحبوبته (مى) وعاش فى البادية، ووفد على البصرة والكوفة فى أوقات معدودة.

ومن الواضح لكل متابع لحركة الشعر الأموى أن صحائف الغزل، بشتى ضروبه، قد اتسعت، وتناولها الناس معجبين مقدرين، خاصة فى مدن الحجاز التى كانت تزخر بمجالس الغناء، ودخل أكثر الشعراء إلى عالم الشهرة بما لهم من شعر غزلى، وليس بما قالوه فى المدح أو الهجاء.

والذى لا شك فيه أن الإسلام قد طبع الغزل بطبائع جديدة لم يكن عليها فى الجاهلية، خاصة شعراء العفة من المتصوفة وبنى عذرة، فقد أضفوا نوعا من الحشمة والوقار على العلاقة بين الرجل والمرأة، وذكروا أن الوصول إليها – للشكوى من تباريح الهوى – صعب عسير. وقرأنا كثيرا فى دواوين الشعر الأموى نماذج عديدة من الغزل، يحتكم قائلوها فيها إلى الأفكار الإسلامية كالعفو والغفران، وطلب القصاص، وجريمة قتل النفس وما عداها.

ولقد هتف بالغزل فى هذا العصر شعراء كثيرون بالحجاز، وبرز فى المدينة الأحوص بن محمد، والسرى بن عبد الرحمن، والنعمان بن بشير، وعبد

الرحمن بن حسان، وتحدث الدكتور شوقي ضيف عن ملامح الغزل في المدينة (بخاصة) فقال "طبع هذا الغزل بطوابع غنائية قوية، إذ كان في حقيقته أغاني تصحب بالغناء والعزف على الآلات الموسيقية، ونستطيع أن نلاحظ هذه الطوابع في جوانب كثيرة من حيث الكم ومن حيث الكيف، ومن حيث الوزن، فأما من حيث الكم فهو في مجموعه مقطوعات لا قصائد طويلة، وهو من حيث الكيف لا يقف عند الأطلال إلا نادرا، إنما يقف عند حكاية الحب، وتحليل خواطر الشاعر إزاءه، أما من حيث الوزن فإن الشعراء مالوا – تحت تأثير الغناء– إلى الأوزان القصيرة والمجزوءة حتى يتيحوا للمغنيين والمغنيات أن يحملوا شعرهم ما يريدون من ألحان وأنغام جديدة"[١]، بينما برز في مكة عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات والعرجي، واتسم الغزل في المدينة بالحرية والصراحة، وببعض الفحش أحياناً والذي يختلف الناس في تحديده والحكم عليه، وأما الغزل العفيف في حواضر الحجاز عامة فقد اقتصر على ما قاله بعض الفقهاء والزهاد، قال شوقي ضيف: "وينبغي أن نلاحظ أن هذا الغزل الصريح عند الأحوص وعمر ونظرائهما كان يرافقه غزل عفيف عند الفقهاء والزهاد من أمثال عروة بن أذينة، وعبيد الله بن عتبة في المدينة، وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي في مكة، وغزلهم جميعا يمتاز بالنقاء والطهارة وسمو العاطفة"[٢].

---

(١) تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي ص١٤٤، دار المعارف ١٩٨١م، الطبعة التاسعة.

(٢) المرجع السابق ص: ١٤٨.

ويمكن أن يضم إلى شعراء الغزل العفيف شاعر منفرد من الطائف هو محمد بن عبد الله النميرى[١]، عاش فى الحضر وتغزل بلسان أهل البادية، وتعلق قلبه بامرأة واحدة هى زينب بنت يوسف (الثقفية).

ولقد تحدث عباس محمود العقاد عن اتساع الغزل فى العصر الأموى، فقال: "فاتسع ميدان الغزل حاضرا وباديا وظهر شعراء النسيب بنوعيه، تغنياً بامرأة واحدة كما يغلب على شعراء البادية أو تغنيا بالحسان جميعاً كما يغلب على شعراء الحاضرة، وتهيأ العصر لطائفه من شعراء المدرستين وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة يتغنى بحسان مكة وكل حسناء تقبل عليها، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبته بثينة، ويعيش ويقضى نحبه على هواها"[٢].

أولاً: الغزل الصريح فى بيئة الحجاز:

تحدثنا عن التلاؤم بين الغناء والشعر فى بيئة الحجاز، حيث انعكس ذلك على النسيب فجاء فى معظمه مقطوعات كثيرة، ومالت أوزانه إلى الخفة، فنظم الشعراء فى الرمل والسريع والخفيف والمتقارب والهزج والوافر، كما عدلوا إلى مجزوءات الأوزان الطويلة مثل الكامل والبسيط والرجز، بل لقد مالوا إلى تجزئة الأوزان الخفيفة من مثل الخفيف، والرمل والمتقارب"[٣]. هذا فى الغالب وإلا فقد نظم عمر بن أبى ربيعة فى الطويل كما فى قصيدته (أمن آل نعم) واتجه

---

(١) له ترجمة بكتابنا "شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام" ص: ١٤٨.

(٢) جميل بثينة للعقاد، ص: ٢٠ طبعة دار المعارف، الطبعة الثانية سنة ١٩٥٤م.

(٣) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى، ص: ٣٤٧.

شعر الغزل إلى الألفاظ العذبة السهلة التى تساير الواقع المعاش، وكأنهم ارتدوا عن ألفاظ الشعر الجاهلى التى لا تصلح للغناء.

وبرزت المرأة من خدرها، وغنت الجوارى فى الدور وأماكن النزهة، وخرجت النساء الشهيرات لطلب التغزل فيهن وحث الشعراء على ذكرهن فى القريض بحشمة ووقار وحرية لا تصل الى المجون الفاحش، وكن ينتقدن الشعر ويحفظن الكثير منه، كما قرضت المرأة الشعر ورددته على مسامع الرجال مثل ليلى الأخيلية. وتبوأ عمر بن أبى ربيعة مكان الريادة فى هذا اللون، وهو جدير بذلك، لتميزه عن أقرانه، وصدقه فى فنه، وتطويره لغزله فى الشكل والمضمون، ولذلك أطلق الدكتور شكرى فيصل على هذا التيار وصف (الغزل العمرى) قال: "والغزل العمرى تعبير عن طبقة متحررة منطلقة، تضع شهواتها وملاذها فوق كل شئ، وتلوب فى حياتها تنشد هذا الملاذ والشهوات .. إنها لم تنس نصيبها من الدنيا، ولكنما نسيت نصيبها من الآخرة ولم تبتغ الدار الآخرة، وإنما ابتغت الفساد فى الأرض ... طبقة من سادة قريش وغير قريش وشبابها، عادت إلى شئ من حياة، فيها غير قليل من بقايا الجاهلية، فغلب عليها الخمر والنساء، والإماء"(١).

ولا ينبغى أن نتحول بهذا الكلام إلى الدرجة التى تجعلنا نتصور مجموع الشباب فى المدينة ومكة على هذه الصورة، إذ أن صدر العبارة السابقة يخبر عن طبقة أو طائفة ليس غير، ويحمل العصر أشعارا للأحوص وابن قيس الرقيات والعرجى فيها كثير من الصراحة والمغامرة فى الواقع المتخيل إن لم يكن فى الواقع المعاش.

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، ص:٢٨١ الطبعة السادسة عام ١٩٨٢م دار العلم للملايين.

عمر بن أبى ربيعة(١)

عاش عمر بن أبى ربيعة حياته فى مكة منذ مولده إلى وفاته (٢٣هـ - ٩٣هـ) وهو من بنى مخزوم، ومن أسرة ذات ثراء وشرف ومجد، وكان وحيدا لأمه التى اعتنت بتربيته وتدليله وبخاصة بعد وفاة والده، وكان وسيما مترفا وغنيا متحضرا وغارقا فى اللهو والشعر والغناء، بعيداً عن الصراعات السياسية والقبلية.

عرضت المراجع القديمة لقليل من الأخبار الاجتماعية لهذا الشاعر المتميز، بينما أفاضت فى الحديث عن مجالسه وغرامه بالنساء المتميزات وولعه باللهو والغناء.

وأبدى الكثيرون آراء فى أحداث حياته وشعره قديما وحديثا، ولا خلاف على منزلته ومكانته فى الغزل، وتفرده بين شعراء عصره؛ لكن الذى ثار الجدل حوله، وأمعن الناس فى الاختلاف حوله هو سلوكه فى الحياة، وهل كان مطابقاً لما قال، أو أن حياته فى الواقع تختلف عن حياته مع الشعر، ثم ما هذه الكثرة من النساء ؟ وهل كان مجتمع مكة مطابقاً لما وصفه وتحدث عنه عمر. أو أنه كان مختلفا عن ذلك بكثير؟ ولسوف نعرض لشئ من ذلك فى صفحات تالية.

قيل فى حياته الاجتماعية إنه تزوج (كلثم بنت سعد المخزومية) التى ولدت له ابنه (جون) وولدا آخر، وماتت وهى فى عصمته، ولم يذكر رثاء فيها،

---

(١) راجع ما سطرناه عنه فى كتابنا "من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى الأول".

فلم يعرف غير الغزل، وكان (جوان) صالحاً معتدلا، وذكره العرجي في شعره قـــال:

شَهيدى جَوانٌ على حبها ... أليس بعدلٍ عليها جوانُ

وقيل: "إنه جاء إلى العرجي، فقال له: يا هذا، مالى ومالك تشهرني شعرك ؟ متى أشهدتني على صاحبتك هذه ؟ ومتى كنت أنا أشهد فى مثل هذا"[١]. ومما كتبه (عمر) وأرسله إلى (كلثم) مع جارية قوله:

مَنْ عاشق صبٍّ يُسِرُّ الهوى ... قد شفَّهُ الوجدُ إلى كَلْثَمِ
رأتك عيني فدعاني الهوى ... إليكِ للحَيْنِ ولم أعلم
قَتَلْتِنا يا حبذا أنتمُ ... في غير ما جُرْمٍ ولا مأثَمِ
واللهَ قد أنزل في وَحْيِه ... مُبَيِّنا في آيِهِ المُحْكَمِ
من يقتل النفس كذا ظالما ... ولم يُقِدْهَا نفسَه يظلم[٢]

وذكر أبو الفرج هذا الزواج مصحوباً ببعض المواقف القصصية على عادته في الإعجاب بذلك، وجاء في الأغاني أن عمر تزوج بامـرأة مـن بني جمح، وأنها ولدت له، وهي من مكة، وقد ارتحلت مع أبيها إلـى البصـرة هروبا من تشهير عمر لها، وتنويهه باسمها، وعاشت إلى أن مات أبوها، فباعت مالها، وعادت إلى مكة، ولقيها عمر، وتزوجها[٣]، وولدت له، وذكر أن لعمر

(١) الأغاني لأبي الفرج جـ١ ص: ٦٩، طبعة دار الكتب.
(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة ص: ٢٠٣، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٣) انظر الأغاني جـ١ ص: ٢٢١.

ابنة تسمى (أمة الحمد) أو (أمة الحميد)، أو (أمة المجيد) لم يولد مثلها في الحجاز حسنا.

وكنت قد ذكرت في موضع آخر[١] أن تلك المرأة هي بنت موسى الجمحية، ولعلي قد تأثرت في ذلك بكتابات للدكتور شوقي ضيف أو غيره، وبدا لي الآن أن هذا الربط غير صحيح فزينب بنت موسى – في ضوء ما يستنبط من الأخبار والروايات – من أهل المدينة بنيما امرأة بني جمح من مكة، وهذه قد ارتحلت إلى البصرة بالعراق وعادت منها، وعاشت في حياة زوجية مع عمر، بينما كانت زينب واحدة من نساء الحجاز اللاتي تعلق قلب عمر وشعره بها، ولم يتزوجها، واستعان بالرمز أحياناً في إخفاء اسمها الحقيقي، كما نهج ذلك النهج مع الثريا وهي المرأة الثانية التي أكثر من النسيب فيها.

ولم تسلم تلك الأخبار السابقة من التناقض، فقيل إن عمر لم يكن وحيد أمه وله أخوان هما: الحارث، وعبد الرحمن، وأن زواج عمر لم يسفر عن إنجاب، فلم يكن له عقب[٢]، وذلك شأن الأخبار والروايات القديمة.

لقد تغزل عمر في نساء كثيرات، منهن: زينب بنت موسى والثريا بنت علي، ومن شعره في زينب قوله:

تصابى القلبُ واذكرا ... صباه ولم يكن ظَهرا
لزينبَ إذ تُجِدُّ لنا ... صفاءً لم يَكُنْ كَدَرا
أليستْ بالتي قالتْ ... لمولاةٍ لها ظَهَرا

---

(١) في ترجمة له بكتابنا "من روائع الأدب العربي في العصرين الأموي والعباسي الأول".

(٢) راجع الشعر والشعراء جـ٢ ص: ٥٥٨، تحقيق: أحمد محمد شاكر – دار التراث العربي.

أشيري بالسلام له ∴ إذا هو نحونا نظرا[١]

وقال أيضا:

وهي أهل الصفاء والود مني ∴ وإليها الهوى فلا تعذلاني
لم تدع للنساء عندي نصيبا ∴ غير ما كنت مازحا بلساني[٢]

وكان ابن أبي عتيق[٣] قد أطراها،ووصف محاسنها لعمر، فشغله بها، وأماله إليها، فشبب بها، ولامه ابن أبي عتيق لأنها ابنة عمه، فقال عمر:

إنني اليوم عادني أحزاني ∴ وتذكرت ما مضى في زماني
وتذكرت ظبية أم رئم ∴ صدع القلب ذكرها فشجاني
لا تلمني عتيق حسبي الذي بي ∴ إن بي يا عتيق ما قد كفاني[٤]

ومواقفه وأشعاره مع زينب كثيرة، وتكشف عن مدى تعلقه بها وحبه لها. **أما الثريا بنت علي بن عبد الله** بن الحارث فأعجوبة من أعاجيب الجمال، كانت بديعة خصبة الجسم، وعاشقة ومعشوقة لعمر، وتكاد تجن حين تقف على بعض أخباره مع النساء، وهي من أهل المدينة، ولها منازل بالطائف، وتروى الشعر وتعجب به، وتتمثل بالجميل النادر منه، وهجرت عمر ذات مرة، فقال:

---

(١) الديوان ص: ١٠٠.

(٢) نفسه ص: ٢١٨.

(٣) ابن أبي عتيق: هو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق، وهو من أهل المدينة (الأغاني جـ١ ص: ٢٢٥).

(٤) الديوان ص: ٢١٩.

مَنْ رَسُولٌ إلى الثريا بأنِّي ∴ ضِقْتُ ذَرْعا بهجرها والكتابِ[١]

وبلغ ذلك ابن أبي عتيق فسعى للصلح بينهما، ووفق في مسعاه، وذكر عمر أن خبر زواجه كان نارا مستعرة في قلبها، قال:

خَبَّرُوها بأنني قد تزوجْـ ∴ ـت فظلَّتْ تكاتم الغيظ سرا
ثم قالت لأختها ولأخرى ∴ جَزَعاً ليته تزوَّج عَشْرا
وأشارت إلى نساءٍ لَدَيْها ∴ لا ترى دونَهُنَّ للسر سترا
ما لقلبي كأنه ليس مني ∴ وعظامي أخالُ فيهن فَتْرا
من حديثٍ نَمَى إليَّ فظيعٍ ∴ خلت في القلب من تلظّيه جمرا[٢]

وتحدث عن جمالها فقال:

لم تر العين للثريا شبيها ∴ بمَسِيلِ التِّلاع لمّا التقينا
أعْمَلَتْ طرفها إليَّ وقالت ∴ حَبَّ بالسائرين زَوْرا إلينا
ثم قالت لأختها قد ظَلَمْنا ∴ إنْ رَجَعْناه خائبا واعتدينا[٣]

وتزوجت سهيل بن عبد العزيز بن مروان[٤]، وذهبت معه إلى مصر، ثم انتقل بها إلى الشام، وكانت فائقة الحسن والجمال، بينما كان سهيل دميما قبيح المنظر وعرف عمر بزواجها فقال:

---

(١) الديوان ص: ٣٠.

(٢) نفسه ص: ١٠٧.

(٣) نفسه ص: ٢٢٥.

(٤) وقيل: إنه سهيل بن عبد الرحمن بن عوف.

أيها المُنكِحُ الثريا سُهَيْلاً ... عمرَكَ اللهَ كيف يلتقيان
هي شاميّةٌ إذا ما استقلت ... وسهيلٌ إذا استقلّ يماني(١)

كانت الثريا حافظة للشعر، وناقدة له، فقد روت للوليد بن عبد الملك شعرا لعمر، وقالت إنه كان عفيف الشعر.

فهؤلاءالنساء كن نبتا لبيئة ذات طبائع خاصة فيها الأمانة والعفة والنقاء، وفيها الشعر والترف والغناء.

المرأة هي الموضع الوحيد الذي شغل به عمر، وهو الذي يتناسب مع شخصيته وحياته، لم تكن امرأة واحدة، وإنما نساء كثيرات من بيت النبوة، ومن البيت الحاكم، ومن الأحزاب المعارضة في مكة والمدينة والشام والعراق واليمن، فتغزل في سكينة بنت الحسين، وعائشة بنت طلحة، ولبانه بنت عبد الله ابن عباس، وفاطمة بنت عبد الملك وفاطمة بنت محمد بن الأشعث، ورملة بنت عبد الله بن خلف، فضلا عن الثريا وزينب، وتغزل في سائر الحواج الجميلات، فكان يلقاهن في مكة أو يتعقبهن في المناسك، كما كان يخرج لانتظارهن قبل أن يدخلن مكة، ويشيد بكل امرأة ذات حسن يلقاها، ويضج ديوانه بأسماء أخرى، لعل بعضها رموز لمعشوقات أو نساء رغبن في إخفاء أسمائهن الحقيقية، مثل هند ونعم وليلى وذات الخال والرباب ورقية ورملة وأميمة وأسماء، وعبدة وعفراء وعثيمة وسليمى وغيرهن.

---

(١) الديوان ص: ٢٢٩.

ثم إن بعض الأسماء التى ذكرها كانت لجوار له، وخاصة من لازمته، أو اشتهرت بالغناء وحسن الصوت، مثل البغوم وأسماء.

ويلاحظ أن أكثر من تغزل فيهن كن من نساء الطبقة الراقية المترفة فى المجتمع، وصاحبات الحوا س النقدية فى تقبل الشعر وحفظه وروايته.

وقد تخصص عمر فى هذا الفن وأخلص له، ولم ينقطع عنه طوال حياته، وكانت له حظوة عند النساء لمعرفته أطر الحديث معهن، فكان يتغزل فيهن، ويفرط فى مدحهن وهن يحببن ذلك، ويتعلقن بما يقول، ومن شعره:

الا حيّ التى قامت ∴ على خَوْف تحيينا
فـفاضت عَبرة منها ∴ فكان الدمع يُبْكينا
لـئن شطت بها دار ∴ كَنُوحٍ بالهوى حينا
لقد كنا نُواتيها ∴ وقد كانت تُواتينا
فلا قربٌ لها يَشْفى ∴ وليس البعد يُسْلينا(١)

وقد تحدث القدماء والمحدثون عن حياة عمر، وتساءل الكثيرون عن سلوكه الذى ذكر فى شعره فهل فعل كل الذى قاله وادعاه ؟ أو أن ما ذكره لم يكن إلا جوانب متخلية لا أساس لها من الواقع، وإذا كان قد سلك منهجا ماجنا فى حياته وشعره، فهل تاب عن ذلك وأقلع عنه خاصة فى آخر حياته ؟

كان عمر صورة لجوانب بارزة فى مجتمعه فيها الشعر والغزل والغناء، وفيها المال والترف واللهو والفراغ.

---

(١) الديوان ص: ٢١٢.

وفى ضوء تلك الحقائق التى تجاوب معها (عمر) كان قريباً من المرأة المتحضرة، فتحدث معها واستمع إليها، وأنها كانت تحب ذلك منه بخاصة، ومن غيره أحياناً، وتعجب بالشعر وتحفظ منه ما يروق لها.

كان عمر شاعراً غزلا يصف كل ذلك، ويبالغ فى خياله، وتصوراته، ويروى كثيرا من المواقف التى يلهو بها، ويذكر بعض المقطوعات الشعرية لكى يغنيها الغريض، وابن مسجع وغيرهما، وأن ذلك الخيال يطول ويمتد به، وهو يحس التعبير عنه، فيظن القارئ أو السامع أن ما بين يديه حقيقة واقعة لا مراء فيها، وهو ليس إلا مجموعة من الوقائع المتخيلة التى خطها عمر كغيره من الشعراءالذين يقولون ما لا يفعلون، وكان فى الوقت نفسه لاهيا، وكان صريحا مندفعا، وعابثا مستهترا، لا شك فى ذلك - ويكفينا من عبثه ولهوه أن يذيع غزله الذى بين أيدينا، وينشره على الناس ويقدمه لساحة الغناء، وتتناقله الأجيال.

ومن الجائز - كما جاء فى الروايات - أنه تاب فى شيخوخته، وندم على ما قاله فى شبابه، أو لعله أقلع عنه، وانصرف إلى حياة ليس فيها الشعر المكشوف، الذى تغنى به المغنون، ولا ينبغى أن نستسلم لكل القصص الذى ذكره أبو الفرج فى الأغانى، والذى يتجاوز ما يمكن أن نفهمه من شعر عمر، بل إن أبا الفرج أكد على رفضه لبعض هذه الأخبار، فقد روى واحدا منها عن زواج الثريا بسهيل فى غيبة عمر، وبعد أن ذكره قال: "وهذا الخبر عندى مصنوع، وشعره مضعف، يدل على ذلك، ولكنى ذكرته كما وقع لى"(١).

---

(١) الأغانى جـ١ ص: ٣٢٦.

ويترتب على كل ما تقدم الاضطراب وعدم الاتفاق فى بعض الأمور، وكما أشرنا إلى ذلك فى أول هذا الموضوع، ثم نقرأ اعترافاً لعمر بفعل كل ما قاله فى خبر ذكره أبو الفرج لأحد الرواة، قال: "إنى لأطوف بالبيت فإذا أنا بشيخ فى الطواف فقيل لى: هذا عمر بن أبى ربيعة، فقبضت على يده، وقلت له: يا ابن أبى ربيعة، فقال: ما تشاء ؟ قلت: أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ قال لا: إليك عنى، قلت أسألك بالله قال: نعم واستغفر الله"(١).

وذكر صاحب الأغانى عن أحد الرواة، قال: "عاش عمر بن أبى ربعية ثمانين سنة فتك منها أربعين سنة، ونسك أربعين سنة"(٢).

وجاء بالأغانى أيضاً أنه كان عفيفا يصف ولا يقف ويحوم ولا يرد"(٣). وأن الوليد بن عبد الملك عندما حج فى إحدى السنين، وجلس فى ظهر الكعبة قال لعمر: "أنشدنى شيئا من شعرك، فقال: يا أمير المؤمنين: أنا شيخ كبير، وقد تركت الشعر،ولى غلامان وهما عندى بمنزلة الولد وهما يرويان كل ما قلت،وهما لك، قال: ائتنى بهما، ففعل، فأنشداه قوله:

أمن آل نعمٍ أنت غادٍ فمبكر

فطرب الوليد، واهتز لذلك، فلم يزالا ينشدانه، حتى قام، فأجزل صلته ورد الغلامين إليه"(٤).

---

(١) الأغانى جـ١ ص: ٧٥.

(٢) نفسه جـ١ ص: ٧٧.

(٣) نفسه جـ١ ص: ١١٩.

(٤) نفسه جـ١ ص: ١١٩.

والرائيـــة التى منهــا الشــطر السابق ذات دوى هائل فى عصـر عمر، فـقد تحدث عنها الرواة، وأشاد بهـا عبد اللــه بـن عبــاس، ولننقـل واحدة من تلك الروايات:

"بينا ابن عباس فى المسجد الحرام، وعنده نافع بن الأزرق، وناس من الخوارج يسألونه إذ أقبل عمر بن أبى ربيعة فى ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين حتى دخل وجلس فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا، فأنشده:

أمـن آل نـعـم أنـت غـادٍ فـمُـبْـكـر ... غـداة غـد أم رائـح فـمـهـجِّـر

حتـى أتـى على آخرها، فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: الله يا ابن عباس! إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصى البلاد نسألك عن الحلال والحرام فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفى قريش فينشدك:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فـيَـخْـزَى وأمـا بـالـعـشـى فـيـخـسَـرُ

فقال: ليس هكذا. قال، قال: فكيف قال؟ فقال: قال:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فـيـضـحـى وأمـا بـالـعـشـى فـيَـخْـصَـرُ

فقال: ما أراك إلا وقد حفظــت البيــت، قــال: أجـل! وإن شـئت أن أنشدك القصيدة أنشـدتك إياهـــا، قال: فإنى أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها"[1].

(١) الأغانى جـ١ ص: ٧٢.

فلم يكن واقع عمر مطابقاً لما قاله أو تخيله فى شعره، ثم كيف يكون فاحشاً ماجنا فاسقا بالصورة التى نقلتها بعض الأقاصيص ويتغزل فى بنات الصحابة ونسائهم، ويقفون صامتين لا يحركون ألسنتهم وأيديهم لمواجهته ؟ فإذا كان الرجل قد أسرف في القول فقد اقتصد في الفعل.

خصائص غـزله :

١ – الصدق الفنى:

تحدثنا فى الصفحات السابقة عن انقطاع عمر للغزل، وإفراد ديوانه كله لهذا الفن، وذكرنا أكثر من تغزل فيهن من النساء المقيمات فى مكة أو البعيدات عنها، أو القادمات للحج والعمرة قال:

ولما التقينا بالثَّنِيَّةِ أومضت ∴ مخافةَ عينِ الكاشح المتنمِّ
أشارت بطرف العين خيفة أهلها ∴ إشارة محزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحبًا ∴ وأهلا وسهلا بالحبيب المتيم(١)

وقـــال:

إنى امرؤٌ مولَع بالحسن أتبَعُهُ ∴ لاحظَّ لى فيْهِ إلا لذةُ النظر(٢)

فهو يبحث عن الجمال، ويتحدث عنه، وليس له منه إلا لذة النظر وفرحة اللقاء، والصدق الفنى فى شعره، هو الصدق فى التعبير عما يتخليه ويتصوره ويهواه، سواء أجاء ذلك مطابقاً للواقع المحسوس أم لم يجئ، فهو صادق فى عواطفه ومشاعره.

---

(١) الديوان ص: ١٨٠.　　(٢) نفسه ص: ١٠٩.

وقد تحدث العقاد عن قضية الصدق الفنى فى شعر عمر، وعرض للصدق من الناحيتين التاريخية والخلقية، أما الصدق من الوجهة الفنية فهو "صدق الشعور الذى يعبر عنه، وصدور ذلك الشعور منه عن مزاج أصيل لا تكليف فيه ولا اختلاف"(١). وذكر فى الموضوع نفسه أنه يستطيع أن يؤمن بصدق الشاعر فى فنه دون أن يكلفه صحة الواقعة وصحة الصناعة.

وفى ضوء ما تقدم، ليس هناك ثمة تعارض بين كثرة النساء اللاتى تغزل فيهن، وصدقه فنيا، فقد كان صادقا فى شعره وخياله وتعبيره، وإن لم تتطابق تماما مع أخلاقه وتاريخه وواقعه، ومع ذلك فقد عبر غزله عن إعجابه بنفسه، افتنان النساء به، وتطلبهن له، وسعيهن اليه، قال:

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى ... فأعْرَضْنَ عنى بالخدود النواضر
وكن إذا أبصرْنَنى أو سَمِعْنَنى ... سعين فرقّعْنَ الكُوَى بالمَحاجر(٢)

وقال:

قلن: تَعْرِفْنَ الفتى؟ قلن: نعم ... قد عرفناه، وهل يخفى القمر؟(٣)

وقد كانت هذه الطبيعة متأصلة فيه، بسبب ما كان يحظى به من مال وجمال، وفراغ، ساعدته كلها فى أن يصدق مع نفسه، وأن يعجب بها، ويعبر عنها.

---

(١) شاعر الغزل (من مجموعة أعلام الشعر) ص: ٦٤.
(٢) الديوان ص: ١٠٩.
(٣) نفسه: ٩٠.

٢ – تصويره لجانب من المجتمع:

- لا شك في أن مجتمع الحجاز قد انتقل في ظل الإسلام نقلة كبيرة، تجاوزت تلك الحياة التى كان يحياها الجاهليون بما فيها من حياة أدبية وعيشة اجتماعية تجوب فيها الفنون الشعرية المختلفة، لكن الحياة الجديدة التى عاشها عمر، وما فيها من ترف وغناء انعكست على الشعر فتحول معظمه إلى الغزل، وخاطب عمر نساء الطبقة والتى ينتمى إليها ورصد مجالسها وأوقات سمرها ولهوها، وذكر النعيم الذى ترفل فيه، قال:

بعيدةُ مَهْوى القُرْط، إما لنوفل ∴ أبوها وإما عبدُ شمس وهاشمُ
ومدّ عليها السجفَ يوم لقيتُها ∴ على عَجَلٍ تُبّاعُها والخوادمُ(١)

استمر عمر في غزله، فصور البيئة التى عاش فيها، ورصد التحول الذى طرأ على المجتمع الحجازى، ولم ينظم فى الهجاء والفخر، كما كان الحال عند شعراء العراق، ولم يجر خلف السياسة فى الشام أو العراق، وإنما مارس التعبير عن لهو للشريحة الاجتماعية التى يمثلها، ويتحدث بلسانها، ولهذا كان غزله مختلفا اختلافا كثيراً عن شعراء عصره حتى عن بعض الذين عاشوا فى دائرته مثل: ابن قيس الرقيات والعوجى، فعمر شاعر متفرد فى الغزل، أجاد التعبير فى حرية وصدق عن طبقة خاصة فى مجتمعه من خلال نسائها اللائى خرجن من خدورهن سعيا إلى مجالس الغزل والغناء ورضين بأكثر ما قيل، غضبن من بعض الشعر غضبا هادئا لا يلبث إلا أن يتوارى فى ذاكرة التاريخ.

---

(١) الديوان ص: ١٨١.

٣- بناء القصيدة العمرية:

اختلف شكل القصيدة أو المقطوعة عند عمر، عما كانت عليه عند القدماء فنرى أكثر المطالع خالية من البدايات التقليدية التي قرأناها عند الجاهليين، أما عمر فقد قال:

أرسلتْ تعتبُ الربابُ وقالت ∴ قد أتانا ما قُلْتَ في الإنشاد
قلتُ لا تغضبي فِدًى لكِ قَوْلي ∴ بلساني وما يُجنُّ فؤادي(١)

وقـــال:

لقد أرسلت في السر ليلى تلومُني ∴ وتَزْعُمُني ذا ملةٍ طَرِفًا جَلْدا
تقول: لقد أخلفْتنا ما وعدْتنا ∴ وبالله ما أخلفتُها طائعاً وَعْدا
فقلت مَروعا للرسول الذي أتى ∴ تَراه لك الويلاتُ من أمرها جِدًّا
اذا جئتَها فاقْرَ السلام وقل لها ∴ ذَرِي الجور لَيْلَى واسلكي منهجا قَصْدا(٢)

وقـــال:

ليت هِندا أنجزتْنا ما تَعِدْ ∴ وشَفَتْ أنفسنا مما تَجِد
واستبدتْ مرة واحدة ∴ إنما العاجز من لا يستبد(٣)

---

(١) الديوان ص: ٥٠.
(٢) نفسه ص: ٥١.
(٣) نفسه ص: ٥٣.

وليس المقصود هنا بيان الحوار في المطالع المذكورة بقدر ما نهدف الى التأكيد على تميز عمر في مطالعه وأن البداية عنده تختلف عن سابقيه وعن معاصريه أيضا، وأن بعض البدايات كانت تتجه أحياناً إلى الأطلال والرسوم والرحلة إلى المرأة لكن ذلك لم يكن يتجاوز بيتين أو ثلاثة على أكثر تقدير، وهي بدايات تختلف في صياغتها وحبكتها عن المطالع المألوفة عند الآخرين.

قـــال:

أفـي رسـم دار دارسٍ أنـتَ واقـفُ ٭٭ بقاعٍ تعفّيه الرياحُ العواصفُ(١)

وقـــال:

يا صاحبيَّ قِفا نستخبر الطللا ٭٭ عن بعض مَنْ حلَّهُ بالأمس ما فعَلا

فقال لي الربعُ لما وقفتُ به ٭٭ إن الخليطَ أجد البينَ فاحتملا(٢)

أو يذكر الرحلة إلى ديار المحبوبة، فقال في بداية بعض القصائد:

أمن آل نعم أنت غادٍ فمبكر ٭٭ غداة غد أم رائحٌ فمهجر(٣)

أو يذكر يوم الفراق أو يوم الوداع وما يجلبه عليه من مشقة وألم وشدة وجد، وكثرة بكاء، قـــال:

كدت يوم الرحيل أقضي حياتي ٭٭ ليتني مِتُّ قبل يوم الرحيل

---

(١) السابق ص: ١٣٣.

(٢) نفســه ص: ١٦٥.

(٣) نفســه ص: ٦٤.

لا أُطيق الكلام من شدة الوجـ ... ـد، ودمعي يَسيلُ كل مَسيل
ذَرَفَتْ عينُها، وفاضت دموعي ... وكِلانا يَلْقَى بلُبٍّ أصيل(١)

أو يتحدث عن الهوى والتصابي والأرق والهجر وطيف الخيال والشكوى والعتاب، كما يعرض لحديث النساء عنه ورغبتهن في ملاقاته من خلال الرسائل اللائي يحملنها لرسل الحب والعشق والغرام.

وفي هيكل القصيدة ينثني إلى وصف المرأة وإبراز النعيم الذي ترفل فيه، أو يتحدث عن أوقات التلاقي وما يدور فيها، وربما عرض لما يقوم به من مغامرات ليلية، أو ينقل جانبا من حديث النساء عنه، وعشقهن له، وشكايتهن منه، وقبولهن لاعتذاره.

وينقل شاعرنا حبه ومواعيد لقائه بالنساء من خلال رسل منه إليهن، كما يتلقى رسائل من محبوباته فيبدو على الصورة التي ذكرت له في صفحات سابقة.

٤ – الخفة في الأسلوب والحوار:

يتميز شعر عمر بخفة ألفاظه وسهولتها، وبقرب لغته من سائر الناس، وبعدها عن الإغراب الذي نراه في شعر الجاهليين أو عند بعض شعراء العراق مثل الفرزدق، والأخطل، فابن ربيعة قد هجر في غزله أساليب القدماء، ومارس الكتابة بلغة قريبة من لغة الحياة اليومية ا لسليمة في عصره، ومن هنا كان غزله ملائما للأذواق المتحضرة التي استوطنت الحجاز في القرن الأول من الهجرة.

---

(١) السابق ص: ١٥٥.

ولا شك فى أن بعض الدواعى الهامة كان لها دور مؤثر فى تحريك أسلوب عمر إلى ذلك التبسيط اللغوى بما فيه من خفة فى اللفظ، وسهولة فى التراكيب، ولعل صدقه الفنى أو تجربته الواقعية قد لونت صوره وأخيلته بما فيها من تشابيه واستعارات بألوان زاهية من الحياة الجديدة التى عاشها أهل مكة بخاصة، فهو واقعى فى حبه وعشقه ودورانه حول المرأة، وحضوره لمجالس الغناء، ونظراً لقرب شعره من لغة الحياة اليومية – أو بمعنى آخر – من لغة النثر، تراه قد شاع بين أهل زمانه، وتغنى به العشاق وأهل الطرب والغناء.

ولقد وصف بعض القدماء هذا الشعر بأنه (الفستق المقشر)، ثم إن هذا الشعر – بخفته وسهولة ألفاظه وتراكيبه – يتناسب مع الجانب القصصى الذى برز فيه بدرجة كبيرة ويتضح فيه الحوار السهل، ويبرز بين عدة شخوص أغلبها من النساء وأقلها من الرسل الذين كانوا يتناقلون بالأخبار بين عمر وصديقاته.

فالأسلوب سهل قريب المأخذ، صالح للغناء، مبنى على الحوار الذى يبرز فى القصة الشعرية بما فيها من مواقف درامية ذات أطراف متعددة.

ومن شعره الذى غناه ابن سريج، وذكره أبو الفرج بالأغانى:

لقد أرسلْتُ جاريتى ∴ وقلت لها خُذى حَذَرَكْ
وقولى فى مُلاطفة ∴ لزينبَ نوِّلى عُمَرَكْ
فإن داويتِ ذا سقم ∴ فأخزَى اللهُ مَنْ كَفَرَكْ
فهزت رأسها عجبا ∴ وقالت من بِذا أمرك
أهذا سِحْرُك النسوا ∴ نَ قد خَبَّرْنَنِى خَبَرَكْ

وقلـــن إذا قـــضـــى وطـــرا ٠٠ وأدرك حـــاجـــة هـــجـــرك(١)

وقد طرأ تغيير على هذه الأبيات عما ذكرت عليه في الديوان، لتتناسب مع الغناء أو الصوت الذي غنيت به، حيث كانت السهولة أو القصة الحوارية لازمتين لشدو ابن سريج وزملائه، كما أن الأبيات من مجزوء الوافر، مما أسهم في صلاحيتها للغناء.

والملاحظ أن الأشعار المختارة للغناء، والتي جاء الكثير منها في كتاب أبي الفرج من الأوزان الخفيفة، وأغلبها من الهزج والوافر والمتقارب والرمل والسريع والخفيف، أو من مجزوءاتها، والتغيير الذي طرأ على الغزل العمري – بالنسبة إلى سابقيه وبعض معاصريه – في نطاق الأوزان يتمثل في اختيار تلك البحور، وتجزئتها على نحو يتلاءم مع الخفة المطلوبة للغناء.

ونلاحظ أن قدرا محدودا من القصائد والمقطعات قد جاء من البحور الطويلة والأوزان التامة، فمن الأصوات التي غنيت من البحر الطويل قوله:

لعمرك ما جاورت غُمْدانَ طائعا ٠٠ وقَصْرَ شَعُوبٍ أن أكونَ به صَبّ(٢)

وقولـــه:

ألـــم تسألِ الأطلالَ والمنزلَ الخَلَق ٠٠ بِبُرقة ذى ضالٍ فيخبرَ إنْ نَطَقْ(٣)

---

(١) الأغاني جـ١ ص: ١٤٠.

(٢) السابق جـ١ ص: ١٣٦.

(٣) نفسه جـ١ ص: ١٧٧.

ومن البحر البسيط قوله:

قالت على رِقْبَةٍ يوماً لجارتها ... ما تأمرين، فإن القلب قد تبلا[١]

فالحكم على اختيار عمر للأوزان الخفيفة والمجزوءات للأبحر المذكورة ليس شاملا، فالشعر عاطفة وإلهام ومقدرة على الصياغة وليس قانونا، أو صنعة مجردة.

وقد استمعنا في العصر الحاضر لمجموعة من القصائد القديمة والحديثة التي دخلت ساحة الغناء العربي وهي من الأوزان الطويلة.

وكان (عمر) يمتاح من معين امرئ القيس وغيره من الجاهليين، ويغمس ريشته الواقع الأدبي الذي عاشه، وتجاوب معه بدرجة كبيرة.

آراء القدماء والمحدثين في شعره:

عرض كثير من القدماء لشعر عمر، وفي مقدمتهم (ابن قتيبة) في الشعر والشعراء، و (أبو الفرج) في الأغاني، وجاء معظم هذا العرض في صورة روايات وأخبار وأقاصيص عن حياة عمر وغزله، ثم إن بعض هذه الأخبار قد حذرت من شعره وسوء أخلاقه، ونسبت بعض ذلك لشيخ من قريش حيث قال: "لا ترووا نساءكم شعر عمر بن أبي ربيعة، ولا يتورطن في الزنا تورطا"[٢]، والبعض يناديه بالفاسق[٣]، أو يدعو عليه باللعنة[٤] وما شابه ذلك.

---

(١) نفسه جـ١ ص: ١٣٩.

(٢) الأغاني جـ١ ص: ١٤١.

(٣) انظر الأغاني جـ١ ص٢٠٠، والشعر والشعراء جـ٢ ص٥٦١.

(٤) انظر: الشعر والشعراء جـ٢ ص: ٥٦٢.

وممن أشادوا بشعره من القدماء: عبد الله بن عباس فقد روى عن هشام ابن الكلبي:" أن عمر بن أبي ربيعة أتى عبد الله بن عباس وهو في المسجد الحرام، فقال: متعني الله بك! إن نفسي قد تأقت إلى قول الشعر، ونازعتني إليه، وقد قلت منه شيئا أحببت أن تسمعه وتستره علي، فقال: أنشدني، فأنشده:

أمِنْ آل نعم أنت غاد فمبكر

فقال له: أنت شاعر يا ابن أخي، فقل ما شئت"(١).

وسبق أن ذكرنا خبرا أبدى ابن عباس إعجابه بهذه الرائية وحفظه لها، لقد كان شعر عمر محل إعجاب لكثير من أهل الحجاز لخصائصه المعروفة، ولأنه كان تجديدا وتطويرا للغزل القديم.

أما الفرزدق وهو واحد من فحول الشعراء في العراق فكان مغرما ومقدرا لشعر عمر، ولنقرأ ما يأتي: "سمع الفرزدق شيئا من نسيب عمر، فقال: هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته، وبكت الديار، ووقع هذا عليه"(٢). أي أن العرب كانت تسعى لرقة النسيب وخفة الألفاظ، وتجاوز المطالع التي يكثر فيها البكاء على الديار، فلم توفق حتى جاء عمر، فجدد في الغزل وأضاف إليه رونقا وسمتا وتحضراً وخفة وتخصصا لم يقف القدماء عليها.

وقد التقى الفرزدق بعمر بن أبي ربيعة في المدينة، واستمع إليه، وهو ينشد قصيدته التي يقول فيها:

فلما التقينا واطمأنت بنا النَّوَى ∴ وغُيِّب عنا من نخافُ ونُشْفق

---

(١) الأغاني جـ١ ص: ٨١.

(٢) نفسه: ٧٥.

ولما انتهى إلى أبيات منها، صاح الفرزدق قائلا: "أنت والله يا أبا الخطاب أغزل الناس، لا يحسن – والله – الشعراء أن يقولوا مثل هذا النسيب ولا أن يرقوا مثل هذه الرقة، وودعه وانصرف"(١).

أما جرير، فقد أشاد بغزل عمر، وامتدحه بمجموعة من الأقوال منها ما ذكره عبد الله بن سلمة، إذ قال: "لقيت جريرا فقلت له: يا أبا حرزة، إن شعرك رفع إلى المدينة، وأنا أحب أن تسمعني منه شيئا، فقال: إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب، وإن أنسب الناس المخزومي، يعني ابن أبي ربيعة"(٢). وأنشد جرير أبياتا من رائية عمر "أمن آل نعم أنت غاد فمبكر" فقال: "ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر"(٣)، أي أن أبيات القصيدة المذكورة هي الشعر الذي يرضى عنه، ويستمع اليه، ويعجب به.

وأنشد جرير أيضاً أبياتا لعمر، فقال:" إن هذا الذي كنا ندور عليه فأخطأناه، وأصابه هذا القرشي"(٤).

ولا يختلف ما قاله جرير عما قاله الفرزدق في الإعجاب بنسب عمر الذي وصل بالغزل إلى مستوى لم يصل إليه سواه.

وأما مصعب بن عبد الله الزبيري، فقد امتدح عمر، وقرظ شعره، وذكر منه أمثلة للعديد من المعاني، وكلامه بالأغاني فليرجع إليه من شاء، وإن شك في روايته بعض المعاصرين، ونص على ذلك الدكتور زكي مبارك في كتابه

(١) الأغاني جـ١ ص: ١٤٩.
(٢) نفسه ص: ٧٦.
(٣) نفسه ص: ٨٢.
(٤) نفسه ص: ١٠٦.

(حب ابن أبي ربيعة وشعره)، ونختتم أقوال القدماء بما وصف به حماد الرواية شعر عمر، حيث قال: "ذاك الفستق المقشر"(١).

أما المحدثون، فقد أعطوا عمر وشعره عناية فائقة، فكتب عنه كارل بروكلمان فصلا في كتابه (تاريخ الأدب العربي) ومما قاله عنه: "... كان رجلا حرا، يتذوق الحياة ويرتضعها أفاويق حافلة كاملة ثم يفيض بالأحاسيس التي يوقظها في نفسه تبدل ألوان مغامراته غناء وقصيدا، وقصائده قوية الحياة، غنية التعبير، فلا شك أن أكثرها صدر عن تجارب حقيقية، وإن أضاف القصص أشياء إليها"(٢).

ولن نشغل هذه الصحائف بما وقع فيه بروكلمان من تضارب عن حياة عمر من ولادته إلى وفاته، ولا نعرف سببا لذلك إلا أن يكون التشكيك وبعث الاضطراب في سجل أحد الرواد في تاريخ الغزل العربي ... وإن الذي يعنينا حقا ما كتبه عن شعره حيث قال: "أما شعر عمر فإنه لا يتحدث إلا عن الغزل ولا علم لنا بماإذا كان عمر أول من سما بهذا الغرض الشعري إلى مرتبة الغرض الفني المستقل بذاته بعد أن كانت القصيدة القديمة لا تتناوله الا في النسيب، ولكن الثابت على كل حال أنه هو الذي وهب هذا الفن حياة قوية، لأنه كان الفن الوحيد الذي يناسب طبيعته، وهو يرسم في الغالب مناظر صغيرة جذابة، ليس وراءها قناع من إحساس الألم العميق"(٤).

---

(١) السابق ص: ١٧٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي ١٨٩، ١٩٠.

(٣) المرجع السابق ص: ١٩١.

وأعد الدكتور زكى مبارك كتابا فى أول حياته العلمية عن حب ابن ربيعة وشعره وقد اتهمه فى هذا الحب، وأنكره عليه، وذكر أن أن النساء عرفت فيه التلون والتقلب، وأنه كان يتعقب الكثيرات فى أيام الحج، فيتغزل بهن فى صراحة وجرأة لم يعهدها أهل الحجاز قبل عمر، وتحدث عن طائفة كبيرة من معشوقاته، وعرض لبعض ما قاله فيهن من شعر، وأساء الظن بالنقد الذى قاله مصعب بن عبد الله بن الزبير عن شعر عمر، ومعه بعض الحق فيما ذهب إليه.

وكتب الدكتور طه حسين بعض المقالات عن عمر وجمعها مع كتابات أخرى له، فى كتابه: "حديث الأربعاء" ومن كلامه: "لا نعرف شاعرا عربيا أمويا افتتن فى الغزل افتتان عمر، فعمر إذن زعيم الغزليين الأمويين جميعا لا نستثنى منهم أحدا، ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزليين فى الأدب العربى كله، على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى إلى الآن"(١)، لأن الغزل فى الأدب العربى لم يوجد إلا مرة واحدة، وذلك فى زمن بنى أمية.

وذكر أن عمر كان مسرفا فى وصف اللهو، مقتصدا فى اللهو نفسه، وأنه كان رئيس مذهب فى الغزل الإباحى، وأن شعره مرآة للحياة الاجتماعية، ومرآة لنفس المرأة الحجازية، وحياتها بوجه عام، قال: "فلم يعرف العصر الأموى كله شاعرا وصف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصفها به عمر بن أبى ربيعة

---

(١) حديث الأربعاء جـ١ ص: ٢٩٣ طبعة دار المعارف.

جودة وكثرة ودقة بنوع خاص"[١]، وقال: "ولست أشك في أن عمر بن أبي ربيعة كان صديقا للمرأة بالمعنى الحديث الذي نفهمه لصداقة المرأة، كان يريد لها من الحرية مثل ما يريده للرجل، وكان يريد أن تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة لا حرج فيها ولا جناح، وكان يريد أن تظهر المرأة فخرها بجمالها وروعتها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وبأسه، وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة، كما تستفيد من خلال الرجل، وكان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب"[٢].

ولا شك أن آراء طه حسين في شعر عمر أقرب إلى القبول بالنظر إلى كتابات أخرى تدافع عن الرجل ولا ترى لشخصه وشعره أي عيب، أو تتحامل عليه وتثبت له ولشعره الفحش والمجون والانحطاط.

ولم تتوقف الكتابات في العصر الحديث عن عمر وشعره خاصة ما قدمه عباس العقاد والدكتور شكري فيصل، والدكتور شوقي ضيف، فلهم كتابات متميزة عن غزل عمرو وشعره لما فيه من تجديد وابداع وتميز عن سائر معاصريه.

ثانياً: الغزل العذري في نجد وبوادي الحجاز:

ينتسب الغزل العذري إلى قبيلة بني عذرة، والتي استقرت في منطقة تيماء في شمال الجزيرة العربية بين المدينة وتبوك، وكان لها دور في حراسة

---

(١) السابق ص: ٣٠٨.

(٢) نفسه ص: ٣٠٩.

الطرق المتشعبة بالحجاز، ويشتغل معظم أهلها بالرعى ويتنازعون فيما بينهم على منابع المياه، ولا تخرج بطبائعها عن البداوة فى الحفاظ على السمعة والاعتزاز بالمنعة، وعدم الاعتراف بالشبهة فى نسائها.

ولقد انعكست بعض تعاليم الإسلام على مظاهر أهلها، وعلاقاتهم الاجتماعية، وخضوعهم للوالى أو الحاكم الإقليمى لنظام بنى أمية خاصة فى القرن الهجرى الأول، أو فى منتصفه على وجه التحديد.

وأكاد أجزم بأن قصة جميل وبثينة فى الغزل العذرى قد أسهمت بدرجة كبيرة فى تخليد هذه القبيلة وذيوع اسمها بين القبائل، وفى إطلاق اسم الغزل العذرى على سائر الأشعار الغزلية العفيفة التى هتف بها الشعراء فى سائر بوادى الحجاز وفى صحراء نجد وما جاورها.

كان الغزل فى بنى عذرة تعبيرا عن حالة من السمو والعفاف، وأخلاق أهل البادية التى هذبها الإسلام - تلك الحالة التى ألجمت الغرائز الجنسية، ورشدت الجوانب البارزة فيها، وكان أكثر الشعراء العذريين يعبرون عن علاقة الحب بين الرجل والمرأة دون أن يتعرضوا للشهوات الحسية مؤثرين حب التقى وشهوة الروح وصدق المناجاة، وتغنى بعضهم بامرأة واحدة غالبا، فتغزل جميل ابن معمر بمحبوبته (بثينة)، كما اقتصر غزل كثير بن عبد الرحمن فى (عزة)، ولم يكن قيس بن الملوح يرى سوى (ليلى)، وهكذا كان الحال مع قيس بن ذريح (صاحب لبنى) وذى الرمة (صاحب مى) وعروة بن حزام (صاحب عفراء).

ونذكر فى هذا اللون شاعرا حضريا عاش فى الطائف، وهتف بالقليل من الغزل فى امرأة واحدة على مذهب بنى عذرة، وبنى عامر، وهو محمد بن

عبد الله النميرى، فليست البيئة هى السبب الوحيد فى تخليق هوية الشاعر وتوجيه حاسته الفنية، وإن كانت البادية ذات خصائص طبيعية تجعل أمام الشاعر آفاقا أرحب ومجالات أوسع فى فن القول، وبها بعض القيود والممارسات الخاضعة للعرف، فتفرض نوعا من الالتزام على الشاعر.

يتميز الغزل العذرى بالعفة والكرامة والطهارة والنقاء، كما يتميز بالصدق فى التعبير، والمبالغة أحياناً فى تصوير الشوق والتمنى، وتقاربت أو توحدت الأداة بين شعراء هذا اللون، فاختلط غزلهم وتشابهت أخبارهم.

جميل بن مَعْمر

جميل بن عبد الله بن معمر أشهر من لهج بالغزل العفيف فى بنى عذرة من قضاعة، ورائد الشعراء الذين تعلقوا بامرأة واحدة، وإن نازعة فى ذلك شاعر آخر هو (قيس بن الملوح) الذى اختلف الناس فى جنونه بمعشوقته (ليلى) بل اختلفوا فى وجوده أصلاً.

تعلق جميل فى حياته بالشعر، فأحبه، وأكثر حفظه وتناوله، فكان راوية لهُدْبة بن الخَشْرم[١]، وهدبة شاعر من بنى عامر، وكان أهله يسكنون بادية الحجاز، وقتل فى آخر خلافة معاوية[٢] بإحدى ضواحى المدينة.

---

(١) يمتد خيط الرواية من أوس بن حجر إلى زهير، فالحطيئة وكعب هدبة بن الخشرم فجميل فكثير بن عبد الرحمن، وكانت هذه السلسلة من الرواة الشعراء ذات خصائص متميزة فى العصرين الجاهلى والإسلامى.

(٢) توفى معاوية سنة ٦٠هـ.

لم تكن النشأة الأدبية لجميل تختلف عما ينشأ عليه أبناء البادية من حيث التغنى بالشعر،وترديده على مسامع الرعاة والسمار، والانتقال بين البوادى القريبة للأخذ عن بعض شعرائها فضلاً عما كان يتمتع به من قريحة صافية ومزاج فني، ورغبة جارفة، فى التغنى بالنسيب فى حدود ما تقع عليه عينه من بعض فتيات وادى القرى..

وأول غزله كان في واحدة تكنى أم الجسير[1] فقال عنها:

يـا خـليـلـىّ إن أم جُـسَـيْـرٍ ∴ حين يدنو الضجيع من عَلَلِه

روضـةٌ ذاتُ حَنْـوَةٍ وخُـزامـى ∴ جاد فيها الربيع مـن سَبَلِه[2]

ولقد تجمدت عاطفة جميل تجاه أم الجسير، ولم يعد قلبه يهتف بها، بعد أن شغلته أخت لها تسمى (بثينة) بنت حبأ، والتى تمتد جذورها، فتلتقى مع جميل بعد عدة أجداد، لأنهما من قبيلة واحدة.

بدأ التعارف بين جميل وبثينة بالسباب، إذ كان يسرح بإبله، فأتى بها واديا يقال له بغيض، فمرت بثينة وجارة لها على بعض الإبل، فنفرتهن بثينة، فسبها جميل، فردت عليه، واستعذب سبابها، وقال فى ذلك:

وأول مـا قـاد المـودة بيـننـا ∴ بوادى بغيضٍ يا بثينَ سباب

وقلنا لها قـولا فجاءت بمثله ∴ لكل كلامٍ يا بثينَ جواب[3]

---

(١) وقيل أم الحسين.

(٢) الأغانى جـ٨ ص: ٩٤، والديوان ص: ٦٩ طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٧م ط/ الأولى.

(٣) الديوان ص: ١٣.

وشغل بها منذ ذلك اليوم إلى أن مات بمصر فى سنة ٨٢هـ وعاش حياته كلها يسعى إليها، ويطلب لقاءها، ويتحدث عن حبه لها، وكان قد رغب فى خطبتها فرد طلبه، وحيل بينها وبينه.

إن مواقف العشق وأيام التصابى كثيرة فى حياة جميل وبثينة، لكنها لم تكن تخلو مما يقع بين العشاق، كالهجر والخصومة، وادعاء الحب لشخص آخر، لكن لا تلبث العلاقة إلا أن تعود إلى خطها المستقيم، فقد ظن جميل أو ادعت بثينة أن قلبها شغل برجل يسمى (حجنة الهلالى) فجفاها جميل، وقال فى ذلك:

بِيْنا حبالٌ ذاتُ عَقْدٍ لبثنةَ ∴ أُتيح لها بعضُ الغواة فحلَّها
فعُدنا كأنا لم يكن بيننا هوًى ∴ و صار الذى حل الحبال هوًى لها
وقالوا نراها يا جميلُ تبدلتْ ∴ وغيَّرها الواشى فقلت لعلها[١]

وبعد أن استوثقت من نسيبه بها، وعشقه لها حلفت لا يأتيها على خلاف إلا خرجت اليه، ولا تتوارى منه، فيتحدث إليها ومعها أختها (أم الجسير).

وكانت بثينة تخرج مع أختها، أو مع صديقات لها لملاقاته فى غفلة من رجال قومها، ورصده جماعة منهم ذات مرة، فوثبوا عليه، فرماهم من على ناقته حتى خلى سبيلها، ولم يصب بأذى، قال:

إذا جمع الإثنان جمعا رميتُهم ∴ بأركانها حتى تخلَّى سبيلُها[٢]

---

(١) الأغانى جـ٨ ص١١٩.
(٢) الديوان ص: ٧٣.

وجلس إليها مرة يشكو بثة وحزنه، ورغب في أن تجازيه بما يكون بين المتحابين، فغضبت منه، فتضاحك معها، وأخبرها أنه لم يقصد إلا اختبارها، ولو استجابت له لعلم أنها تحب غيره، ولضربها بسيفه، وهو القائل:

وإني لأرضى من بثينةَ بالذى ... لو أبْصَرَهُ الواشى لقرَّتْ بلابله

بلا، وبأن لا أستطيعَ وبالمنى ... وبالأمل المرجوِّ قد خاب أملُهُ

وبالنظرة العَجْلى، وبالحَوْل تنقضى ... أواخره لا نلتقى وأوائله(١)

تحول عشق جميل لبثينة إلى مأساة حقيقية، فهو يحبها ويسعى إليها، وهي تلقاه وتسعد به، وتمنع منه بسبب أهلها الذين كانوا محكومين بتقاليد وأعراف اجتماعية تقضي بعدم زواج امرأة بمن تغزل فيها، وكان جميل يعلم ذلك، ولم يطاوعه قلبه إلى نسيانها، والانشغال بغيرها.

وانحصر أمله في لقاء معها في خلسة من قومها بتدبير من جارية أو صديق، أو في مناسبة عامة كعيد أو لقاء في عرس أو في مرعى، وما شابه ذلك.

وتحولت قصة هذا الحب إلى أنشودة من الغزل العفيف الذي يردده العشاق في البوادي، ويتغنى به الحادون، في مسارب الصحراء، ثم تجاوزت القصة حدود الأسرتين وصارت هما يؤرق والد بثينة (حبأ بن حن)، ولم يجد وسيلة أفضل من تزويج ابنته لواحد من نفايات القبيلة، وهو (نبيه بن الأسود) العذري الذي كان معيبا دميما لا يرقى لبثينة لولا ما لحق بها من وشايات

---

(١) الأغاني جـ٨ ص: ١٠٥، والديوان ص: ٦١.

غزلية أبعدت النظراء عنها، ولم يسعد جميل بهذا الزواج الذى قصد منه إحكام الفرقة بينه وبين حبيبته كماأنها لم تسعد به أيضا، ولم تذكر لنا الروايات أنها خلفت نسلا أو استقام لها كيان، وإنما شقى بها المحب العاشق، والزوج المقهور.

أما العاشق فلم تنطفأ جذوة الحب من أعماقه، و قد كان سعيدا بشقائه ومحنته، ولم يرغب فى تبديل مواقفه، والانصراف عن محبوبته، ورأى ذلك النكاح تعبيرا عن الجهل الذى حكمَ بزواج رجل دميم ضعيف قليل الحيلة بامرأة جميلة لطيفة غانية يتعلق قلبها برجُل آخر.

أما الزوج، فعلى قدر ما تسعف به الروايات لم يتجاوز بتصرفه وغضبه من تكرار اللقاء بين زوجته وجميل من أن يشكوها لأهلها، أو أن يشهد أحدا على التقائهما، وهى زيجة لا تأخذ إلا إطارا خارجيا انكشف تشققه، ونفذ منه جميل للقاء بثينة حتى فى منام زوجها. قال جميل:

لقد فرح الواشون أن صَرَمَتْ حبلى ∴ بثينةُ، أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون: مهلا يا جميلُ وإننى ∴ لأقسم مالى عن بثينةَ من مَهْل
أحِلْمًا؟ فقبل اليوم كان أوانُه ∴ أم أخشى؟ فقبل اليوم أوعِدْتُ بالقتل
لقد أنكحوا جهلاً نُبَيْهًا ظعينةً ∴ لطيفةَ طى الكَشْح ذاتَ شَوًى خَدْلِ(١)

والبيت الأخير من الأبيات القليلة التى يتجاوز الشاعر فيها اللون العذرى بما فيه من عشق للروح إلى وصف للبدن، وإبراز المحسوس المشاهد فى جمال المرأة. وكانت هذه الأبيات مقدمة لقصيدة تصور هموم الشاعر بعد زواج بثينة، فقد قال فيها:

(١) الديوان ص: ٦٦، والظعينة: المرأة، الكشح: الخصر، الشوى: الأطراف، الخدل: السمين.

خليليّ، فيما عشتما، هل رأيتُما ∴ قتيلا بكى من حب قاتِله قبلي

وقال:

ولست على بذل الصفاء هويتُها ∴ ولكن سَبَتْني بالدلال وبالبُخْلِ(١)

وواعدته على لقاء يتحدثان فيه، ليخمد بعض لهيب الشوق من قلبيهما، فمنعها قومها، بعد أن تسرب الخبر إليهم، وبقي جميل ينتظر، ثم انصرف كئيبا سيئ الظن بها، وازداد شوقه إليها، وأوشك العام أن ينقضي دون أن يلقاها، فهتف قلبه بالدالية التي تذكر كثيرا في مقام العشق والهوى العذري، قال:

ألا ليت رَيْعَان الشباب يعود ∴ ودهرًا تولّى يا بثينَ يعود

وإن قلتُ ردي بعضَ عقلي أعش به ∴ تولت وقالت: ذاك منك بعيدُ(٢)

واختيرت بعض الأبيات للغناء من هذه القصيدة فذكرها أبو الفرج بهذه الرواية:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ∴ بوادي القُرَى إني إذا لسعيد

وهل ألْقَيَنّ فردا بثينةَ مرة ∴ تجود لنا من ودها ونجود

عَلِقْتُ الهوى منها وليدا فلم يزل ∴ إلى اليوم يَنْمي حبها ويزيد

وأفنيت عمري بانتظاريَ وعدها ∴ وأبليتُ فيها الدهرَ وهو جديد

فلا أنا مردودٌ بما جئت طالبًا ∴ ولا حبها فيما يَبِيد يَبِيدُ(٣)

---

(١) الديوان ص: ٦٧، سبتني: سحتتني، البخل: الامتناع عن اللقاء والضن به.

(٢) الديوان ص: ٢٥.

(٣) الأغاني جـ٨ ص: ١٠٣.

ويردد الناس أبياتا أخرى من هذه القصيدة وهى قوله:

يموتُ الهوى منى إذا ما لقيتُها ∴ ويحيا إذا فارقتُها فيعود

يقولون: جاهد يا جميلُ بغزوة ∴ وأىَّ جهادٍ غيرَهن أريد

لكل حديث بينهن بشاشة ∴ وكلُّ قتيل عندهن شهيد[(١)]

لم يوقف زواج بثينة تيار الحب المتدفق من وجدان جميل فقد كان يسعى إليها أينما وجدت ويتجاذب معها أطراف الحديث، وربما عاتبته على بعض غزله فيها، فقد قالت له مرة: "ويحك جميل، أتزعم أنك تهوانى، وأنت الذى تقول:

رمى الله فى عينَىْ بثينةَ بالقذى ∴ وفى الغُر من أنيابها بالقَوادح

فأطرق طويلا يبكى، ثم قال: بل أنا القائل:

ألا ليتنى أعمى أصمُّ تقودُنى ∴ بثينةُ لا يخفى علىَّ كلامُها

فقالت له: ويحك ! ما حملك! على هذه المنى ؟ أو ليس فى سعة العافية ما كفانا جميعا"[(٢)].

كان بقاء جميل على عشقه لبثينة بعد زواجها أمرا محيرا، فتضاحكت عليه النساء، وتألم له أبوه وبعض أقاربه، وتعاطف معه أهل الصبابة والهوى العذرى و "تشكى زوج بثينة إلى أبيها وأخيها إلمام جميل بها، فوجهوا إلى جميل

---

(١) الديوان ص: ٢٧.

(٢) الأغانى جـ٨ ص١٠٤، ١٠٥.

وأعذروا إليه، وشكوه إلى عشيرته، وأعذروا إليهم فيه وتوعدوه، وأتاهم فلامه أهله وعنفوه، وقالوا: إنا نستحلف إليهم ونتبرأ منك ومن جريرتك، فأقام مدة لا يلم بها، ثم لقى ابنى عمه روقا ومسعودا، فشكا إليهما ما به، وأنشدهما.."[1] شعرا له.

ويبدو أن لوم أهله لم يغير منه شيئا، فلم يبرأ من داء العشق الذى لزمه، وداوم على السعى لها، والتغنى بحبه لها.

وشكاه أهلها إلى من كانت له بلاد بنى عذرة فأباح لهم دمه، ثم شكوه إلى العامل على وادى القرى، فأهدر دمه، إن عاود زيارة بثينة، وكان يختفى مدة بعد كل شكاية، ثم يغلبه الشوق ويضنيه الجوى، وتحرقه اللوعة، فيهم بزيارتها، فيترصدونه ويعترضون سبيله، فينفلت لسانه، ويرد عليهم بالهجاء وتغضب بثينة لقومها، ثم يتناسيان، ويتوهج الحب، وينمو من جديد.

أعاد أهل بثينة الشكوى إلى والد جميل، وكان ذا مال وفضل وقدر فى أهله، وكيف لا يناشدونه أن يمنع ابنه من التعرض لفتاتهم والمنازل متجاورة والمصالح مشتركة، والبيوتات غير متباعدة، ألم يقل جميل:

أبيت مع الهُلاَّك ضيفا لأهلها ⁘ وأهلى قريب موسعون ذوو فضل[2]

كان والده وسائر أهله فى حيرة، ماذا يفعلون معه ؟ وكيف يفصلون فى أمره ؟ لقد خاطبه والده متوسلا فقال له:

---

(١) السابق ص: ١٢٧ .

(٢) الديوان ص: ٦٧ .

"يا بني، حتى متى أنت عمه في ضلالك، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها، وأنت عنها بمعزل ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها، وتريك الصفاء والمودة وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها لك تعليلا وغرورا، فاذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة، إن هذا لذل وضيم، ما أعرف أخيب سهما، ولا أضيع عمرا منك، فأنشدك الله إلا كففت وتأملت أمرك، فإنك تعلم أن ما قلته حق، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له، وفي النساء عوض. فقال له جميل: الرأي رأيك ما رأيت، والقول كما قلت، فهل رأيت قبلي أحدا قدر أن يدفع عن قلبه هواه، أو ملك أن يسلي نفسه، أو استطاع أن يدفع ما قضي عليه، والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها عن عيني لفعلت، ولكن لا سبيل إلى ذلك، وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي وأنا أمتنع من طروق هذا الحي والإلمام بهم ولومت كمدا وهذا جهدي ومبلغ ما أقدر عليه، وقام وهو يبكي، فبكى أبوه ومن حضر جزعا لما رأوا منه"[1].

وقال جميل قصيدة في أعقاب ذلك خاطب قلبه فيها، ودعاه إلى نسيان محبوبته، ويدأها بقوله:

ألا من لقلب لا يملُّ فيَذْهَل ∴ أفق فالتعزي عن بثينة أجمل
سلا كلُّ ذي ود علمت مكانه ∴ وأنت بها حتى الممات مُوَكَّلُ
فما هكذا أحببتُ مَنْ كان قبلها ∴ ولا هكذا فيما مضى كنتَ تفعل[2]

---

(١) الأغاني جـ٨ ص: ١٢٩، ١٣٠.

(٢) الديوان ص: ٦٤.

وتمضي فترة يغالب جميل فيها شوقه، ويعجز عن حمل لوعته ولهفته، فيجتهد في البحث عن مخرج لأزمته التي تتمثل في منعه من لقائها، ويبكي على الحرمان ويعود أهلها إلى الشكوى من طروقه لحيهم ونسيبه لفتاتهم، ثم يعنفه أحد أبناء عمومته قائلا له:

"إنك لعاجز ضعيف في استكانتك لهذه المرأة وترك الاستبدال بها، مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه، أو ذل لا أحبه لك، أو كمد يؤديك إلى التلف، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعزازهم إليك، وإن صرفت نفسك عنها، وغلبت هواك فيها، وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت .. فبكى جميل وقال:

"يا أخي: لو ملكت اختياري لكان ما قلت صوابا ولكني لا أملك الاختيار ولا أنا إلا كالأسير، لا يملك لنفسه نفعا، وقد جئتك لأمر أسألك ألا تكرر ما رجوته عندك فيه بلوم، وأن تحمل علي نفسك في مساعدتي..."(١).

كان لجوء جميل لابن عمه، حتى يقرب المسافة بينه وبين بثينة، ويسهم برؤية أو حيلة لكي يلتقي الحبيبان، وكان لجميل ما أراد، وصور ذلك الموقف فقال:

لقد لامني فيها أخٌ ذو قرابة ∴ حبيبٌ إليه في ملامته رُشْدي
وقال: أفق، حتى متى أنت هائم ∴ بثينةَ، فيها قد تعيد وقد تبدي؟
فقلت له: فيها قضى الله ما ترى ∴ عليّ، وهل فيما قضى اللهُ من رد؟

---

(١) الأغاني جـ٨ ص: ١٤٩.

فإن كان رشدا حُبُّها أو غواية ۰۰۰ فقد جئتُه ما كان مني على عَمْدِ(١)

وأصل جميل حياته على هذا النحو، فلم يبرأ من عشقه ولم تصده محبوبته، ولم يتسامح معه أهلها، وإن أشفق عليه الكثرون من أهل قبيلته، وبلغت الشكوى منه والى المدينة مروان بن الحكم فتعقبه وأهدر دمه، فهرب جميل إلى اليمن، لعله يسلو حبيبته، وتهدأ النفوس في بني عذرة، ولكن هروبه لم يزده إلا شوقا، فهتف بشعره وتغنى بذكرياته، وبكى على واقعه، ثم واتته الظروف للعودة حيث انتهت ولاية مروان على المدينة، أو عزل العامل على وادى القرى، وترك أهل بثينة تيماء إلى الشام ولم تتوقف رغبة جميل عن لقاء حبيبته أينما وجدت، فسار إليها، والتقى بها...

كان يكتوى بنار الحب فلا يهدأ، وتتوهج جذوة العشق في قلبه، فيذهب ولا يلوى على شئ، وتمضى السنون، ويضج بالمعاناة، ولا يسمع له أحد، وتستمر ينابيع الشعر الصافى في التدفق، ويتناقلها الرواة، ويرددها العشاق، وتبقى قصة حبه قضية بلا هدف، ومشكلة بلا حل .

ارتحل جميل إلى مصر، فقد عرف الوالى فيها وهو عبد العزيز بن مروان بكرمه ، وسخائه على الشعراء، وعاش شاعرنا في أحضان الكنانة بعيدا عن مرابع صباه، ومواطن عشقه، لعله كان يهفو إلى محبوبته، ويبعث إليها بنجواه، أو ببعض شعره حيث يقول:

أقلب طَرْفي في السماء لعله ۰۰۰ يوافق طرفي طرفَكُم حين ينظر(٢)

---

(١) الديوان ص: ٣١.

(٢) الديوان ص: ٣٩.

لقد أتعبه العشق وأضناه الجوى، وتزاحمت عليه الهموم، فلحق به المرض، واشتد وقعه عليه، وأحس بدنو أجله، فحزن على حياته، وبكى على نهايته، ورثى نفسه حين حضرته الوفاة، فقال:

صَدَع النَّعيُّ، وما كَنَى بجميلِ ... وثوَى بمصرَ ثواءَ غيرِ قَفُولِ
ولقد أجُرُّ الذيل في وادي القُرى ... نَشْوانَ بين مزارعٍ ونخيلِ
بكر النعيُّ بفارس ذي همة ... بَطَلٍ إذا حُمَّ اللقاءُ مُذيلِ
قُومي بثينةُ، فاندبي بعويلِ ... وابكي خليلكِ دونَ كل خليلِ(١)

وأوصى جميل رجلا شهد احتضاره للموت - بأن يركب ناقته، ويحمل حلة له، وأن يشققها ويأتي بني الأحب قوم بثينة، فيصيح بينهم بالأبيات السابقة.

وبعد الوفاة فعل الرجل ما أوصى به، فخرجت إليه نسوة بينهن بثينة، كأنها البدر تتعثر في مِرْطها، فقالت له: "يا هذا، والله لئن كنت صادقا لقد قتلتني، ولئن كنت كاذبا لقد فضحتني" وأخرج لها حلته، فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها، وصكت وجهها، واجتمع نساء الحي يبكين معها، وأغشي عليها ساعة، ثم قامت وهي تقول:

وإنّ سُلُوِّي عن جميلٍ لساعةٌ ... من الدهر ما حانت ولا حان حينها
سواءٌ علينا يا جميلُ بن مَعْمَرٍ ... إذا مُتَّ بأساءُ الحياة ولينُها(٢)

---

(١) الديوان ص: ٧٢.

(٢) الأغاني جـ٨ ص: ١٥٤.

ولم يرو عن بثينة من الشعر سوى هذين البيتين فى حدود ما قرأناه واطلعنا عليه، ولما نطلب منها الشعر، ولم تكن إلا محبة لجميل، وملهمة لقوله، ومعشوقة لروحه، وقد قضت بقية عمرها تعيش مع زوجها وتبكى على حبيبها ولعل الأعراف الاجتماعية – التى لم تسمح لها بالزواج بمن أحبت – أسهمت فى إنماء هذه القصة فروتها الأجيال، وانتقصت منها أو أضافت إليها ألوانا من القصص والمواقف الخيالية، وهى زيادات لا ترقى فى ضخامتها إلى ما أضيف لشخصية قيس بن الطوح (مجنون ليلى).

وتبقى كلمة عن رحلة جميل إلى مصر، فقد قال عنه (بروكلمان): "مات بمصر لما سار إليها، ليمدح عبد العزيز بن مروان"[1].

وليس كل ذلك صوابا، إذ لم يكن جميل ممن يمدحون أحدا مهما كان شأنه، وقد دعاه عبد الملك بن مروان مرة ليمدحه، فافتخر بنفسه ولم يستجب له، وكان سعيه فى كهولة عمره إلى مصر من أجل الحماية والأمان، فإذا كان جميل قد شكر الوالى، وتحدث عن كرمه بأبيات عند إقامته بمصر، فذلك صنيع جاء تاليا للرحلة وليس دافعا لها أو باعثا عليها.

الملامح العامة لشعر جميل:

عاش جميل بثينة فى مرحلة من عمر الشعر العربى تميز فيها فن الغزل بملامح وخصائص بارزة لم تكن له فى الجاهلية، ولا عجب إذا قلنا إن بعثا جديدا للنسيب قد نهض به مجموعة فى مقدمتهم عمر بن أبى ربيعة فى مكة،

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ١ ص: ٢٩٤، دار المعارف.

وجميل بن معمر في وادي القرى إحدى بوادي الحجاز، وتبعهم فسار في زمرة كل واحد منهم بعض الشعراء الذين أوردنا ذكرهم في صفحات سابقة، أما الشعراء التقليديون في هذا الفن فكانوا كثرة أيضا لهجوا بشعرهم في أماكن كثيرة ومتفرقة، وإن لم يحمل غزلهم جديدا أو تجديدا يضاف إلى حصيلة هذا الفن، في العصر الأموي، واقتصر ذلك على المقدمة الطللية أو بعض القصائد التي تمثل واحدا من أغراض الشعر، وليرجع من شاء إلى ديوان الشاعر جرير ابن عطية.

وتتقارب الخصائص العامة للغزل العذري إلى درجة كبيرة، مع اختلاف بسيط بين شاعر وآخر تمليه البيئة أو الطبائع الخاصة في الفن والحياة، وبسبب التقارب السابق وقع الخلط في الأشعار، وسرى التناقض بين الروايات، ولم يكن ذلك قاصرا على ما يتصل بالغزل العذري وحده، بل تجاوزه إلى ما عداه، فقد ذكرت الروايات: "أن بثينة دخلت على عبد الملك بن مروان .. قال لها: ما الذي رأى فيك جميل؟ قالت: الذي رأى فيك الناس حين استخلفوك، فضحك عبد الملك حتى بدت له سن سوداء كان يسترها"(١).

"وروى أن عزة معشوقة كثير دخلت على عبد الملك، فقال لها فيما قال: "فما الذي أعجبك منه؟ ... فقالت له: أعجبه مني ما أعجب المسلمين منك حين صيروك خليفة، وكانت له سن سوداء يخفيها"(٢).

---

(١) الأغاني جـ٨ ص٢٢.

(٢) نفسه جـ٩ ص: ٢٧.

وجمعت رواية أخرى بين عبد الملك وليلى الأخيلية معشوقة توبة بن الحمير، فذكر الخليفة السؤال نفسه، وردت ليلى بالرد السابق المكرر[١]،ولهذا نرى أن قدرا من التداخل الإخبارى قد فرض نفسه على بساط الشعر آنذاك، وإلا فكيف تفد هذه النساء وغيرهن من معشوقات الشعراء إلى خليفة المسلمين ويسألهن سؤالا واحدا لا يتجاوزه؟

أما جميل فقد تميز بمجموعة من الخصائص التى نوجزها فيما يلى:

١- كان جميل إماما ورائدا للشعراء العذريين، وعلما من أعلام الرواية فى عصره وانصب عشقه على الروح، وليس على الجسد، وسبق أن ذكرنا له من النماذج الشعرية ما يؤكد ذلك .. ونريد أن نقول هنا كلمة، وهى أن هذه الخصائص ليست عقائد دينية، أو أحكاماً فقهية، أو دستورا شرعيا لا يصح نقضه، فقد طال عشق الشاعر لمجبوبته، وكثر الأقاصيص حولهما، وليرجع الراغب فى الاستزادة إلى " الأغانى" وبعض كتب التراث الأخرى، حتى يرى مقدار ما ذكر عن احتيال جميل للقاء بثينة، وكيف تطورت الأحداث إلى هجاء لقومها، وإلى ادعاء منهم بأنه لا يهواها، وإنما يحب أمة فى قومها، فيلجأ إلى حيلة يدافع بها عن نفسه ويلتقى بها، ثم يتركها فى الصحراء، ليشعر الناس أنها كانت معه، ونقرأ أشياء كثيرة من هذا النوع ... وذكر الدكتور طه حسين أن جميلا لم يكن صادق العشق، لأنه فضح بثينة بذلك، وكذب الخبر من أساسه. (حديث الأربعاء).

---

(١) راجع: الشعر والشعراء جـ١ ص: ٤٥٦.

ورد عباس العقاد فى (جميل بثينة) قائلا بعدم التناقض فى القصة، وارتضى للشاعر أن يدفع عن نفسه تهمة الضعف وقلة العقل، وإضاعة الحياة، لأنه يهوى على الأرض ولا يسبح فى الفضاء.

إذن فبعض الأبيات التى يتجاوز الشاعر فيها العفة إلى الجسد أو بعض المواقف التى ذكرها الرواة أو انتحلوها لا تقدح فى القالب الذى رسمه جميل لنفسه، ولنقرأ شعره دون أن نسلب منه ما ثبت له، فقد قال بعد مدة هجر بينه وبين محبوبته:

ألم تعلمي يا عذبة الريق أننى ∴ أظَلُّ إذا لم ألق وجهك صاديا

قد خفتُ أن ألقى المنية بغتة ∴ وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وإنى ليُنْسينى لقاؤك كلما ∴ لقيتُك يوما أن أبثَّك ما بيا(١)

ورقت له بثينة ثم اصطلحا، فقالت له: " أنشدنى قولك:

تظلُّ وراء السِّتْر ترنو بلحظها ∴ إذا مرَّ من أترابها مَنْ يروقُها

فأنشدها إياها، فبكت وقالت: كلا يا جميل، ومن ترى أنه يروقنى غيرك"(٢)، ومع ما قيل عن عفته وعذرية غزله نقرأ له أيضا من خارج ديوانه:

فدنوتُ مختفيا أُضِرُّ ببيتها ∴ حتى وَلَجْتُ على خَفِيِّ المولجِ

قالت وعيشِ أخى ونِقْمَةِ والدى ∴ لأُنبهنَّ الحى إن لم تَخْرُجِ

---

(١) الديوان ص: ٨٩.

(٢) الأغانى جـ٨ ص: ١٥٢.

فَخَرَجْتُ خيفةَ أهلها فتبسمت ... فَعَلِمْتُ أن يمينها لم تَلْجَجِ
فَلَثَمْتُ فاها آخذا بقرونها ... فعلَ النزيف بِبَرْدِ ماءِ الحَشْرَجِ(١)

ولو سلمت هذه الأبيات له، فلا تقدح هي وسابقتها في الحكم على شعره بالعفة والعذرية بوجه عام.

٢ - جميل شاعر غزل:

لقد شغل جميل بالغزل، وهتفت، موهبته بالنسب، فأخلص له، وصدق فيه وردد اسم بثينة في معظم قصائده، وله مجموعة من الأبيات في الفخر، وأخرى في الهجاء، وليس في ديوانه إلا تسعة أبيات قالها في آخر أيامه بمصر امتدح بها عبد العزيز بن مروان، ولم يكن ارتحاله إلى مصر من أجل امتداحه، وإلا لقال فيه أكثر من ذلك، وإنما حضر لأرض الكنانة ليحيا بالأمان فيها، وأبياته في ابن مروان تظهر فيها الصناعة الشعرية، ولا ترقى كثيرا عن الأبيات التي افتخر فيها بنفسه، أو بقبيلته، أو الأبيات التي هجا بها بعض خصومه من أقارب بثينة، فهذه النماذج المعدودة لا تؤثر في الحكم على جميل بأنه شاعر غزل ولا شئ بعده(٢).

٣ - صلاحية شعره للغناء:

عاش جميل، معظم حياته في البادية، ولشعره ديباجة وبه جزالة تتواكب معها، وهو وسط بين السهولة والخفة التي تميز بها شعر عمر والبداوة والفخامة التي وضحت في شعر كثير عزة.

---

(١) الشعر والشعراء جـ١ ص: ٤٤٨.

(٢) راجع الديوان ص٧٤، ٧٨، ٨٢.

ولقد انتقل شعر جميل إلى مدن الحجاز، وشدا به بعض المغنيين، والتأم منه تسعة وعشرون صوتا (لحنا أو نغمة)، وذكرها أبو الفرج فى كتابه، على أن شعر جميل لم يكن معدا للغناء، ولم يكن هذا شاغلاً لصاحبنا، وإنما الذى كان يشغله حقا هو حبه لبثينة، وسعيه إليها، وحديثه عنها، وليكن بعد ذلك ما يكون.

ولقد كثر الحوار فى معظم قصائده ومقطوعاته، وهو طريقة فى التعبير عما يموج فى أعماق الشاعر من صراعات وجدانية ويكثر استعماله فى لقائه ببثينة، لكنه منهج لم يلتزمه ويتقيد به مثل عمر بن أبى ربيعة، لكن جميلا أخذ منه بقدر، كقوله:

إذا قلتُ ما بى يا بثينةُ قاتلى ∴ من الحب قالت: ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلت ردى بعض عقلى أعش به ∴ تولت وقالت: ذاك منك بعيدُ(١)

وقولـــــه:

بثينةُ قالت: يا جميلُ أربْتنى ∴ فقلت: كلانا يا بثينَ مُريب
وأرْيَبُنا من لا يؤدى أمانة ∴ ولا يحفظ الأسرار حين يغيب(٢)

٤- حرارة العاطفة وصدق الفطرة:

إن شعر جميل صورة لحياته، وقطعة من ذاته، وتعبير عن وجدانه، وقد كان الرجل عاشقا متوهج العاطفة، صادق التجربة، وغزله مقصور على بثينة، ولم يرمز باسم آخر لها، ولم يتجاوز - فى خطابه إليها - الكنية التى عرفت

---

(١) الديوان ص: ٢٥.

(٢) الديوان ص: ١٥.

بها وهى (أم عبد الملك) كما تميل معانيه إلى الفطرة التى تتلاءم مع الحياة فى البادية.

لقد أحبها وهو طفل غرير، وأفنى عمره فى انتظار وعدها، ويخشى أن يموت ولم تشبع روحه منها، ويموت هواه عندما يلقاها ويحيا إذا فارقها وبعد عنها، فهذه المعاني وغيرها تتواكب مع الفطرة والقريحة الصافية.

جميل مع بعض شعراء عصره:

١ – عرفنا عمر بن أبى ربيعة من خلال شعره الجسدى الصريح على عكس جميل الذى يمثل الغزل العذرى العفيف وقد التقى الشاعران فأنشد كل منهما الآخر شعرا من غزله ومما قاله جميل:

لقد فرح الواشون أن صَرَمَتْ حبلى ∴ بثينةُ أو أبدت لنا جانب البخل
يقولون مهلا يا جميلُ وإننى ∴ لأقسمُ ما بى عن بثينة من مَهْل
أحِلْماً فقبل اليوم كان أوانُه ∴ أم أخشى فقبل اليوم أُوعدتُ بالقتل

ومما أنشده عمر:

جَرَى ناصحٌ بالود بينى وبينها ∴ فقرَّبنى يوم الحِصَاب إلى قتلى
فما أنس مِ الأشياء لا أنس مَوْقفى ∴ وموقفَها وَهْناً بقارعة النعل
فلما تواقَفْنَا عرفتُ الذى بها ∴ كمثل الذى بى حَذْوَك النعلَ بالنعل

وبعد أن انتهى عمر من قصيدته، قال له جميل: "هيهات يا أبا الخطاب: لا قول والله مثل هذا سجيس الليالي[١]. وما خاطب النساء مخاطبتك أحدا،

---

(١) سجيس الليالى: طول الليالى.

وقام مشمرا"[١]، وشعر جميل واضح فى الإبانة عن مذهبه، فهو عاشق لامرأة واحدة، وصاحب فحولة، وجزالة فى صناعة الشعر التى تتواءم مع بداوته، وبائس حزين يعانى من سكرات الحب والغرام، ويختلف عن عمر الذى كان شعره يميل إلى السهولة والبساطة ويلائم الغناء، وتسعد به خواص النساء.

٢- جميل وكثير من مدرسة واحدة، وكان ثانيهما رواية للأول، وجميل وسيم وقوى البنية، وطويل وشجاع وعاقل، وصاحب مروءة، ولم يتزوج محبوبته التى أخلص لها، وبادلته حبا بحب، وكانت لشخص غيره، أما كثير فقصير ودميم وشيعى متشدد وأكثر بداوة، من جميل، وربما كان اعتناقه للمذهب الشيعى سببا فى إلصاق أوصاف سيئة أخرى بشخصه مثل الجبن والحمق، وقالوا: إنه كان أعور مما يزيد فى دمامته، وقد أحب عزة، وتزوجت غيره، كما تزوج غيرها، وبقى الحب فى قلبيهما لم يجف مع السنين، ولم يتغير بسبب اختلاف الزواج.

كان جميل وكثير يلتقيان كثيرا، ويتذكران النسيب ويتفرقان بالبكاء، وكان كثير يفضل جميلاً على نفسه، ويروى له شعره ويتخذه إماما، وهما وإن اتفقا فى أمور كثيرة، لكنهما يفترقان فى النشأة والعمق وأسلوب التعبير والنظر إلى الحياة، وقد ذكر أبو الفرج خبرا فى الأغانى نسبه إلى محمد بن سلام قال: "كان لكثير فى النسب حظ وافر، وجميل مقدم عليه وعلى أصحاب النسيب فى النسيب، وكان كثير رواية جميل وكان جميل صادق الصبابة والعشق، ولم يكن كثير بعاشق ولكنه كان يتقول. وكان الناس يستحسنون بيت كثير فى النسيب:

---

(١) الأغانى جـ٨ ص: ١٤١.

أريدُ لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثَّلُ لي ليلى بكل سبيل

قال: "رأيت من يفضل عليه بيت جميل:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

قال ابن سلام : وهذا البيت الذى لكثير أخذه من جميل حيث يقول:

أريد لأنسى ذكرها فكأنما ... تمثَّلُ لي ليلى على كل مَرْقَبِ(١)

والذى يثير الدهشة: أن يقول واحد مثل مثل ابن سلام:"أن كثيرا ليس بعاشق، ولكنه كان يتقول، فهل يشترط للعشق أن يعيش صاحبه (مجنونا) أو هائما فى الصحراء معتزلا للحياة، وكيف يقال عنه: إنه يتقول؟ ولماذا تكرر هذا القول بالأغانى، فقيل فى موضع آخر: إنه كان كاذبا وليس بعاشق(٢).

لا أشك لحظة واحدة أنه كان صادق العشق - وكان متشيعا، وهنا يبدو ويتضح السبب فلقد أضرت به السياسة وأساءت فى أوصافه وشككت فى معتقداته، وألصقت بشعره أحكاماً شديدة قاسية، أما جميل فلم يتخذ له مذهبا سوي العشق والحب العذرى، ولم يكن له خصوم سياسيون، ولم يتجاوز بطموحاته لقاء بثينة، والتغنى بهواها فى ديار بنى عذرة، ولهذا استحق أن يكون مقدما على كثير، وعلى سائر الشعراء العذريين فى بوادي الحجاز.

---

(١) الأغانى جـ٨ ص: ٩٥، ٩٦.

(٢) انظر الأغانى جـ٩ ص: ٢٤.

الفصل الثالث

ابن قيس الرقيات (في شعره السياسي)[١]

عاش ابن قيس الرقيات حياته بين المد والجزر من واقع تفاعله مع الأحزان التى فرضت عليه، فأقلع عن غيه وخيلائه في أول شبابه، وارتحل إلى العراق وانغمس فى السياسة، وتحول إلى حب الزبيريين، ومحاربة بنى أمية، وكانت قريش هاجسه الأكبر، فتحسر على ماضيها الجميل، وتحسس حاضرها الممض، ووجد فى الشعر سلاحاً قوياً وسيفا بتاراً فغمس ريشته فى مداد الثورة، وحارب الأمويين بكل قواه، وتعصب لقريش، وتصدى للدفاع عنها والمطالبة بحقوقها، ووجد فى ابني الزبير هواه ومعقد آماله، فأشاد بهما وامتدح نجاحهما، ثم تبددت أحلامه بموتهما فبكى عليهما دما ودموعا ، وسعى إلى تحقيق الوحدة القرشية عن طريق الأمويين الذين أهتبلوا الخلافة لأنفسهم ولمن لف حولهم من القبائل اليمانية، وأعرضوا بوجوههم عن قريش ، ويالها من مأساة !

وقد كان تحول ابن قيس إلى هذا المنعطف السياسي في شبابه مثار دهشة وحيرة من قبل أهل الغزل والنسيب فى مكة والمدينة، وربما لو بقى فى هاتين المدينتين لكان واحداً من شعراء الغزل المعدودين الذين قصروا أنفسهم عليه كابن ابى ربيعة وغيره .. ولكن انتقاله إلى العراق ، وتحوله إلى السياسة ، وتقلبه بين فنون الشعر ، وتخصصه فى التعبير عن الحركة

---

(١) قدمتُ هذا الفصل فى صورة محاضرة بنادى الطائف الأدبى في فندق مسرة (انتركونتننتال) يوم الثلاثاء ١٨ صفر ١٤٠٧ هـ الموافق ٢١من أكتوبر ١٩٨٦ بعنوان (ابن قيس الرقيات شاعر قريش فى الإسلام) ونشرتُه بعد ذلك بالعنوان المذكور فى أعلى الصفحة بمجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد السابع ١٩٨٧م

الزبيرية وإخلاصه لقريش أثار فى نفوسنا الحب والإعجاب! لصدقه؛ مع نفسه، وإيمانه بقضيته، وحبه لقومه، وثقته بموهبته . وسوف يتجلى كل ذلك فى الكثير من المناسبات والأشعار .

حياته الأولي فى مكة والمدينة :

لم يتفق مؤرخو الأدب على مولد عبيد الله بن قيس الرقيات، وسبب تلقيبه بالرقيات ، وسنة وفاته ، ولكنهم لم يختلفوا على نسبه وقرشيته الصحيحة أباً وأماً .

واسمه عبيد الله بن قيس بن شريح بن مالك بن ربيعة . فهو قرشى الأب والأم ، ويرجع نسبه إلى لؤى بن غالب . وأما أمه فهى قتيلة بنت وهب ، وتعود قرشيتها إلى عبد مناه بن كنانة ولهذا تعصب ابن قيس لقرشيته التى نبت منها، وتظلل بدوحتها السامقة الكبيرة، وكانت رؤيته منصبة على ضرورة تواجد الخلافة بين هذه القبيلة التى انتصرت بالإسلام، ونزل القرآن الكريم بلهجتها التى صارت لغة للعرب والإسلام .

ولابن قيس أخ يسمى عبد الله ، وقد خلط بينهما الكثيرون فذكر البعض أن الشاعر عبدالله[1] .

ومعظم مؤرخى الأدب ودارسيه يجعلون (عبيد الله هو الشاعر)[2].

وقد ترجم له ابن سلام فى طبقات فحول الشعراء باسم عبيد الله . وهو من أقدم الكتب التى تحدثت عنه ، كما ترجم له أبو الفرج فى كتابه الأغانى

---

(١) انظر البيان والتبين للجاحظ جـ ٢ صـ ٢٨٧ تحقيق عبد السلام هارون طبعة الخانجى بالقاهرة.

(٢) راجع الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ صـ ٥٦٤ تحقيق أحمد محمد شاكر طبعة دار التراث العربى بالقاهرة.

بهذا الاسم أيضاً . كما نعتوه بالرقيات فقالوا : عبيد الله بن قيس الرقيات، واختلفوا في هذه أيضاً ، وأصوب الآراء أنه نعت بذلك؛ لأنه كان يتغزل بأكثر من واحدة تسمى (رقية) منهن رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد أحد أبناء عمومته، وكانت أثيرة لديه وقيل: سمي بذلك لأنه؛ نكح نساء اسم كل واحدة رقية وقيل : لأن جدات له توالين يسمين رقية. وذكر الدكتور شوقي ضيف أن ولادته كانت في العقد الثالث للهجرة [١] بينما ذكر الأستاذ عمر فروخ أن ولادته كانت سنة اثنتي عشرة للهجرة (٦٣٣م)[٢] والمؤكد أن التاريخ الصحيح لولادة ابن قيس غير معروف وإن كان ذلك ليس أمراً ضروريا ، فالرجل قد ولد بمكة، ونشأ بها وأقدم أخباره تشير إلى ملازمته لبعض المغنين، وتصفحه لبعض النساء في الحج،[٣] ولعل شعر ابن قيس في رقية بنت عبد الواحد عندما رآها في الحج يعد ملمحاً خاصاً لتلك الفترة التي قضاها في أول عمرة بمكة المكرمة. قال فند مولى عائشة بنت سعد بن أبي وقاص فيما يرويه أبو الفرج ، قال: "حجت رقية بنت عبد الواحد بن أبي سعد العامرية، فكنت آتيها وأحدثها فتستظرف حديثي وتضحك مني ، فطافت ليلة بالبيت ثم أهوت لتستلم الركن الأسود وقبلته ، وقد طافت مع عبيد الله بن قيس الرقيات ، فصادف فراغنا فراغها ، ولم أشعر بها ، فأهوى ابن قيس يستلم الركن الأسود ويقبله ، فصادفها قد سبقت إليه فنفحته ردنها[٤] فارتدع؛ وقال لي: من هذه؟ فقلت: أولا تعرفها!

---

(١) تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) د/ شوقي ضيف صـ ٢٩٤ طبعة دار المعارف

(٢) تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) جـ١ صـ ٤٤٩ دار العلم للملايين بيروت طبعة سنة ١٩٧٨م .

(٣) تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي صـ ٢٩٤ .

(٤) نفحتها : أصابته ، والردن : الكم وقيل : مقدمه ، وقيل : أصله .

هذه رقية بنت عبد الواحد بن أبى سعد؛ فعند ذلك قال:

مَنْ عذيرى ممن يَضِنُّ بمبذو ... لٍ لغيرى علىَّ عند الطواف

يريد أنها تقبل الحجر الأسود وتضن عليه بقبلتها ، وقال فى ذلك :

حدثونى هل على رجل ... عاشق فى قبلة حَرَجٌ [١]

وقد انتقل ابن قيس إلى المدينة مع جماعة من أهله، ولازم المغنيين فيها ممن كانوا يتوافدون على عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مثل فند وسائب خاثر وبديح.

وفى المدينة توهجت شاعرية ابن قيس، حيث يكثر الغناء والطرب، وتنشد الأشعار فى الطرقات وبعض الدور، إذ أن مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت فى بداية عهد الأمويين مدينة مفتوحة يكثر فيها اللهو والترف والغناء، ووجد ابن قيس من يتناقل شعره، ويتغنى به؛ لحفظه وسهولة أوزانه، وصلاحيته للغناء والتطريب.

ترك ابن قيس الحجاز فى الخامسة والعشرين من عمره أو نحو ذلك، وذهب إلى الجزيرة فى أعالى العراق، وأقام بها نحو ثلاثين سنة، وقد يكون فى انتقال رقية بنت عبد الواحد مع بعض أفراد عشيرته ما سوغ له ذلك الرحيل مع أخيه عبد الله، وفى الجزيرة تحولت حياته إلى حزن، لفقد أحبابه وأقاربه ومنهم عبد الواحد بن أبى سعد الذى بكاه قائلاً:

ما خيرُ عيش فى الجزيرة بَعْدَ مَا ... عَثَرَ الزمان ومات عبد الواحد[٢]

---

[١] الأغانى لأبى الفرج طبعة دار الكتب المصرية جـ ٥ صـ ٩٦، ٩٧.

[٢] الديوان صـ ٧٩ تحقيق د / محمد يوسف نجم – دار بيروت للطباعة والنشر .

حياته السياسية :

عاش ابن قيس فى الجزيرة ، وشهد بها معارك اللسان والسنان ، بين قبيلة قيس وكان هواها مع آل الزبير وقبيلة تغلب وكان هواها مع بنى أمية، وتعلق ابن قيس بقرشيته، وأحبها وتعصب لها، وتفاعل مع قيس ضد القبائل اليمانية التى كانت تناصر الأمويين، وقد تفجرت الثورة على بنى أمية فى مكة والمدينة والعراق وغيرها بعد موت معاوية، واستخلافه لابنه يزيد من بعده ، وكانت نكبة الحسين بالكوفة، فانتهز عبد الله بن الزبير تلك المأساة واتخذ منها أداة للتشنيع على يزيد وقومه، وعاذ بمكة حيث يوجد بيت الله الحرام " وبدا للعيان أن الأمويين، وإن كانوا قرشيين يحكمون بسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمانية، وكأنه لم يعد لقريش ولا للحجاز عامة شئ فى الحكم وحقاً أن الأمويين قرشيون، ولكنهم حولوا الخلافة عن المدينة حاضرتها فى الحجاز إلى دمشق، ولم يعودوا يستندون على قبائل الشام اليمانية ويحكمونها فى رقاب الناس بل لقد استباحوا مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم"[1] وثارت المدينة على يزيد، وغلت فيها مراجل الثورة ، فأوقع بها وقعة شديدة وعاقبها عقاباً مراً فى موقعة (الحرة) وقتل كثيراً من أهلها، وممن قتلوا فيها طائفة من أهل بيت عبد الله بن قيس "فبكاهم بكاء مراً ورثاهم بشعر يقطر بالثورة على يزيد وبنى أمية"[2]

ومن أشعاره الحزينة البائسة التى أعقبت تلك الواقعة قوله:

---

[1] تاريخ الأدب العربى فى العصر الإسلامى صـ ٢٩٠

[2] المرجع السابق صـ ٢٩٤

يتامى بكون آباءهم	ولم يُبْقِ دهر لهم سائمةً[١]
وأرملةٍ يعتريها النحيبُ	إذا نامت الأعين الناعمه

ومما قاله أيضا فى أعقاب تلك الموقعة:

ذهب الصِّبى وتركت غيّتيه	ورأى الغوانى شيْبَ لِمتّيه
إن الحوادث بالمدينة قد	أوجعننى وقرعْن مروتيه[٢]

ترك ابن قيس الجزيرة، واتجه إلى فلسطين أو الحجاز، ثم عاد إلى العراق: واتصل بمصعب، وتحول إلى الأمويين، وانصرف بكل جوارحه ومشاعره إلى الفكر الزبيرى، وقد انتقل جيش يزيد إلى مكة، وضرب حصارا حولها، ولكن المنية لم تمهله، فمات وانفك الحصار .. واشتعلت الحروب، وتأججت الكراهية بين القبائل فى العراق والشام، "وبدا حينئذ كأن ابن الزبير هو القرشى الذى اختير للجماعة" [٣] فبايعه أهل الحجاز ومصر والعراق ، وتولى مصعب أمر العراق، وعاد ابن قيس إلى العراق، وبدأ فى الحديث عن قريش ومدح الزبيريين.

وفى سنة إحدى وسبعين للهجرة تحرك عبد الملك بن مروان بجيش ضخم إلى العراق حيث يوجد مصعب. فالتقى به فى مكان يقال له "دير الجاثليق" بعد أن انفض عنه معظم أنصاره، وبقيت معه بقية قليلة كان منها عبيد الله بن قيس، ولما اشتعلت المعركة، واحتدم القتال أشار مصعب على شاعره بالهرب، وعرض عليه مالا كثيرا، ولكن ابن قيس أبى أن يفارق ممدوحه فى هذه المحنة القاسية، ولما تمخضت المعركة عن قتل

---

(١) السائمة : الإبل الراعية .

(٢) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار وهو مثل يضرب لمن نزل به شر .

(٣) تاريخ الأدب فى العصر الإسلامى ص ٢٩٢ .

مصعب فر عبيد الله إلى الكوفة، ودخل دار امرأة أنصارية؛ وطلب منها الأمان فأمنته، وبقى عندها سنة كاملة.

وكان عبد الملك قد وجه الحجاج إلى مكة لقتال عبد الله بن الزبير، وتمكن من هزيمته وقتله وصلبه فى سنة ثلاث وسبعين للهجرة وانتهت بذلك دعوة آل الزبير، وأسدل الستار على منطقة الحجاز التى كانت مبعث النهضة فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما ابن قيس فقد بقى فى دار هذه الأنصارية الخزرجية لا يسألها عن اسمها ولا تسأله عن اسمه وكان عبد الملك قد جد فى طلبه، بل كان يرسل من ينادى ببراءة الذمة لمن يؤوى ابن قيس، فلما سمع ذلك نزل إلى المرأة وأخبرها باعتزامه الرحلة، وأخبرته أنها تسمع هذا الصياح منذ سنة كأنها تطمئنه بقائه عندها ثم استجابت لمطلبه وأعدت له راحلتين، وزودتهما بما يحتاج إليه ووهبته عبدا، وانطلق إلى المدينة، وعلم أن اسم هذه المرأة كثيرة، ولا أتخيل أن يبقى الرجل كل تلك المدة عند امرأة ولا يعرف عنها إلا ما ذكر . ويقوى الظن عندى أن ابن قيس قد عرف عنها أكثر مما قيل، ولكنه كان مستأمنا عندها، وأراد أن يطوى أخبارها عن الأسماع حفاظا عليها وإكراما وإعزازا لها، أو لعلى ابن عبد الله بن عباس الذى تزوجها بعد ذلك أو كان زوجا لها وقت الاختفاء.

تحوله إلى الأمويين:

وعاش شاعرنا بالمدينة فى ظل عبد الله بن جعفر الذى شفع له عند الخليفة عبد الملك، وراسل ابن قيس عبد العزيز بن مروان فى مصر؛ ليشفع له أيضاً وكان ابن قيس محتاجا إلى هذه الشفاعة حتى يكتسب الأمان، ويرضى عنه بنو أمية، وقد مثل بين يدى عبد الملك، وامتدحه بقصيدة ابتدأها بالغزل فى كثيرة. ويبدو أن المقام لم يطب له فى دمشق، فتركها

ويمم وجهه شطر العراق فمدح فيه بشر بن مروان بعدة قصائد، ثم رجــــع إلى المدينة، وبقى إلى جوار بن جعفر، وأشاد به، ومدحـــــه بـــالعديد مــــن القصائد، و رحل إلى مصر، والتقى بعبد العزيز بن مروان، ومدحه وأثنـــى عليه، ودعا إلى أحقيته فى الخلافة إذ كان عبد الملك قد اعتزم صرفها عــن أخيه إلى ابنه الوليد ، وهكذا تعلق ابن قيس بالمروانيين مــــن بنـــى أميـــة، ولزمهم وحرص على ودهم إلى أن توفى سنة خمس وسبعين من الهجرة.

وقد ظلل حياته بعض الغموض، فلم يتضح لنا تماما موقفـــــه مــــن الزواج والأولاد ، مع أنه ذكر فى ديوانه زوجة كنانيـــــة، وقـــال صــــاحب الخزانة: لم يكن له عقب.

وفى الديوان وصية إلى شخصين هما شريح ومحصن، وذكر فـــى الأغانى أن له ثلاثة من البنين ومثلها من البنات فقد قال: ".. زوجت بنيـــن لى ثلاثة ببنات أخ لى ثلاث، وزوجت ثلاثة من بنى أخ لى بثـــلاث بنـــات لى" [1]

وربما كان تنقل ابن قيس بين كثير من البلدان، وانشغاله بالتيـــارات السياسية عاملاً مهما أو سببا مباشرا فى انصراف الرواة عن تعقب أخبـــاره الاجتماعية، وانشغالهم بما شغل الناس به فى ذلك الوقت، كـــالصراع بيـــن الأحزاب والعصبية بين القبائل، والحياة الجديدة التى تعامل النــــاس معـــها، وأقبلوا عليها فى ظلال الأمويين.

---

[1] الأغانى جـــ ٥ ص ٩٤

شعره السياسى :-

ذكر الدكتور طه حسين فى بعض كتبه أن النضال السياسى وحده هو الذى ينبغى أن نتخذه وسيلة إلى فهم هذا الشاعر فى حياته العملية والشعرية [١] وعندما نحب التعرف على هذا النضال ينبغى أن نتلمسه فى الشعر الذى قاله فى القسم الخير من حياته، حيث تحول ابن قيس إلى حب قريش والتعصب لها، من خلال رؤيته بأحقيتها فى السيادة والسلطان نظراً لما تملكه من الميراث التاريخى والدينى الذى يرتفع بمنزلتها ومكانتها عن مستوى القبائل الأخرى ... أقول من خلال كل ذلك صارت قريش محور الحديث عند ابن قيس الذى كان حريصا على وحدتها، لما لها من مجد تليد وحاضر عريق، ولذلك نرى الأستاذ أحمد الشايب يعبر عن واقع هذا الشاعر فيقول: "وشعر ابن قيس وسلوكه يدلان على أنه قرشى خالص فى آماله وآلامه جميعا، فالخلافة يجب أن تكون فى قريش، ومعها المضرية، وعلى قريش أن تجتمع حول هذه الخلافة تحوطها وترعاها معرضة عن هذه الفرقة التى قسمتها شيعاً وأحزاباً يضرب بعضها بعضاً " [٢] ولذلك لا نرى بأسا من الموافقة على ما ذكره أبو الفرج فى الأغانى منقولا عن بعض السابقين فى الحكم على ابن قيس بأنه شاعر قريش فى الإسلام ، مثلما رأوا عبد الله بن الزبعرى شاعرها فى الجاهلية، وقد حدد الدكتور طه حسين مذهب ابن قيس السياسى فقال : " وأحب أن أصيب الحق إن قلت : إنه كان قرشيا قبل كل شئ ، وإن له مذهب سياسياً لم يتغير قط ، وهو أن السلطان الأعلى يجب أن يكون لقريش قولاً وفعلاً فإذا كان كره بنى أمية

---

[١] من تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى والعصر الإسلامى) ص ٥٥ طبعة دار العلم للملايين – بيروت

[٢] تاريخ الشعر السياسى، الطبعة الخامسة، النهضة المصرية ص ٢٥٧ .

فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية ، وإنما كرههم لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة ، والمضرية عامة بالقبائل اليمانية .
شيئان اثنان يختصران الرأى السياسى لابن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش ، وأن تعتز قريش فيه بمضر (والثانى) أن من الإثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية ".[1]

وربما لو تتبعنا ديوان الشاعر لتكشف لنا المزيد من التفصيلات حول انتقاله وتحوله عن بنى أمية ، وانصرافه كلية إلى الزبيريين ، واستشعاره عقيدتهم على أن سنة ثلاث وستين من الهجرة تشهد بعض الأمور الجسام، فقد ألمت الكارثة بأقارب الشاعر فى موقعه الحرة ، وقتل فيها ناس كثيرون من أهل بيته ، ومن بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبد الله بن قيس ، وأن هذه الكارثة لم تفارق الشاعر طوال حياته .
ومما قاله بعد وقعة الحرة يائيته الشهيرة التى تقطر بالحزن والأسى ، وكأنها صنعت للنائحات على حد قول الدكتور طه حسين ، قال ابن قيس[2]

ذهب الصِّبى وتركت غيته ... ورأى الغوانى شيب لمتيه
وهجرنَنى وهجرتُهن وقد ... غَنِيَتْ كرائمها يطُفْنَ بيه [3]
إذ لِمَّتى سوداء ليس بها ... وَضَحٌ ولم أُفجع بإخوتيه[4]

---

[1] من تاريخ الأدب العربى ص ٥٥٨ .
[2] الديوان ص ٩٧
[3] غنى بالمكان : أقام فيه والمقصود هنا : ظلت زمنا
[4] الوضح : بياض الشيب

إن الحوادث بالمدينة قد أوجعنني وقرعن مروتيه[١]
وجببنني جب السنام فلم يتركن ريشا فى مناكبيه[٢]

ولا تطول القصيدة كثيراً إذ لا تتجاوز أبياتها خمسة عشر، وتجاورها بالديوان قصيدة أخرى فى التوجع على من مات فى الحرة، وإن كانت تختلف من حيث المطلع الذى بدأ فى هذه بالغزل قال:[٣]

قالت كثيرة لى قَدْ كَبِرْتَ وما بك اليوم من دَاهِمَةْ [٤]
رأت رجلاً شاحبا لونه أخا سفر أنْزَعَ القادمه [٥]
تخوَّنَه الدهر إخوانَه كثيرةُ قد كنت بى عالمه
يتامى يكون آباءهم ولم يُبْقِ دهر لهم سائمه

ولعلنا أدركنا مقدار الفجيعة من خلال هذه الأبيات التى بكى فيها الشاعر من مات من أقاربه بالمدينة المنورة.

---

(١) المروة واحدة المرو وهى حجارة بيض يقدح منها النار وقوله : " لأقرعن مروته " مثل تضربه العرب إذا أصابه بشر.
(٢) الجب : قطع السنام أو أن يأكله الرجل فلا يكبر.
(٣) الديوان ص ١٠١ .
(٤) داهمة : كبر وهرم .
(٥) أنزع القادمة : منحسر شعر الرأس .

شعر ابن قيس في آل الزبير

-١-

بعد أن نكب الأمويون المدينة فى تلك الوقعة المشئومة، وبعد حصار مكة المكرمة الذى لم ينفك إلا بموت يزيد بدأ نجم عبد الله بن الزبير فى الصعود، وصار كأنه القرشى الذى يصلح لقيادة المسلمين وإرجاع الخلافة للحجاز فهو ابن واحد من كبار الصحابة، وأمه أسماء بنت أبى بكر وهو واحد من أبطال المسلمين الذين شاركوا فى الفتوح الإفريقية فضلاً عن إيمانه وتقواه ، ولهذا انضمت إليه قبيلة قيس فى الشام والجزيرة كما انضمت تحت لوائه العراق ومصر، ولحقت بها خراسان بقيادة عبد الله بن حازم السلمى القيسى، ثم ظهر فى الشام مروان بن الحكم تسنده قبائل كلب اليمانية فتحولت إليه قيس الشام بعد موقعة مرج راهط، كما ضم إليه مصر وولى عليها أخاه عبد العزيز، وبعد أن توفى مروان تولى بعده عبد الملك الذى كان سياسياً أديباً وحكيماً مجرباً يملك مقدرةً غريبة فى جمع الناس حوله، على عكس عبدالله بن الزبير الذى مال إلى الحرص الشديد، واشتهر بالبخل بين الشعراء، وقد ذكر الرواة موقفا له مع فضالة بن شريك الأسدى (أو ابنه عبد الله) عندما وفد عليه مستحملا فأمسك ابن الزبير بماله عنه، فانصرف من عنده وهو يقول

شكوت إليه أن نفقت قلوصى ... فرد جواب مشدود الصفاد
يضن بناقةٍ ويرومُ ملكا ... محال ذلكم غير السداد

ومع ذلك لم يتخل الشعراء تماما عن ابن الزبير ، فقد التف حوله عدد من الشعراء نذكر منهم زفر بن الحارث الكلابى وأعشى همدان ، بل إن ابن

قيس نفسه قد مدحه فى أكثر من قصيدة ، ولعل من المناسب أن نختار بعضا من هذا الشعر قال :[1]

أنت ابن مُعْتلج البطاح كُديِّها فكدائها[2]
فالبيت ذى الأركان فالمُشْتَنّ من بَطْحائها[3]
فمحلّ أعلاها إلى عرفاتها فحرائها
مِنْ سِرِّها فيها ومعْدن برها ووفائها[4]
أوفى قريشٍ بالعلى فى حُكْمها وقضائها

ومن الواضح فى هذه الأبيات وفى بقية القصيدة أن الشاعر فى سبيل مدحه لابن الزبير يفتخر بضواحى مكة وسيولها وبطاحها والأماكن المقدسة فيها، كما أمتدح ابن الزبير من ناحية نسبه، مثلما فعل فى قصيدة أخرى فقال:[5]

وابنٌ أسماء خير من مسح الركن فعالا ، وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هِجَانُ قريش كنت أنت الفتى وأنت الهِجَانا

وهذه الأبيات تكفى لإثارة الأمويين وإشعال نار الكراهية فى قلوبهم سواء من ناحية الزبيرين أو من ناحية ابن قيس ذلك الشاعر الثائر الذى تفرد بحب قريش فى القرن الأول الهجرى .

---

[1] الديوان ص ١١٧
[2] اعتلج الرمل : تراكم ودخل بعضه فى بعض ، كدى وكداء : موضعان .
[3] المستن : مخرج ماء الوادى حيث يدفع إلى امتداده .
[4] سرها : أصلها ومعدنها .
[5] الديوان ص ١٥٧

-٢-

عاش صاحبنا في العراق ، وتفرغ لمدح مصعب، ومقاومة خصومه، وأنشده عددا من القصائد التي سوف نعرض لبعضها .

وكان مصعب قائداً شجاعا ، وفارساً مغوارا وسخيا معطاء ، استطاع أن يتربع على ولاية العراق مدة من الزمن ، ولم يتمكن قواد بني أمية من زحزحته عن هذه البلاد حتى تحرك له عبد الملك ، وقضى عليه في (دير الجاثليق) وكانت وقعة صعبة تفرق فيها معظم العراقيين من حول مصعب وحدث له ما حدث للحسين بن على فمات على أرض العراق، ومن يومها لم تقم للزبيريين قائمة ، وأسدل الستار على هذه الدعوة بمقتل عبد الله بن الزبير وصلبه على مقربة من الكعبة المشرفة .

ولقد جمعت الأسباب بين مصعب وابن قيس ، وأحب كل منهما الآخر، وأخلص له ، بل إننا قد نعجب كل العجب عندما نقرأ صفحات هذا الحب فلقد أذن مصعب لشاعره بالهرب في ساعة العسرة عندما أكلت نيران الحرب كل ما حولها في دير الجاثليق ، وابتدأت النهاية ، ولكن ابن قيس بقى على وده وحبه وإخلاصه ، فلم يفارق ممدوحه إلا ميتا ولذلك اتصف شعره في مصعب بالصدق والمعاناة . وتعد الهمزية المشهورة أفضل ما قاله في مدح مصعب والفخر بقريش ، وهي من أطول القصائد في الديوان إن لم تكن أطولها جميعا. وقد دعا في أولها إلى وحدة قريش ، وحذر من تفرقها وتفككها ، خوفا من زوال مجدها وانهيار سلطانها الذي تكون في الجاهلية والإسلام قال [١]:

---

[١] الديوان ص ٨٧

أقفرت بعد عبد شمس كَدَاء ... فكُدَىً فالركن فالبطحاء
فمنى، فالجمار من عبد شمس ... مُقْفرات، فبَلْدح، فحراء [1]
فالخيام التى بعُسْفَان فالجُحْـ ... ـفة منهم، فالقاع، فالأبواء
مُوحشاتٌ إلى تَعَاهِنَ فالسُّقْـ ... يا قفارٌ من عبد شمس خَلاء [2]

ويبدى الشاعر حزنه على هذه الأماكن التى هجرها الأمويون إلى الشام، وخيم عليها الحزن، وشملتها الفرقة، وعمها الانقسام، وقد كرر ذكر هذه الأماكن فى العديد من القصائد والمقطوعات، ثم يدعو إلى وحدة قريش فيقول:

حبذا العيش حين قومى جميع ... لم تفرق أمورَها الأهواءُ
قبل أن تطمع القبائل فى مُلْـ ... ـك قريش وتَشْمَت الأعداء
إن تودِّعْ من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحى بقاء

وهكذا عبر الشاعر عن حزنه من خلال هذه الأبيات التى تلاها بأبيات أخرى افتخر فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأصحابه الأجلاء ، ثم انتقل إلى مصعب فمدحه ببعض الأبيات التى أثارت غضب عبد الملك، وهى التى قال فيها :

إنما مصعب شهاب من اللـ ... ـه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملكُ قوة ليس فيه ... جبروتٌ ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفـ ... ـلح من كان همه الاتقاء

---

[1] بَلْدح : واد عند الجراحية فى طريق التنعيم إلى مكة

[2] تعاهن : اسم موضع عين ماء سمى به موضع على ثلاثة أميال من السقيا بين مكة والمدينة وروى فيه تعهن(معجم البلدان) لياقوت جـ٢ ص ٣٥

ويعاود البكاء على قريش من خلال فرقتها التى آلمته ، وأقضت مضجعه فيتألم لها ، ويتحسر على ماضيها البعيد والقريب ، ويفتخر ببيت الله الذى خصه الله بالكرامة . قال :

عينِ فابكى على قريش ، وهل يُرْ ... جع ما فات إن بكيت البكاء
خصه الله بالكرامة فالبـ ... ادون والعاكفون فيه سواء

ثم يصب جام غضبه على بنى أمية ، ويدعو عليهم بالهلاك والدمار فيقول:

كيف نومى على الفراش ولمّا ... يشمل الشامَ غارةٌ شعواء
تُذهل الشيخ على بنيه وتبدى ... عن بُراها العقيلة العَذْراء
أنا عنكم بنى أمية مزورْ ... رٌ وأنتمْ فى نفسى الأعداء
إن قتلَى قد أوجعتنى ... كان منكم لئن قتلتم شفاء [١]

وقد أكد على كراهيته لبنى أمية الذين أنكروا حقوق قريش فى الخلافة وقربوا منهم القبائل اليمانية ، وتعود هذه الكراهية إلى عدوانهم فى الحرة والطف ومرج راهط، التى هزمت فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية ، وكم تمنى ابن قيس لو دارت الدائرة على الأمويين فى الطف، وقتلوا فيها، ولو حدث ذلك لكان فيه الدواء لما أصابه، والشفاء مما ألم به وتعرض له . كما ذكر أموراً كثيرة غير التى أوردناها فقد تحدث عن حرب مصعب للمختار الثقفى ذلك الرجل الذى تقلب بين الأحزاب السياسية، فبدأ خارجياً فزبيريا ثم صار رافضيا فى ظاهره ، وقد تغضبه مصعب ، وانتصر عليه، وقضى على جيشه بطريقة لم يرض عنها عبد الله بن الزبير ؛ فعزل مصعبا ثم أعاده واليا على العراق مرة ثانية،

---

[١] المراد بقتلى الطف : الحسين بن على ومن استشهد معه ، والطف من ضواحى الكوفة وقد قتل فيها عدد كثير من القرشين سنة ٦١هـ .

وتحدث ابن قيس عن حرق جيوش الشام للبيت الحرام ، وعـــرض لذلــك مفتخرا بما قام به ابن الزبير من بناء للحرم الشريف .

وقد اعتنى الأدباء والنقاد بهذه القصيدة المتميزة ، فهى ذات أسـلوب سهل لين مستو ، لا تجد فيه تعقيدا أو التواء ،والألفـــاظ عذبـة متجانســة ومتآلفة وموحية ومعبرة ، والجمل مترابطة متناسقة مـــع قـوة الموسـيقى وطواعية القافية واستطاع الشاعر بعاطفته الصادقة والقوية إبراز المعـــانى وتصويرها تصويرا حسيا ملموسا كما وضحت شخصية ابن قيس فهو مـــن دعاة الوحدة القرشية، وهو بطل شجاع ، لا يخشى بطش الأعـــداء، وكيـد الخصوم ، ومخلص لآل الزبير، يمدح عن عقيدة واقتناع ، وليس طمعا فـى مال أو رغبة فى شهرة ، وهو سهل الشعر رقيـــق المعـانى ، ذو مـزاج صاف ، وصاحب عقيدة وعاطفة صادقة تؤمن بمـــا تقــول ولا تنطـق إلا بالحق اليقين .

وقد امتدح مصعبا بقصيدتين أخريين ، أما الأولى فهى الهائية التـــى تبـدأ بهذا البيت :[١]

ألا هزئـــت بنـــا قرشيـــــــــة يـــــــهتز موكبُـــــــهـا

والقرشية هى أم البنين التى تغزل بها غزلا فاضحا مكشوفا ، وقـد طــالت أبيات الغزل فبلغت واحدا وعشرين بيتا ، ثم امتدح مصعبا فـــى الأبيـــات الخمسة الأخيرة .

وأما القصيدة الثانية فهى الكافية التى تبدأ بقوله :[٢]

---

[١] الديوان ص ١٢١

[٢] الديوان ص ١٢٨

أعاتِكَ بنــت العَبْشَـمية عاتِكـا ... اثيبى أمرأ أمسى بحبك هالكــا
بدت لي فــي أترابــها فقتلتنــي ... كذلك يقتُلن الرجالَ كــذا لكــا[١]

وعاتك: هي عاتكة بنت يزيد بن معاويــة امــرأة عبدالملــك بــن مروان، وقد مزج الشاعر في هذه القصيدة بين الغزل السياسي الذي قصــد به حرب الأمويين ومدح مصعب ومبايعته، وختمها بهذه الأبيات:

على بيعة الإسلام بايعن مُصْعبـا ... كراديسَ من خيل وجَمعا ضُباركــا[٢]
نَفَيْتَ بنصر الله عنهم عدوَّهــم ... فأصبحت تحمى حوضَــهم برماحكــا
تداركتَ منهم عَثْرَةً نهكت بــهم ... عدوَّهــــم، والله أولاكَ ذلكــــا

وقد وفق الشاعر في مدح مصعب وهجاء بني أمية، وتقد منهجــهم السياسي، على أن الأبيات التي دعا فيها لمبايعة آل الزبير كانت قليلة جــدا، إذ لا تكاد تعبر عن رأي الشاعر ومذهبه السياسي، وعموما لا يمكن القــول بأن للزبيريين مذهبا أو اتجاها سياسيا يستحق أن يدعى إليـــه، ولــم تكــن حركتهم إلا ثورة على الأوضاع السائدة، وطمعا في الظفر بالخلافة التــي احتبلها الأمويون من غير حق، وخلاصة القول في ذلك أن تعصب الشــاعر لم يكن لآل الزبير خاصة، وإنما كان لقريش، فالخليفة ينبغي أن يكون منــها بصرف النظر عن كونه أمويا أو زبيريا أو هاشميا.

الغزل السياسي :

استخدم ابن قيس الغزل فى القصيدتين السابقتين اللتين امتدح بهما مصعبــا استخداما أغاظ به خصومه من بنى أمية ، ووظفه توظيفا سياسيا لم يكــن

---

[١] الأتراب: الأقران

[٢] الكراديس: الجماعات، ضبارك: كثير

مألوفا على عصره ، وكان حريصا على إرضاء أم البنين وعاتكة، إذ أن المرأة فى ذلك الوقت كانت تحب من يشبب بها، ويشيد بجمالها من غير تجريح وإهانة ، كما تغزل ابن قيس فى كثيرات غير هاتين المرأتين غزلا تختلف معانيه، وتتباين دوافعه وأسبابه.

-١-

لقد كان ابن قيس في أول حياته شاعراً غزليا يقول الشعر ليترنم به المغنون في مكة والمدينة، وبعد أن تحول إلى السياسة صار الغزل عنده مدخلا إلى فنون الشعر الأخرى، مثلما كان الشعراء يفعلون في القديم والجديد على السواء، على أن هذا الغزل لا يدخل في أطر البحث الذى نحن بصدده، وإن كان من المستحسن أن نذكر بعض النماذج لهذا اللون ليقف المتلقي على موهبة ابن قيس التى سخرها بعد ذلك لخدمة أغراضه السياسية. فقد تغزل في رقية بنت عبد الواحد، وأختها سعده، كما تغزل في كثيرة ونساء بنى أمية، وعائشة وسكينة زوجتى مصعب، وتتنوع قائمة النساء اللاتى تغزل بهن، فمنهن الجوارى مثل ريا وسلامة، ومنهن الشريفات، مثل الثريا وأم البنين وأم الوليد ومنهن قريباته، مثل ليلى، ورقية وأثلة، ومنهن غير قريباته. وتمثل رقية بنت عبد الواحد مكانة كبيرة في قلبه وشعره، ومن أمثلة ذلك قوله[١]:

حَبَّ ذاك الدلّ والغُنُجُ ... والتى فى عينها دَعَجُ
والتى إن حدثت كذبت ... والتى فى وعدها خَلَجُ
وترى فى البيت صورتَها ... مثلما فى البيعة السُّرُجُ
خبرونى هل على رجل ... عاشق فى قبلة حرجُ؟

---

[١] الأغاني جـ ٥ ص٩٨، ٩٩ والديوان ص١٦٣.

وقد التقى بها في سنة سبع وثلاثين للهجرة، وبقى محبا لـــها ، وإن كـــانت السياسة قد شغلته عنها، ولم يتضح مقدار ما قاله فيها من شعر بعـــد ذلـــك التاريخ وقال فيها [1]

رقـــيَّ بعمركـــم لا تـــهجرينا ومنينا المنـــى ثـــم امطلينـــا
عِدينا في غـــد مـــا شــئت إنـــا نحبُّ ولو مطلـــت الواعدينـــا
فإمـــا تُنْجِـــزى عدتـــى ، وإمـــا نعيش بما نؤمل منـــك حينـــا

وقال: [2]

رقيـــــةُ تيمـــــت قلبـــــي فواكبـــدى مـــن الحـــب
وقـــالوا : داؤه طِـــــبٌ ألا بـــل حبـــها طبـــــى

وقد وضحت لهفة الشاعر على رقية من خلال توسله إليها وتذللـــــه لـــها، وكان حريصا على إرضائها ، صادقاً فى عاطفته نحوها ، مهذبا فى اختيار كلماته ، فلم يجرح مشاعرها بكلمة نابية أو عبارة مكشوفة فاضحة، ولعـــل الغزل قد تطور فى هذا العصر تطوراً حضارياً ليتـــلاءم مـــع المتذوقيـــن للشعر ، وللمغنيين على السواء.

- ٢ -

كما امتدح ابن قيس زوجتى مصعب عائشة بنـــت طلحـــة وســـكينة بنـــت الحسين وتغزل بهما غزلاً كله وقار وحشمة، وكأنه أزهار ثنـــاء وباقـــات ورد، ولعله أراد ترضية المرأتين وزوجهما، ومن قوله فى عائشـــة بنـــت طلحة [3]

---

[1] الديوان ص١٣٧.
[2] الديوان ص ١٦٩
[3] الديوان ص١٤١

جنيةٌ خرجت لتقتلنا ... مطليةُ الأقراب بالمسك [١]
قامت تحييني، فقلت لها ... ويلي عليك وويلتي منك
لم أر مثلك لا يكون له ... خَرْجُ العراق ومنبرُ الملك

وقد أردف هذه الأبيات ببيتين تغزل فيهما بأم البنين ، ولعله أراد إغاظتهما إذ لقيمة لغزله فيها بعد أن جعل عائشة المرأة الأولى، فلها خراج العراق وقصر الملك ، واستبعد وجود المرأة التى تستحق هذا غيرّ عائشة بنت طلحة التى عرفت بالجمال والدلال ، وكانت غاضبة على ابن الزبير ، فقال الشاعر هذا الغزل لترضيتها وإسعادها.

- ٣ -

وتغزل ابن قيس فى كثيرة وهى زوجة لعلى بن عبد الله بن عباس ، وكان شاعرنا مديناً بحياته فى الكوفة إلى هذه المرأة التى آوته لمدة عام، وزودته بمتطلبات السفر عند مغادرته للعراق ، وقد وفى هذه المرأة حقها، فأكثر من ذكرها ، والإشادة بها فى العديد من القصائد والمقطوعات .

وليس هناك ما يمنع أن يكون ابن قيس قد قصد إرضاء كثيرة وزوجها معاً فقد حافظت عليه ، وأكرمته فى منزلها بالكوفة ، وربما حاول ابن عباس استصدار عفو له فلم يفلح ، ولعله عاونه فى الهرب من الكوفة إلى عبد الله ابن جعفر بالمدينة وقد تغزل بها ابن قيس فقال [٢]

عاد له من كثيرةَ الطربُ ... فعينُه بالدموع تنسكب
كوفيَّةٌ نازحٌ محلتُها ... لا أَمَمٌ دارُها ولا سَقَبُ [٣]

---

(١) الأقراب : الخواصر .

(٢) الأغانى ص٥، ص٨٣ وانظر الديوان صـ ١.

(٣) السقب : القريب الملاصق .

والله مـــا إن صَبَـتْ إلــيَّ ولا يُعْرَفُ بينــي وبينــها سـبب
إلا الذى أوْرَثَتْ كثيرةُ فـي الـ قلب وللحب سـوْرةٌ عَجَبُ

والأبيات تكشف عن طهر العلاقة التى جمعته بـهذه المـرأة الخزرجيـة، وتجلى صدقة في التعبير عن المدة التى عاشها بالعراق. ولعل كثيرة تمثـل رمزاً أو ملمحا من ملامح تلك الفترة، وعلى كل فأشعاره في كثـيرة أكـثر من أشعاره فى زوجتى مصعب. فهذه المرأة-فضلا عن أنها آوته وحفظت حياته-تمثل قرشيته المفككة التى يسعى لتوطيدها ولم شعثها وذلـك عـن طريق زوجها العلوى. وقال فيها ابن قيس أيضا: (١)

شب بالعَـال مـن كثـيرةَ نـارُ شـوقتنا وأيـنَ منـا المـزار(٢)
أوْ قَدَتْهَا بالمسك والعنبر الرَّطْـ ـبِ فتاة قد ضاق عنـها الإزار(٣)
تتقى بالحرير من وهج الشمـ ـس وخـزَّ العـراق والأسـتار

وقال:٤

ظعنـت لِتَحْزُنَنَـا كثـيرة ولقـد تكـون لنـا أمـيرة
أيـامَ تلـك كأنـها حـوراءُ مـن بقـر غريـرة
شـبت أمـامَ لِدَاتـها بيضـاءُ سـابغةُ الغديـرة(٥)

---

(١) الديوان ص٢٣
(٢) العال : الأنبار
(٣) ضاق عنها الإزار ،أى ممتلئة غير مهزولة .
(٤) الديوان :ص ٤٣
(٥) الذوابة والجمع غدائر .

وقد جعلها أميرة، ووصف جمالها وصفا رائعا جميلا يدل علـى ذوق ابـن قيس وتحضره ورهافة حسه وجمال أسلوبه. ولعل في هـذه النمـاذج مـا يكشف عن منزلة هذه المرأة عنده، فلم يصفها وصفا جارحا يسئ إليـها أو يخدش حياءها، ولم يقل فيها إلا ما ترضى عنه كل امرأة حتى لـو كـانت هذه المرأة زوجة لعلي بن عبد الله بن عباس.

-٤-

لقد سخر ابن قيس موهبته الشعرية لخدمة أغراضه السياسية فتغزل فـي نساء بنى أمية غزلا مؤذيا محرجا، وسواء رضيت المرأة عن هذا الشـعر أو كرهته فإن رجال بنى أمية قد مقتوا هذا اللون وكرهـوه. وحظيـت أم البنين بنصيب من هذا اللون، مع أنها قامت بدور كبير فى تأمين حياة ابـن قيس بعد أن أهدر الأمويون دمه، إذ توسطت لدى الخليفة حتى عفـا عنـه ودعاه لمقابلته. فهو مدين بحياته لكثيرة، ولأم البنين أيضا ومن الجائز أنـها لم تغضب مما قيل فيها من تشبيب، بل ربما سعدت به وارتاحت لـه، وإلا لما طلبت الأمان لابن قيس، مع أن تلك الشفاعة قد عرضتها للإهانة مـن عمها عبد الملك في أول الأمر. وحتى يمعن شاعرنا في النكاية ويسـرف في عدائه وحربه للأمويين جعل غزله في أم البنين مقدمة لمـدح مصعـب فقال: (الديوان ص ١٢١)

ألا هزئـت بنـا قرشيـ	ـةٌ يـهتز موكبـها
رأت بـي شـيبةً فـي الـر	رأس منـي مـا أغيبـها
فقـالت ابـن قيـس ذا؟	وغـير الشـيب يعجبـها
رأتنـي قـد مضـى منـي	وغَضّـاتٌ صواحبـها
ومثلِـكِ قـد لـهوتُ بـها	تمـامُ الحسـن أعيَبُـها

لــــها بعْـــلٌ غيـــور قـــا عـــدٌ بالبــاب يحجُبـــها
يراتـــى هكــــذا أمشـــى فيوعِدُهـــا ويضربـــها
ظَلِلْـــتُ علـــى نمارقـــها أفدِّيـــها وأخلُبــــها[1]
أحدِّثـــها فتؤمـــن لـــى فأصدُقـــها وأكذِبُـــها
فـــدَعْ هـــذا ولكـــن حـــا جـــةٌ قـــد كنـــت أطلبـــها
إلـــى أم البنيـــنَ متـــى يُقرِّبُـــها مقرِّبُـــها
أتتنـــى في المنـــام فقلــــ ـــت هـــذا حيـــن أعقبُـــها

وقد قال الدكتور طه حسين في تعليقه على هذه الأبيات: "ومـــاذا تريـــد أن أقول لك في هذا الشعر؟ وهل تعرف أعذب منه لفظا وأجود معنى، وأخــف منه روحا"[2] ثم أمعن الشاعر بعد الأبيات السابقة فـــي فضـــح أم البنيـــن والتشهير بها فى هذا الغزل المكشوف، وقد منعنى الحياء من ذكـــر بقيـــة الأبيات حيث أساء إليها حقا. ولا يمكن أن يصل إعجاب المرأة بالغزل إلـــى هذا الحد، ولابد أنها قد غضبت من هذا الشعر، ويبدو أن القصيدة قد قيلـــت ثورة ابن قيس وغليانه، وذلك لأنه قد تغزل فيها بأبيات أخرى تختلف عـــن هذه كثيرا، مما يؤكد الاختلاف الكبير والبعيد بين مناسبة كل واحدة، اقـــرأ معى تلك الأبيات التى أشاد فيها بأم البنين، وتحدث عن جمالها الأخاذ الـــذى أصابه بالسقم والمرض. قال:[3]

---

(١) النمارق : الوسائد .

(٢) من تاريخ الأدب العربى ، المجلد الأول ص ٥٦٠

(٣) الديوان ص ١٤٩

أم البنينَ سلبتِني حِلْمي ... وقتلتِني فتحمَّلي إثمي

وتركتِني أدعو الطبيب وما ... لطبيبكم بالداء من علم

بالله يا أمَّ البنينَ ألم ... تَخْشَيْ عليك عواقبَ الإثم

لله بِرك في ابن عمك إذ ... زودته سقماً على سقم

وتركتِه يمشي وليس له ... عقلٌ يعيش به مع الحَزْم

فهذه الأبيات ألطف معنى وأرق أسلوبا وأخف حدة ولابد أنها أعجبت أم البنين الإعجاب كله، وإن كانت قد آلمت الأمويين وأغضبتهم .

ولابن قيس أشعار أخرى في أم البنين تجمع بين إرضائها وإغضابها، ولكنها على كل حال تؤدى دوراً كبيراً في إغاظة الأمويين وكيدهم بهذا ومحاربتهم. ولعل الشاعر قد أخذ يجول ويصول لهذا اللون ليعبر بوسيلته لبنى أمية أن صلاح الأمة وإرضاءها في اختيار ابن الزبير (وهو قرشى) خليفة للمسلمين.

وقد سبق ابن قيس بعبد الرحمن بن حسان بن ثابت الذى لجأ هو الآخر إلى هذا اللون فتغزل في رملة بنت معاوية فأغاظ يزيد وأباه، ثم جاء ابن قيس ليتغزل في عاتكة بنت يزيد بن معاوية زوج الخليفة عبد الملك، وليقول فيها ما قاله في أم البنين، وإن كانت لهذه منزلة خاصة في قلب ابن قيس، وربما لا تقل عن منزلة كثيرة إن لم تزد عليها.

وهكذا استطاع الشاعر أن يمزج بين الغزل والسياسة أو بين الغزل والهجاء، وتمكن من استخدام الغزل بالنساء كوسيلة إلى حرب الرجال من أجل التعبير عن آرائه حول قريش وأحقيتها في الخلافة.

شعر الرثاء:

إن أفضل ما قاله ابن قيس من شعر الرثاء هو ما قاله في أقاربـــه الذيـــن ماتوا في وقعة الحرة. فقد بكى فيه أكثر مما بكى في رثاء آخـــر، وكـــانت هذه الوقعة من أهم الأسباب في تحول الشاعر إلى الزبـــيريين، وســـبق أن مثلنا بهذا اللون من الرثاء، ونود أن نتكشف الأبعاد السياسية مـــن خـــلال رثاء ابن قيس لأصحابه، وبخاصة مصعب بن الزبير، وفي هذا الفن يميـــل الشاعر إلى الصراحة والصدق، وليس هناك ما يدعوه إلى مجافاة الحقيقـــة وسبك الأكاذيب.

وإذا كنا قد أكدنا على أفضلية القسم الأول الذى رثى فيـــه أقاربـــه فإننا نؤكد أيضاً أن القسم الثانى لم يخل من الحرارة والثورة والحزن غـــير أن الشاعر خلط هنا الرثاء بالمدح سواء ما قاله في رثاء مصعب أم ما قالـــه في رثاء بقية أصحابه كعبد الله بن جعفر وطلحة الخزاعي. كما اهتـــم فـــي هذا القسم بتعداد فضائل الميت ووصفه بالكرم والشـــجاعة علـــى طريقـــة القدامى الجاهليين.

وقد حرص في رثائه لمصعب على تمجيد انتصاراته والإشادة بـــه، وأبرز غدر العراقيين له عندما انحازوا إلى أعدائه أهل الشـــام، ويبـــدو أن الشاعر قد فطن لحاله، وتحسس مآله فلم يجرفـــه الحـــزن إلـــى مهاجمـــة الأمويين وإبراز كراهيته لهم مع أنهم حاربوا مصعبا فـــي ديـــر الجـــاثليق بالعراق، وقضوا عليه وعلى ثورة آل الزبير تماماً، لكنه اكتفى بالبكاء علـــى مصعب، وإسكاب عبراته، وإسالة أحزانه على قائده البطل مع تسفيه أهـــل العراق الذين كانوا أعوانا له، ثم صاروا اخوتـــه غـــادرين فتخلـــوا عـــن

مصعب، وانحازوا إلى أهل الشام بقيادة عبد الملك، ولنقرأ بعض مـا قالـه في مصعب[١]:

أتـاك بياسـرَ النبـأُ الجليـل — فليلُكَ إذ أتـاك بـه طويـل[٢]
أتـاك بـأن خـيرَ النـاس إلا — أميرَ المؤمنين بـها قتيـل[٣]
فقلت لمـن يخـبِّرني حزينـا: — أتنعى مصعبا؟ غـالتك غُـول
فـإن يَـهْلِك، فَجَدُّكُمُ شـقي — وعيشـكم، وأمنكـم قليـل
وإن يَعْمَـرْ فـإنكم بخـير — عليكم مـن نوافلـه فضُـول

وقال في رثائه أيضا:[٤]

إن الرزيَّـة يـوم مسـ — كَنَ والمصيبـة والفجيعـةُ[٥]
يـابن الحـواريّ الـذي — لـم يَعْـدُه أهـل الوقيعـة
غـدَرَتْ بـه مضـرُ العـرا — ق وأمكنـتْ منـه ربيعـة

ورثاه في قطعة من ثلاثة أبيات فقال فيها : [٦]

نعتِ السحائب والغمائم بأسْـرها — جسدا بمَسْكَنَ عاريَ الأوصـال
تُمسي عوائـذَه السـباعُ ودارُه — بمنـازلٍ أطلالـهن بَوالـي
رحل الرفـاقُ وغـادروه ثاويـا — للريح بين صَبا وبين شـمال

---

(١) الديوان ص ١٣٣
(٢) ياسر : اسم بلد.
(٣) أمير المؤمنين يقصد به عبد الله بن الزبير
(٤) الديوان ص١٨٤
(٥) مسكن : اسم موضع بالقرب من دير الجاثليق
(٦) الديوان ص ١٩١

ولعلنا نلاحظ جرأة ابن قيس شجاعته عندما نص في هذا الشعر على أن ابن الزبير هو أمير المؤمنين، وإن لم يندم فيه ببني أمية، وترى أن الشاعر أنصب كل حزنه وألمه في القطعة الأخيرة التى جعل فيها مصعبا غذاء للوحوش وللسباع وهو ابن حوارى رسول الله-صلى الله عليه وسلم، كما حمل أهل العراق تبعه خذه المأساة التى لم تكن جديدة عليهم، وقد وصفهم بالغدر ووصمهم بالعار في البيت الأخير الذى نص على هروبهم من الساحة وتركهم للرجل وهو حثه عارية تعبث بها الرياح وتأتى عليها السباع.

إن هذه المقطوعات والقصائد التى رثى بها الشاعر مصعبا تعد صفعة لأهل الشام والعراق معا، فقد قتله الأرلون، وتخلى عنه القانون، وبقيت هذه المراثى شهادة وفاء وإخلاص في سجل هذا الشاعر الزبيرى الصميم.

في رحاب الأمويين:

لم يخفت صوت أبن قيس بعد زوال الحركة الزبيرية، وإنما بقى على نشاطه وعمقه، فتقرب من الخليفة، ومدحه بأكثر من قصيدة، ولم تعمر الثقة بينهما فلم يكن في غاية الرضا منه؛ إذ قطع عنه العطاء، ولم يرض عبد الملك هو الآخر عما قيل فيه من شعر. فذهب ابن قيس إلى العراق، ومدح بشر بن مروان، وأشاد بكرمة وشجاعته، ثم تحول إلى عبد العزيز ابن مروان، وارتحل إليه في مصر، ومدحه بعدد أوفر من القصائد والمقطوعات، وقال فيه أفضل ما قاله من شعر للأمويين، وصار شاعره بعد أن عزم عبد الملك على صرف الخلافة عنه إلى ابنه الوليد، وقد دعا إلى حقه في الخلافة مندفعا إلى هذا المنزلق الخطر وخرج منه سالما بعد أن اعتذر إلى عبد الملك بأسلوبه وطريقته.

ولم يكن الشاعر – فيما نظن – متلونا أو كاذبا، فقد امتدح الزبيريين عندما أمل فيهم توحيد قريش وجمع صفوفها، ثم مدح الأمويين بصورة لا تعدل مدحه لآل الزبير إذ بقى على عهد الوفاء لهم، وكان في مديحه لعبد الملك وأخوته امتدادا لرأيه أو على الأقل لا يتعارض مع رأيه في الخلافة من حيث كونها في قريش وربما وجد البعض في تحول ابن قيس إلى بنى أمية وامتداحه لهم خيانة لحلفائه القدامى.

«١»

اتصل الشاعر بعبد الملك، ومدحه، لأنه عفا عنه، وأكرمه، ولم يكن ذلك خيانة للزبيريين–كما قلت ولا زلت أؤكد أن الشاعر له هدف سياسى فمتى نهض الأمويون بتحقيق هذا الهدف فهو موفق غاية التوفيق، ومن شعره فى عبد الملك: (١)

ما نَقَمُوا من بنى أميةَ إلّا ... أنهم يحلمون إن غَضِبوا
وأنهم معدِنُ الملوك فلا ... تصلُحُ إلا عليهم العرب
إن الفنيق الذى أبوه أبو الـ ... عاصى عليه الوقار والحُجُب(٢)
خليفةُ الله فوق مِنْبَره ... جفت بذاك الأقلام والكتب(٣)
يعتدل التاج فوق مَفْرِقه ... على جبين كأنه الذهب

فهذه الأبيات هى أول مدح لعبد الملك. إذ قالها الشاعر بعد أن مثل بين يدى الخليفة الذى لم يطب نفسا بها. فليس فيها صفات العدل والرحمة

---

(١) الديوان ص ٤

(٢) الفنيق : الفحل المكرم من الإبل الذى لا يركب ولا يهان

(٣) جفت بذاك الأقلام والكتب : أى قضى الله بذلك وسجله فى اللوح المحفوظ

والشجاعة مثلما كان يقول جرير والأخطل والفرزدق أو مثلما كان ابن قيس نفسه يقول لمصعب. ولهذا اعترض عليها فقال فيما ذكره صاحب الأغاني: "يا بن قيس تمدحني بالتاج كأني من العجم، وتقول في مصعب:

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماءُ

ملكه ملك عزةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ

أما الأمان فقد سبق لك، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً".[1] وكان عبد الملك قارئاً للشعر وناقداً ومتذوقا له، على أن الثقة لم تكن موجودة بين الشاعر والملك، ومع ذلك مدحه بقصيدتين أخريين، ثم انصرف عنه إلى العراق ومدح بشرا، واتصل بعبد العزيز في مصر ومدحه بأفضل مدح، ورجع معتذراً إلى عبد الملك بقصيدة ذم فيها الذين اغتابوه ونهشوا لحمه، ووصمهم بالشؤم، وجعلهم غربانا فقال:[2]

بَشَّرَ الظبيُ والغرابُ بسُعدى مَرحباً بالذي يقول الغراب

-٢-

وقد ذهب إلى العراق سنة ثلاث وسبعين للهجرة، ومدح بشر بن مروان بقصيدتين يقول في مطلع الأولى منهما:[3]

قد أتانا من آل سُعدى رسولُ حبذا ما تقولُ لي وأقولُ

وسعدى هذه واحدة ممن تغزل فيهن ثم جعل بشرا ملكا فقال:

---

[1] الأغاني جـ٥ ص٧٩

[2] الديوان ص ٨٤

[3] الديوان ص ١٤٤

مِلءُ وجهِهِ طليقٌ إلينا   حين نأتيه والعطاءُ جزيلُ

وامتدحه في القصيدة الثانية قائلا:(١)

يا بشرَ يا بنَ الجعفرية ما   خَلَقَ الإلهُ يديكَ للبخلِ
أنتَ ابنُ الأشياخِ الذين لهم   في بطنِ مكةَ عزَّةُ الأصلِ

ولم يخرج مديحه لبشر عن وصفه بالكرم والشجاعة وعراقة الأصل، وهي من الصفات التى تتكرر على ألسنة الشعراء، وقد عرف بشر بالسخاء في العطاء إذ أعطى ابن قيس على قصيدة واحدة مائة ألف درهم، وكان واليا على العراق من قبل أخيه عبد الملك، وبقى في محل ولايته حتى توفى عام ٧٥ هـ .

-٣-

ارتحل ابن قيس إلى مصر، ولزم عبد العزيز: وكاد يكون شاعره، ففي الديوان أربع قصائد في مديحه، وثلاثة منها من القصائد الطوال بالنسبة إلى قصائده الأخرى، وقد أبتدأ أولاها بالإشادة ببنى أمية وليس بالغزل مثلما قال في معظم مدائحه، قال.(٢)

لَحَيٌّ من أميةَ ليس في أخلاقهم رَنَقُ(٣)
يكونُ لخابطِ المعروف في واديهمُ ورَقُ(٤)

وقال:

(١) الديوان ص ١٩١
(٢) الديوان ص ١٥٨
(٣) الرنق : الكدر والفساد .
(٤) خابط المعروف : طالبه .

محـــلٌ قـــد تحُـــلُّ بـــــه لذيـــذ عيشـــه غـــدِقُ
يحُـلُّ بـه ابـن ليلـى والنـدى والحِلْـمُ والصِّـدقُ

وقد خلت هذه القصيدة من الحديث عن الصراعات السياسية، كما سلك فيها منهجا لم يتبعه في قصائد التى أنشدها بالشام والعراق، إذ وصف فيها رحلة الوالى من الإسكندرية إلى حلوان. كما أشاد بجمال الطبيعة وروعة النيل، وعظمة السفائن بما عليها من فرش وثياب وجواهر، ويبدو أن الشاعر قد نعم هنا بالخير والهدوء والطمأنينة، فصور الطبيعة.وأجاد في تصويرها من غير أن يؤثر في الغرض الأول للقصيدة وهو المدح، كما امتدح عبد العزيز في قصيدة أخرى فقال:[1]

لِتَهْنِـه مصـرُ والعـراق ومـا بالشأم من بَـزِّه ومـن ذَهَبِـه
أثن على الطيب ابـن ليلـى إذا أثنيتَ في دِينـه وفـي حسبـه
من يصدُق الوعدَ والقتال ويخْـ شى الله في حِلمه وفي غضبـه
يخلُفَكَ البيضُ مـن بنيـك كمـا يخلُف عود النُّضار في شُعَبه[2]
نحن على بيعـة الرسـول ومـا أُعْطِى من عُجْمه ومن عربـه[3]

ولعلنا نلاحظ ابن قيس في مسألة الخلافة عندما أخذ يدافع عن عبد العزيز، ويحتج لحقه في الخلافة بعد أخيه استنادا إلى وصية والده مروان بن الحكم، أما الأوصاف الأخرى التى ذكرها في مكررة مألوفة، وقد كان ابن

---

(١) الديوان ص ١٣

(٢) النضار : الشجر الناضر.

(٣) بيعة الرسول : أى بيعة ابن مروان لابنه عبد العزيز بعد عبد الملك، واستخدم كلمة الرسول تقديسا لهذه البيعة.

قيس صادقا مع عبد العزيز آمنا مطمئنا إلى جواره، ولهذا جاءت مدائحه في عبد العزيز أفضل ما قاله في بنى أمية، كما كان شعره فيهم أقل حوارة من الشعر الذي امتدح به مصعب بن الزبير.

مدح عبد الله بن جعفر (الهاشمى):

نهض عبد الله بن جعفر بدور كبير في الدفاع عن ابن قيس وحمايته من أن تصله يد الشر إليه فتوسط عند الأمويين حتى أخذ الأمان لهذا الشاعر الذي قال فيه عددا من القصائد والمقطوعات. ومن المؤكد أن اتصال ابن قيس بابن جعفر لم يكن ذا وجهه سياسية أو ممثلا للشيعة أو معبرا عن تيار سياسى في ذلك الوقت. وكل ما فعله أن مد يد العون لهذا الشاعر سواء من ناحية الأمان أم من ناحية العطاء ولم يجد ابن قيس غير المديح ليتوج به رأس هذا الرجل، وقد تحدث كتاب الأغانى عن هذه العلاقة، وذكر أكثر من نموذج لهذه المدائح، ويرجع مناسبة إحداها إلى الموقف الذى التقى فيه الشاعر بالخليفة حيث لم يرض عما قيل فيه من مديح، وقرر حرمان ابن قيس من العطاء فقال لابن جعفر[١] : "وما نفعنى أمانى، تركت حيا لا آخذ مع الناس عطاء أبدا، فقال له عبد الله بن جعفر كم بلغت من السن؟ قال: ستين سنة: قال: عمر نفسك، قال: عشرين سنة من ذى قبل؛ فذلك ثمانون سنة قال: كم عطاؤك، قال: ألفا درهم؛ فأمر له بأربعين ألف درهم، وقال: ذلك لك إلى أن تموت على تعميرك نفسك؛ فعند ذلك قال عبد الله بن قيس الرقيات يمدح عبد الله بن جعفر[٢] :

تقدتْ بى الشهباءُ نحو ابن جعفرٍ   سواءٌ عليها ليلُــها ونــهارها

---

[١] الأغانى جـ ٥ ص ٧٩

[٢] السابق جـ ٥ ص ٨٠

تزور امــــرأً قـــد يعلــم الله أنّـــهُ ... تجــودُ لـــه كـــفٌ قليـــل غرارُهـــا
أتيناك نُثنى بــــالذى أنـــت أهلُــــه ... عليك كما يُثنى على الروض جارها
فوالله لولا أن تزور ابـــن جعفـــر ... لكان قليلا فـــــي دمَشْـــقَ قرارهـــا
إذا مُتَّ لم يوصل صديق ولم تقـم ... طريقٌ من المعروف أنت منارهــــا

إلى آخر الأبيات التى ذكرها أبو الفرج كما في الديوان وإن اختلفـــت فـــي ترتيب أحد الأبيات، كما لا يخفى ما فيها من وصف لابن جعفـــر بـــالكرم والسخاء، وإن لم يتطرق إلى المناحى السياسية على عكـــس شـــعره مـــع الزبيريين أو الأمويين ولهذه الأبيات نقد لغوى ذكره عبد الملك عندما قـــال لابن قيس : ويحك يا بن قيس أما اتقيت الله حين تقول لا بن جعفر:

تزور امرأ قـــد يعلـــم الله أنـــه ... تجود له كف قليـــل غرارُهـــا

ألا قلت: قد يعلم الناس، ولم تقل: قد يعلم الله؟ فقال ابن قيس: قد والله علمـــه الله (وعلمته أنت) وعلمته أنا وعلمه الناس"[١]

يريد الخليفة أن يقول: إن استخدام قد أمام المضارع يفيد التقليـــل الـــذى لا يتناسب مع علم الله، ويرد ابن قيس بما يفيد أن المضارع قد جـــاء بمعنـــى الماضى ولذا صارت قد للتحقيق والتوكيد، وقصد في رده إخبار الخليفـــة أن كرم ابن جعفر قد علمه الله وعلمه سائر الناس أيضا. وقد جاء التنزيل بمـــا يتوافق مع قول ابن قيس قال تعالى: "قد يعلم الله المعوقين منكم، والقـــائلين لإخوانهم هلم إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلا " (الأحزاب ١٨)

---

[١] الديوان ص ١٨٩ الأغاني جـ ٥ ص ٨١

وتدور مدائح ابن قيس لابن جعفر حول وصفه بالكرم والمروءة والنجدة، وكلها صفات متأصلة في العرب . ويكثر ترددها في فن المديح . وعندما جاءت إلى عبد الله بن جعفر صلة من الخليفة لابن قيس خبأها عبد الله إلى أن حضر ابن قيس فسلمها له، وأعطاه جارية حسناء فقال ابن قيس:[١]

إذا زرت عبد الله، نفسي فداؤه	رجعتُ بفضل من نداهُ ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظا	ولم يك عني في المغيب بغافل
تدارك كني عبد الإله وقد بدت	لذي الحقد والشنآن مني مَقَاتلي

فالأبيات تدور حول صفات الكرم والمروة ولا تبدأ بالغزل، كما أنها لا تتعرض للمسائل السياسية التي أرهقت ابن قيس. وأغرقته في بحور الضيق والمعاناة، وليست في هذه القطعة أفكار جديدة تختلف عن غيرها.

وقد رثى ابن جعفر بعد موته فقال: [٢]

بات قلبي تشفُّه الأوجاع	من هموم تُجنُّها الأضلاع
من حديث سمعته منع النَّوْ	مَ فقلبي بما سمعت يُراع
هاشميٌّ بكفه من سجال الـ	مجد سَجْلٌ يُهان فيه المتاعُ[٣]
شِيَمُ الناس كلَّ ذلك فيه	شيمةُ الجُود ليس فيها خداع

وقد أبتدأ القصيدة التي تبلغ اثنى عشر بيتا بالحزن والبكاء على ابن جعفر، ثم أنهاها بالحديث عن عراقة أصله وكرمه وجوده، ولا تختلف أبياتها باستثناء بيتين أو ثلاثة–عما قيل في مدحه، ويبدو أن راوي الديوان لم يتنبه

---

[١] الديوان ١٨٩ والأغاني جـ٥ ص ٨٢ .

[٢] الديوان ص ١٤٧

[٣] السجل : الدلو

إلى ذلك فقدم القصيدة بقوله: " وقال ابن قيس يمدح عبد الله ابـــن جعفـــر، وأمه أسماء بنت عميس ..." والواضح أن البيت الأخير في القصيدة قد أسهم في إيجاد هذا اللبس إذ قال فيه:

فســتأتيك مِدْحَــةٌ مِــن كريــم ... ناله من نــدى سـجالك بــاعُ

ولو لا وجود بعض الأبيات أيضا لقلنا إن القصيدة في رثــاء مصعــب بــن الزبير فاسم أمه أسماء مثل أم ابن جعفر، كما أن وجود هذه القصيدة فــي رثاء ابن جعفر يجعل من اللائق إعادة لنظر في التاريخ المذكور لوفاة ابــن قيس وهو عام خمسة وسبعين للهجرة؛ لأن ابن جعفر الــذي قرأنــا شــعر رثائه قد توفي في عام ثمانين أو بعده، وإن كانت تواريخ الــولادة والوفــاة كثيرا ما يعتورها اللبس والاضطراب، فالشعر لابن قيس في رثاء عبــد الله بن جعفر بن أبي طالب

خاتمة القول:

١-لقد دافع ابن قيس عن قريش، وتعصب لــها، فــاتصل بــالزبير بيــن ومدحهم، وأشاد بهم، وأكد أحقيتهم في الخلافة، وبقي إلـــى جوارهــم حتى انتهت ثورتهم، ثم اتصل بالأمويين، ومدح عبد الملك وأخويه عبد العزيز وبشر، وكان شعره في عبد العزيز أفضل ما قاله من مدح فــي الأمويين، ولم يكن في ذلك خائنا للزبيريين إذ أن الخلافــة مــن حــق قريش سواء أكان الخليفة زبيريا أم أمويا أم هاشميا لكنه لم يتصل ببنــي هاشم كواحد من المتعصبين لهم، والداعين لحقهم في الخلافة، ولكنــه أراد أن يرد الجميل لابن جعفر فمدحه، وأثنى عليه، وأشاد بكرمه مــن غير أن يكون ذلك تعبيرا عن رأي سياسي أو تمثيلا لاتجــاه حزبــي،

وقد عبر عن كل ذلك من خلال المديح والفخر والغزل والرثاء، وهـــي فنون قديمة لكنه عرض لها بأسلوبه وطريقته في الأداء بما يتناسب مع العصر الذي عاشه، والتطور الذى تفاعل معه ولهذا كان واحـــداً مـــن الشعراء المعدودين في القرن الأول الهجرى.

٢-لقد تميز ابن قيس ببعض الخصائص التى تجعله منفردا فـــى معانيـــه وألفاظه وموسيقاه ولعل هذا راجع إلى نشـــأته فـــى مكـــة والمدينـــة ومخالطته لأهل الغناء والطرب في هاتين المدينتين، ولم يتخـــل عـــن مذهبه الشعرى إبان الفترة التى عاشها بعد ذلك في العـــراق والشـــام والحجاز ومصر، ولهذا جاء معظم شعره من المقطوعـــات والقصـــائد القصار باستثناء عدد من القصائد طال فيها نفس الشاعر فزادت عـــن الخمسين بيتنا، وقد لا حظنا ذلك في الهمزية التى امتدح فيها مصعبـــا وافتخر بقريش ولعل الشاعر عندمـــا خـــالط المغنيـــن اعتـــاد علـــى المقطوعات والقصائد القصيرة التى تصلح للغناء والتطريـــب، ولـــهذا عقد أبو الفرج في كتابه(الأغانى) ترجمة ضافية له، تحدث فيها عـــن حياته وشعره.

٣- لا حظنا أن القصائد التى كتبها الشاعر للإنشاد قليلة، ولا تؤثـــر فـــى مذهبه الشعرى، كما أنه مال إلى الأوزان الخفيفة، فالكثير من شـــعره يأتى من بحور المديد والكامل والوافر والمتقـــارب والرمـــل والـــهزج وربما استعمل بعض البحور الأخرى مثل الطويـــل اســـتتباعا لذوقـــه وميوله، وفي سبيل الخفة التى ينشدها ويتحراها نراه يميل إلـــى الأوزان المجزوءة كمجزوء الكامل، ومجزوء الوافر، كمـــا تتصـــف موســـيقى شعره بالنقاء والصفاء والعذوبة، وإلا لما صلح شعره للغناء، وقد خلـــط الشاعر بين المديح والغزل كما خلط بين المديح والفخر، ونظـــر إلـــى

هذه الفنون من منظور سياسي حتى قال بعض الباحثين:[١] " إن ما في الديوان ليس كل ما قاله الشاعر، ورأى أن اتصال الشاعر بالسياسة كان سببا في ضياع الكثير من شعره، كما سخر ابن قيس موهبته في الغزل لخدمة أغراضه السياسية، فتغزل في نساء بني أمية غزلا كأنه الهجاء، بينما تغزل في نساء كثيرات غزلا متوافقا مع مكانة من تغزل فيهن، وهو بذلك يعبر عن احتجاجه ورفضه لبني أمية، وتعصبه لقريش ولآل الزبير الذين كانوا معقد آماله فصاروا مبعث آلامه.

٤-بدت على شعر ابن قيس مسحه من الحزن والألم والمعاناة خاصة في شعره الذي رثى به أقرباءه الذين ماتوا في الحرة، أو ممدوحه مصعب ابن الزبير أو غيرهم ممن ماتوا في (الطف) أو (مرج راهط)، كما تميز شعره بصدق العاطفة وعمقها، فلم يطمع في مجد لنفسه أو لأسرته، وإنما كان يهدف إلى وحدة قريش، وترابطها، وإعادة مجدها، ولهذا بقي تعصبه لها طوال حياته سواء تواجد إلى جانب الزبيريين أو إلى جانب غيرهم ممن مدحهم أو التجأ إليهم.

واتجه بفنه إلى مكة والمدينة، وما فيهما من مناسك ومزارات فاحتفل بها وكررها في العديد من قصائده ومقطوعاته، ووضحت الروح الدينية التي اتصف بها وهو يمدح مصعبا أو يصف ورعه وتقواه، وهذا في حد ذاته كان باعثا على القلق والضيق لخصومه من بني أمية، وقد وصل ذلك إلى الحد الذي اعترض فيه عبد الملك على الأسلوب الذي مدحه به ابن قيس، ونؤكد على صدق العاطفة وعمقها وميلها إلى الحزن والكآبة،

---

[١] هو الدكتور إبراهيم عبد الرحمن في كتابه (ابن قيس الرقيات)

ولعلها تقترب من عاطفة الشيعة في حزنهم على من استشهد من الهاشميين.

٥-الصور والأخيلة في شعر ابن قيس على قلتها منتزعة من البيئة ومستوحاة من المجتمع الذى التحم فيه ، وتفاعل معه ، وربما اصطنع الأسلوب التصويرى الحزين كما في رثائه لشهداء الطف والحرة وحزنه عليهم، أو بسبب تفكيره في الموت والحياة. وكان ابن قيس ذا ذوق حضرى فلم يلجأ إلى الهجاء كوسيلة للدفاع عن فكره ومنظوره السياسى، ولم يلجأ إلى الفحش والإسفاف فيمن تعزل بهن، ولم يقل إلا ما يتردد على ألسنة الناس، ويتكرر على أفواه المغنين، وترضى له الكثرة من النساء.

٦-عمد ابن قيس في شعره إلى الوضوح والبساطة، وعدم التكلف ليتطاوع فنه مع المغنيين. ويسهل تداوله على ألسنتهم، ولا شك في أن اللغة عند الجاهليين وعند الإسلاميين كجرير والفرزدق تختلف عن اللغة عند ابن قيس ، فهى هنا سهلة خفيفة بعيدة عن التقعر، وخالية من الحوشى والغريب من الكلمات.

ومال الشاعر إلى استخدام الكلمات الموحية والمعبرة، وتجنب الأساليب الملتوية والمعقدة، واصطنع الرمز في الكثير من معانيه، لا لجبن؛ منه لمقدرته فى التعبير، فقد كان الرجل شجاعا إذ جعل خصومه السياسيين أعداء له وقد شاء الله لهذا الشاعر أن يكون لسانا معبراً عن قريش، تلك القبيلة التى كرمها الله بمحمد- صلى الله عليه وسلم- ورسالته، فبعث النبى فيهم ونزل القرآن الكريم بلغتهم،وكان ابن قيس متعصبا لها،وداعيا إلى وحدتها وتماسكها ولعلنا اليوم نعتبر بما فى الماضى من عبر وعظات.

أهم المراجع والمصادر للبحث في ابن قيس وشعره :

١-ابن قيس الرقيات، حياته وشعره.د/إبراهيم عبد الرحمن دار نهضة مصر.

٢-ابن قيس الرقيات، شاعر السياسة والغزل. على النجدى ناصف مطبعة مخيمر القاهرة سنة ١٩٤٩م.

٣-الأعلام، لخير الدين للزركلى (الجزء الرابع) الطبعة الثالثة.

٤-الأغانى، لأبى الفرج، طبعة دار الكتب المصرية، الأجزاء ١،٥،١٢ .

٥-البداية والنهاية في التاريخ، لابن كثير. مطبعة السعادة بالقاهرة.

٦-البيان والتبيين، للجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون ، الخانجي بالقاهرة.

٧-تاريخ آداب اللغة العربية، جورجى زيدان. دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٥٧م.

٨-تاريخ الأدب العربى(الأدب القديم) عمر فروخ، دار العلم للملايين عام ١٩٧٨م.

٩-تاريخ الأدب العربى (العصر الإسلامى) د/شوقى ضيف، دار المعارف عام ١٩٧٨م.

١٠-تاريخ الشعر السياسى، أحمد الشايب، مطبعة النهضة المصرية عام ١٩٧٦م.

١١-حديث الأربعاء، د/طه حسين، دار المعارف بمصر (الجزء الأول).

١٢-ديوان ابن قيس الرقيات، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم، دار بيروت للطباعة والنشر.

١٣-الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شـــاكر، طبعـــة دار التراث العربى (الجزء الأول).
١٤-الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية، د/شوقى ضيـف، دار المعارف بمصر، عام ١٩٧٩م.
١٥-في الشعر الإسلامي والأموى، د/عبـــد القـــادر القــط، دار النهضـــة العربية، بيروت سنة ١٩٧٩م.
١٦-في الشعر السياسى، عباس الجرارى، دار الثقافـــة بـــالدار البيضـــاء، المغرب.
١٧-من تاريخ الأدب العربى (العصر الجاهلى والعصر الإسلامى) المجلــد الأول، د/طه حسين، طبعة دار العلم للملايين، بيروت.
١٨-الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، لأبى عبـــد الله المرزبـــانى، المطبعة السلفية بالقاهرة .

الفصل الرابع
الخطابة فى العصر الأموى

خضع العصر الأموى لمجموعة من الأحداث والعوامل التى انعكست على الحياة الأدبية آنذاك، فتطور الشعر والنثر، وتميزا عما كانا عليه فى الجاهلية وعصر صدر الإسلام.

لكن تلك الأحداث أسهمت بدرجة كبيرة فى ازدهار الخطابة، ولا نبالغ فى القول بأن عصر بنى أمية هو العصر الذهبى للخطابة العربية.

ولقد أطلت الفتنة بقرونها فى السنوات الأخيرة لحكم عثمان بن عفان، وانقسم المسلمون فى عهد على بن أبى طالب، ورفع كل فريق راية التحزب فى عهد معاوية ومن جاء بعده، وتعالت الأصوات فى الجدل الدينى والسياسى، واتسعت رقعة الدولة، وكثر القواد والولاة، واشتعلت الحروب الداخلية بين بنى أمية وخصومهم، وزاد المد الإسلامى فى كل المسارات الخارجية، وظهر خطباء بارزون فى السياسة والدين والاجتماع من دعاة الأحزاب والقائمين بالثورات فى العراق وفارس وغيرها، وسائر الفرق الدينية ذات الآراء المختلفة بما لديهم من أفكاروآراء يطرحونها فى المحافل والمناسبات المختلفة بأساليب متنوعة.

١ - الخطابة السياسية :

كان بنو أمية يرون أنهم الأحق بالقيادة، والأقدر على الحكم، ولهذا نهض الخطباء فيهم بالدعوة إلى الوحدة والتمسك بحبل الجماعة، والخروج إلى الجهاد

ومحاربة الأعداء، وكانوا يجمعون فى خطبهم بين الترغيب والترهيب، ويستشهدون فيها بالقرآن والحديث والشعر، ويبنونها على الحجة والبرهان، أو يسوقونها وعظية خالصة حسب التوجه الذى يمثله كل واحد من هؤلاء الخطباء، ومن أبرزهم فى هذا لعصر معاوية بن أبى سفيان وعبد الملك بن مروان وعمر ابن عبد العزيز وسائر الخلفاء الآخرين.

كما اشتهر من الولاة عتبة بن أبى سفيان (والى مصر فى عهد معاوية) وزياد بن أبيه (أبى سفيان) والحجاج بن يوسف، وخالد القسرى، ويوسف بن عمر الثقفى.

ومن القواد الذين تميزوا عن غيرهم فى الخطابة موسى بن نصير، وطاق ابن زياد، وقتيبة بن مسلم، وفاتح التركستان (نصر بن سيار).

ومن أشهر الخطب السياسية فى هذا العصر: خطبة زياد بن أبيه فى البصرة، والتى تدعى البتراء، لأنه لم يحمد الله فيها، ولم يصل على النبى، وقيل: بل قال:

"الحمد لله على إفضاله وإحسانه، ونسأله المزيد من نعمه، وإكرامه، اللهم كما زدتنا نعما، فألهمنا شكرا.

أما بعد، فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغى الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته فى الزمن

السرمد الذى لا يزول، أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا، وسدت مسامعه الشهوات، واختار الفانيةعلى الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا إليه: من ترككم الضعيف يقهر ويؤخذ ماله، وهذه المواخير المنصوبة، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر، والعدد غير قليل، ..."

والخطبة طويلة بالنسبة لما فى عصرها من خطب كثيرة نقل عنها، ولم تتأثر قوتها وبلاغتها وتأثيرها بهذا الطول فهى واحدة من أروع الخطب فى هذا العصر، وإليك الجزء الأخير منها .... " أيها الناس إنا أصبحنا لكم سادة وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا، ونذود عنكم بفئ الله الذى خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا، واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجبا عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقا بليل، ولا حابسا عطاء ولا رزقا عن إبّانه، ولا مجمِّرا لكم بعثا، فأدعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدبون وكهفكم الذى إليه تأوون، ومتى يصلحوا تصلحوا، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم، ويطول له حزنكم، ولا تدركوا به حاجتكم، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرا لكم، أسأل الله أن يُعين كلا على كل، وإذا رأيتمونى أُنْفِذُ فيكم الأمر فانفذوه، على إذلاله وايم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى"[١].

---

(١) البيان والتبيين جـ٢ ص: ٦٥ تحقيق عبد السلام هارون.

وذكر الجاحظ بعض الأقوال والآراء عن هذه الخطبة أظهر أصحابها الإعجاب بأسلوب زياد، واستنكر بعضهم ما ذكره من تهديد ووعيد.

ويرز من الخوارج خطباء كثيرون، أظهروا حماسة شديدة في عقيدتهم، ودعوا لها جهارا، وتصدوا لبني أمية بألسنة حداد، "وقد تعددت فرقهم، وأهمها: الأزارقة في فارس، والنجدات في اليمامة، وحضرموت والبحرين، والصفرية في الموصل وشمالي العراق، والإباضية في اليمن وحضرموت"(١).

ومن أشهر خطبائهم نافع بن الأزرق، وقطري بن الفجاءة (من الأزارقة) وعمران بن حطان، والطرماح، بن الحكم (من الصفرية)، وعبد الله بن يحيى الكندي وأبو حمزة الشاري (من الإباضية).

ومن خطبة لعبد الله بن يحيى زعيم الإباضية لما استولى على اليمن سنة تسع وعشرين ومائة قال:

"إنا ندعوكم لكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا ومحمد نبينا، والكعبة قبلتنا، والقرآن إمامنا، رضينا بالحلال حلالا لا نبغي به بديلا، ولا نشتري به ثمنا قليلا، وحرمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ولا حول ولا قوة إلا بالله،وإلى الله المشتكى وعليه المعول، من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر، ومن شك في أنه كافر فهو كافر".

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر الأدبي ص: ٦٤ د/ شوقي ضيف، طبع دار المعارف.

ويدل هذا القدر من الخطبة على التشدد في الحكم، والتطرف في الرأي، وفيما عدا ذلك فإن خطب الخوارج غالبا ما تتحول إلى موعظة خالصة، ودعوة صادقة للأخذ بكتاب الله والتنفير من الدنيا، والعمل للآخرة.

وقد استقر شيعة على في العراق، ونادوا بحق أبناء على في الخلافة، وتصدوا لبني أمية بالسنان واللسان، وانقسموا – مثل الخوارج – إلى عدة فرق، وظهر من بينهم خطباء كثيرون شرحوا منهاجهم السياسي، ودعوا إلى الثأر والانتقام من بني أمية. ومن أشهر خطبائهم الذين ينتمون إلى هذا الحزب، ويعبرون عن آرائه: الحسين بن على وعبيد الله بن عبد الله المرى، والمختار الثقفي المؤسس لإحدى فرق الشيعة، وهي (الكيسانية)، والذي قضى مصعب بن الزبير عليه بعد معارك طاحنة، وكان المختار متقلبا في سياسته ومغرما بالسجع واللفظ الغريب والمعنى البعيد في خطابته كمثل قوله: "أما ورب البحار والنخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبار، بكل لدن خطار ومهند بتار في جمع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار، حتى إذا أقمت عمود الدين، ورأبت شعب صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت بثأر النبيين، لم يكبر على زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا أتى"[١].

---

(١) المهامة: الفيافي، واللدن الخطار: الرمح الضارب، والبتار: القاطع، والميل: جمع أميل وهو الجبان، والأغمار: جمع غمر وهو ناقص التجربة، والعزل: جمع أعزل وهو المجرد من السلاح، رأبت: أصلحت، الشعب: الصدع، أحفل: أبالي.

أما دعوة عبد الله بن الزبير فلم تعمر كثيرا، وكانت بمثابة ثورة لم تطل نهض بها في الحجاز أثناء خلافة يزيد بن معاوية، وتبعته العراق ومصر، إلى أن تم القضاء عليه في خلافة عبد الملك بن مروان.

وكان عبد الله ومصعب ابنا الزبير خطيبين بما يملكانه من قدرات بيانية على خلب الأسماع، والتأثير في الناس بالطعن في بني أمية والرد على الخوارج، وكان عبد الله قد بعث أخاه مصعبا للولاية على البصرة سنة سبع وستين من الهجرة فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

"**بسم الله الرحمن الرحيم** ﴿طسم ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾، " وأشار بيده نحو الشام"[١].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ " وأشار بيده نحو الحجاز"[٢].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ "وأشار بيده نحو العراق"[٣].

---

(١) يريد عبد الملك بن مروان وبني أمية.

(٢) يريد أخاه عبد الله بن الزبير ومن معه.

(٣) يريد المختار الثقفي وجماعته.

ولم يتجاوز مصعب القرآن الكريم، حيث قرأ بعض الآيات من أول سورة القصص، ووظف إشارة يده لبيان ما يقصده، والقرآن بحر زاخر وعطاء لا ينفد.

وظهر خطباء آخرون من خلال بعض الثورات التى قامت ضد نظام الحكم الأموى مثل ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، ضد الحجاج بن يوسف – والى بنى أمية على العراق، ومثل ثورة قتيبة بن مسلم الباهلى، ويزيد ابن المهلب فأصحاب هذه الثورات كانوا يحرضون الناس – فى زمن بنى أمية – ويكشفون ما فى نظام الحكم من تجاوزات ومظالم، ولم يقتصر الصراع السياسى على الأحزاب والثورات المذكورة وإنما شمل أطرافا أخرى شاركت فى النزاعات الداخلية من أجل السلطة.

فالحياة السياسية فى عصر بنى أمية أفرزت عددا من الخطباء ذوى نزعات وتوجهات مختلفة، وهى لا تخرج عن دعوة كل فريق إلى بيان حقه فى الخلافة، أو شرح رأية فيها، واتهام الأمويين بالظلم والقسوة، بأساليب تتواكب مع العنف أحياناً وتميل إلى الوعظ والنصح واللين فى أحيان أخرى.

لقد ازدهرت الخطابة على اختلاف ألوانها وضروبها فى عصر بنى أمية، وتجلى ذلك فى الخطابة السياسية بخاصة، ويرجع هذا فى المقام الأول إلى السليقة اللغوية عند العرب، التى ارتبطت بهم، وتميزوا فيها..." وكانوا من بلاغة المنطق وحسن البيان، وجودة الإفصاح والإفهام بحيث يستطيع متكلمهم أن يبلغ ما يريد من استمالة الأسماع مع الديباجة الرائعة والرونق البديع" (١)

---

(١) تاريخ الأدب العربى – العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف، ص: ٤٠٥.

وقد عانت الدولة الأموية من الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار، فقامت الأحزاب بالدعوة لنفسها وبيان توجهاتها والطعن فى خصومها، كما أدى اتساع الدولة فى ظل النظام السياسى الجديد – إلى قيام الحاكم أو الوالى بشرح المنهاج أو الخطة التى سيسير عليها، ولم يصلح الشعر لذلك وكانت الخطابة أفضل الوسائل للاتصال بين الحاكم والمحكومين.

ومما أسهم فى هذا الازدهار أيضاً أن حركة الفتوح والمغازى الإسلامية قد نشطت كثيرا خلال القرن الأول بخاصة، واحتاجت إلى خطباء بارزين يحمسون الجيوش، ويدفعون الجنود، لاقتحام الصفوف، وخوض المعارك، ولهذا كان القواد من الخطباء المفوهين.

وأهم الأسباب لتطور الخطابة وازدهارها بشكل عام فى هذا العصر هو القرآن الكريم، لأنه المعين الذى كان الخطباء يستمدون منه ثروتهم البيانية واللغوية، إذ أنهم تأثروا به فى اللغة والأسلوب والمعانى.

ولا يتوقف هذا التأثر على القرآن، بل يشمل سائر ما قاله الرسول (ﷺ) من خطب وأقوال، وما خلفه العرب من تراث خالد شعرا ونثراً.

وتتميز الخطابة العربية فى عصر بنى أمية بفخامة اللفظ، وشدة الأسر، واحتذاء التراث القيم بما فيه من بداوة وأصالة، والاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى، والتمثل بالشعر، والميل إلى السجع والتوازن.

وكان بعض الخطباء السياسيين يميلون فى أساليبهم إلى العنف والشدة والوعد والوعيد والتهديد والسب والشتم، كما كان الحال فى بعض خطب زياد ابن أبية والحجاج بن يوسف.

٢ ـ ألـــوان أخرى :

لم تكن الخطابة فى العصر الأموى قاصرة على السياسة والحكم وإنما ظهرت ألوان أخرى من أهمها الخطابة الدينية التى تقال فى أيام الجمع والأعياد والمناسبات الإسلامية، ويغلب عليها الوعظ والقصص، ومن أشهر خطباء هذا اللون عبد الله بن عمرو بن العاص بمصر، ورجاء بن حيوة بالشام، وسعيد بن المسيب فى المدينة، والحسن البصرى بالعراق، كما بـــرز خطبـاء لهــذا اللــون من الأحزاب المختلـــفة تخلوا عن انتماءاتهم السياسية، ونهضوا بدورهم فى خدمة الإســـلام مثل تلـك الخطـب التـى قالها قطرى بن الفجاءة وهو زعيم خارجى معروف.

كما أفرزت الفرق الإسلامية والمذاهب الكلامية التى ظهرت فى هذا العصر مجموعة من الخطباء المشهورين مثل واصل بن عطاء.

لقد كان المجال واسعاً ورحيباً للخطابة العربية فى هذا العصر الفريد، فالخطباء يتحدثون فى السياسة والعقائد والاحتفالات التى يقيمها الحكام والولاة للوافدين عليهم للبيعة أو الشكوى، أو التهنئة أو التعزية، وتكون الخطابة أحياناً فى المناسبات الاجتماعية كالمصاهرات والإصلاح بين الناس، على أن الخطباء كثيراً ما يمزجون فى خطبهم بين الوعظ والسياسة والتهنئة، وكانت الخطابة الدينية هدفا للكثيرين، فإذا تكلم الرجل فى السياسة انبرى فى خطبته واعظاً ومرشدا، وإذا شهد احتفالاً أو تهنئة رفع عقيرته مستشهداً بالقرآن الكريم، ومقتبساً من سوره وآياته، مما يؤكد شدة التأثر به، كما كانت الخطابة تتحول فى كثير من الاحتفالات إلى نصح ووعظ وإرشاد كما سوف نرى بعد قليل.

خطبة واصل بن عطاء التي جانب فيها الراء:

ولد واصل بن عطاء بمدينة الرسول (ﷺ) سنة ثمانين للهجرة، ونزح إلى العراق، ولزم الحسن البصري إلى أن اختلف معه حول مرتكب الكبيرة، واعتزله وأسس مذهباً (خاصاً) انضوى الكثيرون تحت لوائه.

وتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال.

وكان واصل ألثغ، إذ لم يقدر على النطق بالراء، واعتبره عيباً شنيعاً، فكان يتهرب منه بمجانبة نطقه في كلامه، وقد ذكر ابن العماد الحنبلي أنه رفعت إليه رقعة ومضمونها:

" أمر أمير الأمراء الكرام أن تحفر بئر على قارعة الطريق فيشرب منها الصادر والوارد" فقرأ على الفور: "حكم حاكم الحكام الفخام أن ينبش جب على جادة الممشى، فيستقى منه الصادى والغادى".

وقد تحدث رائد المحققين للتراث العربي عبد السلام هارون معقباً على الموقف السابق فقال: "وهذه الرواية توحى بأن واصلاً كان يشعر بتلك العاهة شعورا مستبداً تجعله يتجنب الوقوع في إشراكها، وتوحى أيضاً أن القوم كانوا يداعبونه على ضوئها، ويتحينون الفرص للتندر به وبها"[1].

ولم يغب عما كانوا يختلفون مع واصل أنه كان يملك موهبة بيانية متميزة، وثروة لفظية هائلة، وهو خطيب بارز ومتحدث لبق ومجادل عنيد[2].

---

(١) نوادر المخطوطات. مجلد /١ ص: ١٢٦، طبع: مصطفى البابي الحلبي.

(٢) كان واصل يقرأ سورة الإخلاص عندما يطلب منه قراءة سورة من القرآن الكريم؛ وذلك لخلوها من حرف الراء.

الخطبـــــة :

" الحمد لله القديم بلا غاية، والباقي بلا نهاية، الذي علا في دنوه، ودنا في علوه، فلا يحويه زمان ولا يحيط به مكان، ولا يؤوده حفظ ما خلق، ولم يخلقه على مثال سبق، بل أنشأه ابتداعاً، وعدّله اصطناعاً، فأحسن كل شئ خلقه وتمم مشيئته، وأوضح حكمته، فدل على ألوهيته فسبحانه لا معقب لحكمه ولا دافع لقضائه، تواضع كل شئ لعظمته وذل كل شئ لسلطانه، ووسع كلَّ شئ فضلُهُ، لا يعزب عنه مثقال حبة وهو السميع العليم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا مثيل له، إلها تقدست أسماؤه، وعظمت آلاؤه، علا عن صفات كل مخلوق، وتنزه عن شبه كل مصنوع، فلا تبلغه الأوهام، ولا تحيط به العقول ولا الأفهام، يُعصى فيحلم ويُدعى فيسمع، ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون.

وأشهد شهادة حق وقول صدق، بإخلاص نية، وصدق طوية أن محمد ابن عبد الله عبده ونبيه وخالصته وصفيه، ابتعثه إلى خلقه بالبينات والهدى ودين الحق، فبلغ مألكته[١]، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يصده عنه زعم زاعم، ماضياً على سنته موفيا على قَصْده، حتى أتاه اليقين.

فصلى الله على محمد وعلى آل محمد أفضل وأذكى، وأتم وأنمى، وأجل وأعلى صلاة صلاها على صفوة أنبيائه، وخالصة ملائكته، وأضعاف ذلك، إنه حميد مجيد.

---

(١) المألكة: الرسالة.

أوصيكم عباد الله مع نفسي بتقوى الله، والعمل بطاعته، والمجانبة لمعصيته، فأحضكم على ما يدنيكم منه، ويزلفكم لديه، فإن تقوى الله أفضل زاد وأحسن عاقبة في معاد، ولا تلهينكم الحياة الدنيا بزينتها وخداعها، وفوائن لذاتها وشهوات آمالها، فإنها متاع قليل، ومدة إلى حين، وكل شئ منها يزول.

فكم عاينتم من أعاجيبها، وكم نصبت لكم من حبائلها، وأهلكت ممن جنح إليها، واعتمد عليها، أذاقتكم حلواً ومزجت لهم سما.

أين الملوك الذين بنوا المدائن، وشيدوا المصانع وأوثقوا الأبواب، وكاثفوا الحجاب، وأعدوا الجياد، وملكوا البلاد، واستخدموا التلاد، قبضتهم بمخلبها وطحنتهم بكلكلها، وعضتهم بأنيابها، وعاضتهم من السعة ضيقا، ومن ا لعز ذلا ومن الحياة فناء، فسكنوا اللحود، وأكلهم الدود، وأصبحوا لا تعاين إلا مساكنهم، ولا تجد إلا معالمهم، ولا تحس منهم من أحد ولا تسمع لهم نبسا، فتزودوا عافاكم الله، فإن أفضل الزاد التقوى، واتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون. جعلنا الله وإياكم ممن ينتفع بمواعظه، ويعمل لحظه وسعادته، وممن يستمع القول فيتبع أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب. إن أحسن قصص المؤمنين، وأبلغ مواعظ المتقين، كتاب الله، الزكية آياته، الواضحة بيناته، فإذا تلى عليكم فاستمعوا له، وأنصتوا لعلكم تهتدون.

أعوذ بالله القوى من الشيطان الغوى، إن الله هو السميع العليم، بسم الله الفتاح المنان، قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم، وبالآيات والوحى المبين، وأعاذنا وإياكم من العذاب الأليم، وأدخلنا وإياكم فى جنات النعيم، أقول ما به أعظكم، وأستعتب الله لى ولكم"(١).

تتميز هذه الخطبة بألفاظها التى تخلو من حرف الراء مع أنها قيلت ارتجالا، وقد ذكر فيها سورة واحدة من القرآن الكريم، وهى سورة الإخلاص، لأنها تخلو من حرف الراء، واقتبس كثيرا من المعانى القرآنية، وتجنب الحديث عن السياسة والمذاهب الكلامية، وقصر الخطبة على الوعظ الخالص.

مع أنه قالها فى حفل عند عبد الله بن عمر بن عبدا لعزيز (والى العراق) أقيم بين عامى (١٢٦)، (١٢٩) هجرية فهى خطبة دينية احتفاليـة فاق واصل بها الذين خطبوا قبله، وغلبهم وتفوق عليهم، فأجزل الوالى له العطاء تقديرا وإعجاباً.

ونؤكد على أمر وهو أن واصلا كان معتدا ببلاغته وفصاحته ومعارفه اللغوية، ولولا ذلك لما أدخل نفسه فى هذا التحدى والعناد الشديد، ولعله قد بالغ فى إحساسه بعيب اللـثغ، ولو ترك نفسه على سجيتها ونطق بكل ما عن له من غير أن يتجنب حرف الراء لأتى بالمعجب المبهر الذى يفوق ما قال.

فالتميز فى الخطبة راجع إلى ألفاظها ومفرداتها، تراكيبها، لكن الرجل لم يستطع أن يذكر صاحب الاحتفال مثلا ولم يستشهد بغير سورة الإخلاص من القرآن الكريم، ولم يخرج عن النسق المعد فى ذاكرته.

---

(١) نوادر المخطوطات ملجد ١ص: ١٣٤ وما بعدها.

الفصل الخامس
أطوار الكتابة الفنية

كانت معرفة العرب للكتابة فى العصر الجاهلى على نطاق ضيق ، بـــدأت دائرته فى الاتساع مع الحاجة إليها فى بداية العصر الإســـلامى ، إذ كـــان الرسول صلى الله عليه وسلم حريصا على توجيه أصحابـــه إلـــى القـــراءة والتعلم، واعتمد على مجموعة من الرسائل ، دعا فيها بعض ملوك الـــدول المجاورة إلى الإسلام ، واستمر ذلك الاهتمام فى عهد الخلفاء الراشـــدين . وقد اشتدت الحاجة إلى الكتابة والتدوين فى عهد عمر بن الخطاب ، وسبق أن تعرضنا لرسالته عن القضاء التى بعث بها إلى أبى موسى الأشـــعرى ، كما أنه أول من دون الدواوين فى الإسلام ، ويحتاج ذلك إلى المزيـــد مـــن العناية بالتسجيل والكتابة ، ولا يغيره -بأية حال- القول باســـتعارته لـــهذا النظام من الفرس الأعاجم ، وإنما يزكيه ، ويرفع من شأنه للدلالـــة علـــى قبوله لتجارب الأمم الأخرى مادامت فى صالح المسلمين ، فهذه الدواويـــن ليست إلا سجلات لحفظ استحقاقات الناس من الأموال .

وكان سرجون بن منصور (الرومى) [1] من كتاب ديوان الخـــراج فـــى عهد معاوية وبعض الخلفاء من بعده ، وكان الكتاب من العرب والموالـــى والمتعربين فى سائر الأمصار ، حيث كانت الكتابة باللغة المحلية فى كـــل إقليم ، واستمر هذا العهد إلى زمن عبد الملك وابنه الوليد، حيث توحـــدت لغة الدواوين؛ لتكون اللغة العربية فى سائر الأمصار فى مراحل متقاربـــة ، وعلى أثر ذلك حل (سليمان بن سعد الخشنى) فى ديوان الخـــراج محـــل

---

[1] ذكر الجهشيارى (الرومى) لقبا له صــ ٢٤ ، وذكر آخر هو (النصرانى) صـــ ٣٢ من كتابه (كتاب الوزراء والكتاب) .

(سرجون) في عهد الوليد بن عبد الملك ، كما حل (صالح بن عبد الرحمن) محل (زاذان فروخ) في العراق، بأمر الحجاج سنة ثمان وسبعين حيث تم نقل الدواوين إلى العربية وهذا بعض ما يمكن أن يقال هنا ، لأن الحديث عن سائر الكتاب مبسوط ومتصل بكتاب أبي عبد الله الجهشياري[١] .

ونأتي إلى ديوانين آخرين أنشأهما معاوية بن أبي سفيان وهما ديوان الرسائل وديوان الخاتم، وهذا الثاني " وفيه كانت تختم الرسائل الصادرة عنه ، حتى لا يغير فيها من يحملونها إلى الولاة "[٢] وذكر الجهشياري موقفا معينا لعمرو بن الزبير غير مقدار عطائه بكتاب معاوية إلى زياد عامله على العراق ، وتقلد هذا الديوان عبد الله بن محمد الحميري، وكان قاضيا، أما ديوان الرسائل فهو موضع حديثنا المفصل، ذلك؛ لأن الخلفاء والأمراء أعطوا هذا الديوان عناية فائقة في الصياغة والتنسيق واختيار الألفاظ، ولأنه قد ولد ونشأ عربياً إذ كان كل خليفة يتخذ كاتبا يملي عليه رسائله ، ومن الذين كتبوا لمعاوية عبيد الله بن أوس الغساني، وعبد الرحمن بن دراج وعمرو بن سعد بن العاص الذي لقب بالأشدق لفصاحته، واكتسب كثيرا من الكتاب دربة كبيرة فصاروا يحبرون رسائل الولاة والقواد، وانتقل الديوان مع الخليفة في دمشق أو مع الولاة والقواد، في الأمصار إلى مرحلة جديدة يشبه فيها رئاسة الوزراء ، ورئيس الديوان والمسمى بالكاتب هو الذي ينهض بإنشاء الرسائل التي يبعث بها الخليفة إلى الولاة ، واشتهر كتاب كثيرون في هذا اللون من الكتابة التي

---

[١] هو الكتاب السابق بتحقيق مصطفى السقا وآخرين طبع مصطفى الحلبي .

[٢] تاريخ الأدب العربي – العصر الإسلامي ، د. شوقي ضيف ص ٤٦٥

كانت تميل إلى الإيجاز وتتميق العبارة ، وبها تحميدات وخواتيم ، وتطورات، فصارت فنا رسميا يتعلق بشؤون الدولة، ولها رجال محترمون ينهضون بها ويترقون فيها .

كتّاب الرسائل

حفل كتاب الوزراء والكتاب للجهشيارى بطائفة كبيرة من سائر الكتاب ممن كانوا يعملون بالدواوين المختلفة كالخراج والجند والصدقة والخاتم وغيرها .

ويعنينا هنا ديوان الرسائل ؛ لأنه الجهة الأولى التى تولت هذا اللون من الكتابة بصفة رسمية، وذلك بفضل جماعة من أرباب الفصاحة والبيان كانوا يختارون بعناية وازدادت الثقة فيهم ، فصاروا يتولون كتابة الرسائل بأنفسهم فى مهارة فائقة، وقد كتب عبد الله بن أوس لمعاوية وابنه يزيد ، وكتب عمرو بن نافع لعبيد الله بن زياد ، ولعله أول من أطال فى كتابة الرسائل ، وكتب صالح بن عبد الرحمن للحجاج ، بينما كان روح بن زِنْباع كاتبا لعبد الملك بن مروان ، وكتب الليث بن أبى رقية لسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، كما كتب لعمر أيضا رجاء بن حيوة وإسماعيل بن أبى حكيم .

وتبرز فى بدايات القرن الثانى شخصية متميزة فى كتابة الرسائل، ظهرت من خلالها شخصية الكاتب، ولم يكن ذلك سوى أبى العلاء (سالم) مولى هشام بن عبد الملك (أو الوليد بن يزيد) والذى كان يجيد اللغة اليونانية، حيث ترجم منها إلى العربية رسائل أرسطاطاليس واستطاع أن ينقل تجربته إلى ابنه عبد الله بن سالم وشخص أكثر تميزا هو ختنه (صهره) عبد الحميد بن يحيى، وهذا الأخير صاحب دور مؤثر فى إنماء الكتابة

الفنية وتميزها وازدهارها ، وإفادتها بما نقله من بعض الرسائل الفارسية إلى اللغة العربية.

كتابة الرسائل

نقل المبرد إلى كتابه (الكامل) مجموعة من الرسائل التي تمثل هذا العصر مثل رسائل الخوارج والشيعة والزبيرين ، ولم يقتصر ذلك على المبرد وكامله، وإنما نجد كتب الجاحظ والجهشياري وابن عبدربه وغيرهم، وقد جمع (أحمد زكي صفوت) قدراً كبيرا منها في كتابه جمهرة رسائل العرب .

وهذه رسالة كتبها الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة:

" سلامٌ عليك . أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، وقد علمت حين تجرثَمْتَ ، ذاك أنك عاصٍ لله ولولاة أمره ، غير أنك أعرابي جِلْفٌ أمي ، تستطعم الكِسْرة وتستشفي بالتمرة ، والأمور عليك حَسْرَة خرجت لتنال شُبْعَة فلحق بك طَغَامٌ صَلُوا بما صَلِيتَ به من العيش، فهم يهزّون الرماح ، ويستنشئون الرياح ، على خوف وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظمُ مما جهلوا معرفته ، ثم أهلكهم الله بترّحَتين . والسلام " [١]

فأجابه قطري:

" من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف . سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نِقَمه . فالحمد لله على ما أظهر من

---

[١] تجرثمت : سقطت من علو إلى أسفل ، والشبعة مقدار ما يشبع به من الطعام، الطغام : أوغاد الناس ، الواحد والجمع فيه سواء ، يستنشئون الرياح : يشمون ريح الطعام ، بترحتين : بحزنين أو معيبتين

دينه ، وأظْلَع به أهل السِّفَال ، وهدًى به من الضلال ونصر به ، عند استخفافك بحقه .

كتبت إلى تذكر أنى أعرابى جلف أمى ، استطعم الكسرة ، واستشفى بالتمرة . ولعمرى يا ابنَ أمّ الحجاج إنك لَمُتَيَّه فى جبلتك ، مُطلخِمٌّ فى طريقتك ، واهٍ فى وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك ، يئست واستيأست من ربك ، فالشيطان قرينك ، لا تجاذبه وثاقك، ولا تنازُعه خِناقك . فالحمد لله الذى لو شاء أبرز لى صفحتك، وأوْضَحَ لى صَلَعَتك ، فوالذى نفس قطرى بيده، لَعَرَفْتَ أن مقارعة الأبطال، ليس كتصدير المقال، مع أنى أرجو أن يدحض الله حجتك ، وأن يمنحنى مهجتك "[1] .

ومن الواضح أن الاتهام بالضلال يتجلى بصورة أوضح فى رسالة الحجاج، مع الحرص فى الرسالتين على قوة الألفاظ والتآلف فى الصياغة، ويلاحظ أن رسالة قطرى مزينة بالسجع غير المتكلف، وفيها تعريض بالحجاج متحاشيا الأسلوب المباشر الذى يندرج تحت طائلة العقاب، وكرر فيها الحمد، وذكر اسم الله ، للتأكيد على عقيدة الخوارج وإيمانهم بالله .

وتميزت الرسائل فى عهد عمر بن عبد العزيز بالإيجاز والتركيز؛ واشتمالها على النصيحة والموعظة، فقد كتب له الحسن البصرى : " أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن ، بالآخرة لم تزل "[2] وكثرت رسائل الحسن خاصة تلك التى كتبها إليه بعد توليه الخلافة فى صفة الإمام العادل ، وكان

---

(١) البيان والتبين جـ٢ ص ٣١٠ ، ص ٣١١ ، أظلع من الظلع وهو الغمز فى المشى ، والسفال : من سفول الخلق ، وقوله : يا ابن أم الحجاج : طعن فى نسبه ، متيه: مضلل ، مطلخم : متكبر ، الوثيقة : الثقة ، الخناق: الحبل الذى يخنق به ، الصلعة : موضع الصلع فى الرأس وتصدير المقال : تقديمه .

(٢) البيان والتبين جـ٢ ص ٧٠ ، جـ ٣ ص ١٣٨

عمر يدعو إلى تصغير الخطوط لترشيد الإنفاق في استعمال الأوراق والأحبار ، ومن أوجز الرسائل أيضا ما كتبه عدى بن أرطاه قائلا له : " أما بعد ، فإن الناس قد كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج " فرد عليه عمر :

" فهمت كتابك واالله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا " [١]

وفي العقد الفريد رسالة عن شكر النعمة من عدى إلى عمر - وددت أنا كذلك - لو ذكرتها ، لولا خوف الإطالة ، وليرجع من شاء إليها[٢] وإلى غيرها . ويذكر لعمر أمره بتدوين الحديث النبوى تدوينا عاما بعد تأخر هذا الأمر عشرات السنين كان المسلمون فيها مشغولين بالقرآن الكريم وكأنهم لا يرغبون في أن يصرفهم عنه شئ ، حتى لو كان ذلك الشئ هو حديث الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويعد سالم بن عبد الله (مولى هشام) واحدا من الكتاب الذين خطوا بالكتابة الفنية خطوات متميزة في تأثرها بالثقافتين العربية واليونانية وصيروتها فنا أدبيا وصناعة ممتعة بالسجع غير المتكلف واشتمالها على الجمل القصيرة المتوازنة ، وتنوع الأغراض والأهداف بين سياسية ووعظية واجتماعية وإخوانية . وهذه الأخيرة قد تجلت بفضل أول الكتاب المشهورين في مجال الكتابة الفنية وهو عبد الحميد بن يحيى الذى كان ظهوره بداية لمرحلة جديدة من عمر النثر الأدبى حتى بالغ الناس في تقديره والثناء عليه فقالوا " بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد " .

---

[١] عن كتاب (فى الأدب الأموى) لسليمان ربيع ص ٢١٠

[٢] العقد الفريد جـ١ ص ١٩١ (ت . محمد سعيد العريان)

عبد الحميد بن يحيي

ولد أبو غالب عبد الحميد بن يحيي بن سعد حوالى عام ٦٠هـ في مدينة الأنبار على نهر الفرات بالعراق، وانتقل إلى أهله في الرقة، وكانت نشأته بالشام إذ قيل إنه لم يكن عربيا بل مولدا فارسيا أو أرميا وجده سعد مولى للعلاء بن وهب العامرى (القرشى) من بنى عامر بن لؤى بن غالب، وتزود بالقرآن واللغة والشعر والأخبار، وسائر العلوم ، واشتغل معلما للصبيان فى بداية الأمر ثم انتقل إلى ديوان الرسائل بدمشق فى خلافة هشام بن عبد الملك حيث تلقى صناعة الكتابة على (مولى هشام) أبى العلاء سالم بن عبد الله (زوج أخته) واستفاد بما لدى سالم من ثقافة اليونانيين، فحصل بذلك قدرا كبيرا منها إلى جانب معرفته باللغة الفارسية ، فتميز بالجودة فى إعداد الرسائل الأدبية وكتابتها ونمى معرفته بالثقافة الفارسية عن طريق عبد الله بن المقفع إذ ربطت بينهما صداقة حميمة، وانتقل مع مروان بن محمد [١] إلى موضع ولايته على أرمينية وأذربيجان والجزيرة (١١٤هـ - ١٢٦هـ) وبعث باسمه العديد من الرسائل التى تتنوع بين القصر والطول والتوسط .

وجاءت الأخبار بمبايعة أهل الشام لمروان بن محمد، فسجد لله شكرا وسجد معه أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له " لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلى إن كنت معنا فطرت عنا ؟ فقال : إذن تطير معى ، فقال : الآن

---

[١] مروان بن محمد بن الحكم الأموى ، الذى يعرف بالجعدى وبالحمار ، أما الجعدى فنسبه إلى مؤدبه الجعد بن أدهم وأما الحمار ، فلجرأته فى الحروب .

طالب السجود ، وسجد فاتخذه مروان كاتبا لدولته " [١] .أى رئيسا لديــوان الرسائل .[٢]

وكانت سنوات مروان مليئة بالحروب والقلاقل بسبب ضعف الدولة وتوارد الأخبار عن استعدادات بنى العباس للانقضاض على ما تبقى مـــن رمق فى البيت المروانى ، وكان الخليفة محبا لكاتبـه مشـفقا عليـه ممـا ستكشف الأيام عنه، ولهذا قال له " إنا نجد فى الكتب أن هذا الأمر زائـــل عنا لا محالة ، وسيضطر إليك هؤلاء القوم ، يعنى ولد العبـــاس ، فصــر إليهم فإنى أرجو أن تتمكن منهم، فتنفعنى فى مخلفى، وفى كثير من أسـبابى ، فقال له : وكيف لى بأن يعلم الناس جميعا أن هذا مـــن رأيـك ، وكلـــهم يقول إنى غدرت وصرت إلى عدوك، وأنشد :

أسـرٌ وفـاءً ثـم أُظْـهر غـَـدْرةً فمن لى بعذر يوسع الناسَ ظـاهرُه

ثم قال له عبد الحميد (أيضا) الذى أمرتنى به أنفع الأمرين لك ، وأقبحـهما بى، ولك على الصبر معك إلى أن يفتح الله عليك أو أقتل معك ".[٣]

ولم تستطع رسائل عبد الحميد ولا شجاعة الخليفة أن تقف فـــى مواجهـة جيش أبى مسلم الخراسانى الذى التقى بجيش مروان فى موقعة الـــزاب[٤] وهزمه وولى مروان – ومعه عبد الحميد – وجهه شطر مصر ليقتلا معـــا فى معركة (بوصير) بالفيوم أو بالجيزة [٥].

---

[١] تاريخ الأدب العربى – أحمد حسن الزيات صـــ ١٩٧

[٢] (بين عامى ١٢٧هـــ ١٣٢هـــ)

[٣] كتاب الوزراء والكتاب صـــ ٧٩

[٤] بين الموصل وإربل بالعراق .

[٥] يوجد بمصر أربعة مواضع يسمى كل منها (بوصير) راجع معجم البلدان ليـــاقوت جــ١ ص ٥٠٩

وقيل إن عبد الحميد قد فر بعد موقعة الزاب فظفروا به ، وعرضوا عليه رؤوس القتلى وتم تعذيبه وقتله .

وقيل إن هروبه واختفاءه كان عند ابن المقفع فلما عثروا عليهما قالوا لهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل واحد منهما أنا؛ خوفا من أن ينال صاحبه بمكروه ، وأوشكوا على النيل من ابن المقفع لكن لم يلبث عبد الحميد أن كشف عن علامات ودلائل به ، أخذ بعدها للقاء حتفه .

إن المأساة التى انتهت بقتل عبد الحميد ومن بعده أيضا ابن المقفع قد كشفت عن بعض البذور السيئة التى نبتت فى المجتمع الإسلامى، وأثمرت فسادا وزندقة وشعوبية منقدة فدعوة العباسيين الوافدة من بلاد فارس أكلت فى طريقها كثيرا من الأعاجم الذين لم يتخلص بعضهم من الرواسب القديمة فى دمائهم ، ولم تحرص الرياح الجديدة على الرأفة بهم والتسامح معهم ، ولم يكن عبد الحميد إلا أديبا مخلصا وكاتبا عبقريا، دفع حياته ثمنا لإخلاصه ووفائه .

نماذج من نثره :

لم يقصر عبد الحميد نثره على الرسائل التى كتبت على لسان مروان بن محمد أو غيره ، وإنما نوع فى فنه بين الرسائل والوصايا والوصف ، والعبارات الموجزة التى تشبه بما عرف بالتوقيعات فى زمن تال ، لكن براعته فى كتابة الرسائل وتفوقه فيها جعلت الناس ينصرفون إلى دراستها ونقدها والتعليق عليها وبيان ما إذا كان قد تأثر فيها برسائل الفرس أو بأدب اليونانيين أو بهؤلاء و هؤلاء إلى جانب تطويره لهذا الفن الذى يحفل ببعض الجذور العربية التى لا تنكر ، وهذا ما نقول به ، وسبق أن عرضنا له فى فصل سابق بهذا الكتاب، أما نثر عبد الحميد ورسائله بشكل خاص فهو مناط الحديث هنا بما يحمل من خصائص بيانية وأسلوبية جعلت

صاحبه يتفوق على من قبله الذين أسهموا بدور بارز في هذا المجال، لكن بعضهم من أمثال سالم بن عبد الله كان سيئ الحظ فلم يصل من نتاجه إلا القليل ، وهو على قلته يؤكد ما قيل عن أستاذيته لعبد الحميد، رسوخ قدمه في فن الرسائل، كما تؤكد على أن ما وصلنا من نثر عبد الحميد يرجع معظمه إلى فترة كتابته لمروان بدمشق وهى مرحلة قلقة مضطربة لم ينعم فيها بالهدوء ولا بطول العيش ، أما المرحلة السابقة التى ترافقا فيها أثناء الولاية على أرمينية وأذربيجان والجزيرة وهى حقبة ليست قصيرة فلم يتوفر لنا القدر الملائم من النثر الذى يضع عبد الحميد في وزنه الحقيقى ، وذلك لأن الرواة والمؤرخين لا يهتمون - غالبا- إلا بمن نعم فى مراكز الضوء وعلى مقربة من بلاط الحكم ودوائر الملك ، وإلا فكيف يخلف هذا الأديب المتميز ما مقداره ألف ورقة في الرسائل كما قال ابن النديم [١] وهو قدر ضئيل للغاية ، وأين هى رسائله التى كانت الواحدة منها تحمل على جمل لضخامتها ؟ فهل رسالته التى قيل إنها تبلغ أربعين صحيفة وكتبها على لسان مروان إلى ابنه عبد الله تحتاج إلى جمل، أو أنها تحتاج قبل أن يلتهمها التاريخ وتأتى يد الحدثان عليها، أو ينسفها رجال العباسيين؟ وليس ذلك بغريب فما حدث للرسالة التى كتبها بلسان الخليفة إلى أبى مسلم الخرسانى ، يؤيد ذلك ويرشحه للقبول .

المهم ماذا قال عبد الحميد ؟

كتب رسالة بلسان هشام بن عبد الملك أثناء ولايته وبعث بها إلى يوسف ابن عمر بن الحكم الثقفى وإلى اليمن يطمئن الرعية عما وقع فى الشام من طواعين ، ويحذرهم من الإرجاف والفتن ، وهى من نثر عبدالحميد يوم

---

[١] أنظر الفهرست ص ١٧٠

أن كان فى ديوان الرسائل بدمشق وقبل أن ينقل مع مـــروان إلـــى محـــل الولاية .

وذكر الأعشى فى صبحه رسالة مطولة بعث بها على لسان مروان إلى أبنه وولى عهده (عبد الله) عندما كان واليا على الجزيـــرة ينصحـــه فيها بمحاربة الضحاك بن قيس الشيبانى (الخارجى) حيث مثل خطرا علـى الدولة بالموصل والعراق بين عامى ١٢٧هـــ -١٢٨هـــ .

أما رسالته إلى الكتاب فهى مشهورة جدا وذات أهمية كبـــيرة ، ولا زالـــت أطروحات عبد الحميد فيها حية متجددة قال :

" أما بعد ، حفظكم الله يا أهلَ هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم وأرشـــدكم ، فإن الله جلّ وعزّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلـــوات الله عليـــهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرميـــن سـُوقًا[1] وصرفـــهم فـــى صنـــوف الصناعات التى سبب منها معاشَهم ، فجعلكم معشر الكتـــاب فـــى أشـــرفها صناعة ، أهل الأدب والمروءة ، والحلم والروية ، وذوى الأخطار والـــهمم وسعة الذرع فى الإفضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتســـتقيم للملـــوك أمورُهم ، وبتدبيركم وسياساتكم يُصلِح الله سلطانهم ويجتمع فيهم ، وتعمـــر بلادُهم . يحتاج إليكم الملك فى عظيم ملكه، والوالى فى القَدر السّنى والدنى من ولايته ، لا يستغنى عنكم منهم أحد ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكـــم منهم موقع أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التـــى بـــها يُبصـــرون وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يَبطشون [2]

---

[1] جمع سوقة

[2] كتاب الوزراء والكتاب ص ٧٣ وما بعدها

والرسالة طويلة ومعانيها غزيرة وألفاظها منتقاة وأفكارهـــا حيـــة متجددة ، حيث دعا الكتاب إلى المنافسة فى تحصيل العلم والتفقه فى الديـــن ورواية الشعر ومعرفة اللغة قال :

" فنافسوا ، معشرَ الكتاب فى صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا فى الديـــن ، وابدءوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض، ثم العربيـــة ، فإنـــها ثِقـــافُ ألسنتكم ،وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معيـــن لكـــم على ما تَسْمون إليه بهممكم ... " (١)

ودعا الكتاب إلى صفاء النفس وصدق النصيحة والإخـــلاص إلـــى الأصدقاء والرفق بهم ، ومجافاة التقصير والإسراف فـــى القـــول والثقـــة الزائدة بالنفس وحبب فى العمل الذى جعله آخر ما ختم بـــه رســـالته إلـــى سائر الكتاب .

ولم يكن الرجل مغيبا عن حقوق زملائه؛ فهذه وصاية بـــهم قـــال فيـــها " أكرموا الكتاب ، فإن الله عز وجل أجرى أرزاق العباد على أيديهم "(٢) .

وانقل إلى القارئ رسالة مؤثرة بعث بها إلى أهله وهو منهزم مع مـــروان ابن محمد وكأنه ينعى بها نفسه ويعزيهم عنها قال:

" أما بعد فإن الله جعل الدنيا محفوفة بالكُره والسرور ، وجعل فيها أقســـاما مختلفة بين أهلها ، فمن درت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها سكن إليـــها، ورضى بها، وأقام عليها، ومن قرصته بأظفارها، وعضته بأنيابها وتوطأتـــه بثقلها، قلاها نافرا عنها وذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا منها، وقـــد

(١) السابق ص ٧٥

(٢) السابق ص٨٠

كانت الدنيا أذاقتنا من حلاوتها وأرضعتنا من درها أفاويق[١] استحلبناها، ثم شمست منا نافرة، وأعرضت عنا متنكرة، ورمحتنا مولية فملــــح عذبــها، وأمر حلوها وخشن لينها ، فمرقتنا[٢] ، عـــن الأوطـــان، وقطعتنـــا عـــن الإخوان ، فدارنا نازحة، وطيرنا بارحة، قد أخذت كل ما أعطت، وتباعدت مثل ما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصبا ، وبالجَذَل هما، وبــــالأمن خوفــا، وبالعز ذلا، وبالجِدَة [٣] حاجة ، وبالسراء ضراء ، وبالحياة موتا. لا ترحــم من استرحمها سالكة بنا سبيل من لا أوبــــة لـــه منفيّــن عـــن الأوليـــاء ، مقطوعين عن الأحياء" [٤]

إن هذا بعض ما كتبه الرجل إلى أهله أما الذى كتبه بلسان مروان إلى أبــى مسلم الخرسانى الذى كان يعرف مدى تأثير رسائل عبد الحميد فى النـفس ، فخاف على نفسه منها.

وقد كتب عبد الحميد رسالة مطولة جدا بلسان مـــروان إلـــى أبـــى مســـلم الخرسانى يستميله ويستجلبه ويهدأ من ثورته ، فخاف أبو مســـلم أن تؤثـــر فيه هذه الرسالة التى قيل إنها حملت إليه على جمل لطولها فأحرقها وبعـــث على جذاذة منها هذا البيت إلى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغة ، وانتحى عليك ليوثُ الغاب من كل جـــانب

وقيل إن أبا مسلم لم يعرف من الرسالة بعد الحرق إلا هذه الجملـــة : " إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين "

---

[١] ما يتجمع فى الضرع من اللبن بعد الحلب .

[٢] أى أخرجتنا.

[٣] الجدة : الميسرة .

[٤] الوزراء ص ٧٢ وما بعدها .

ونؤكد على تميز عبد الحميد بن يحيى الكاتب فى صياغته للعبارة وعنايتـــه بالترادف ، وحرصه على صناعـــة الكتابـــة وصفـــاء الديباجـــة وروعـــة الأسلوب، ذلك أنه كان يميل إلى الإيجاز والتركيز غالبا فقـــد كتـــب إلـــى شخص توصية فقال فيها : " حق موصل كتابى عليك كحقه على، إذ جعلـك موضعا لأمله ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله " . فمسألة الطول والقصر تتوقف على مقتضى الحال وطبيعة المقال .

بعض المصادر والمراجع لدراسة عبد الحميد الكاتب وأدبه :-

١-أدب السياسة فى العصر الأموى د. أحمد الحوفى.
٢-الأعلام، خير الدين الزركلى .
٣-البيان والتبيين – الجاحظ .
٤-تاريخ الأدب العربى د. عمر فروخ .
٥-تاريخ الأدب العربى فى العصر الإسلامى د. شوقى ضيف .
٦-صبح الأعشى للقلقشندى .
٧-العقد الفريد – ابن عبد ربه ت محمد سعيد العريان .
٨-الفن ومذاهبه فى النثر العربى د. شوقى ضيف .
٩-فى الأدب الأموى د. سليمان ربيع .
١٠- الفهرست – أبن النديم .
١١- كتاب الوزراء والكتاب، الجهشيارى .
١٢- مروج الذهب – المسعودى ..

وغيرها كثير، والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

أ.د السيد محمد الديب

كتب للمؤلف

	تاريخ الصدور
١- شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى.	١٩٨٤
٢- ياقوت الحموى أديبا وناقـدا.	١٩٨٨
٣- امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين.	١٩٨٩
٤- الغموض فى شعر أبى تمـام.	١٩٨٩
٥- شعراء الطائف فى الجاهليـة والإسلام.	١٩٨٩
٦- فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشـأة والتطـور (الطبعة الأولى).	١٩٨٩
٧- من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى.	١٩٩٠
٨- من روائع الأدب العربى فى العصرين الأمـوى والعباسـى الأول.	١٩٩١
٩- أوزان الشعر- دراسة فى العروض والقـافيـة.	١٩٩٤
١٠- فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية).	١٩٩٥
١١- دراسـات فى الأدب الجاهـلى.	١٩٩٨
١٢- أطوار الأدب العربى فى العصر الإسلامى.	١٩٩٩

تحت الطبع

١- تاريـخ الأدب الجاهـلى.

٢- البحث الأدبى - منهجاً وتطبيقاً.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع : ٥٣٩٣ لسنة ١٩٩٩
الترقيم الدولى
I.S.B.N.: 977-19-8569-8

مركز آيـــات للطباعة والكمبيوتر
مساكن لكوظ - الزراعة - الزقازيق